الحرب في الإسلام

أهداف وتكتيك واستراتيجيا ومفاعيل

من خلال سورة الأنفال

الشيخ محمد جعفر شمس الدين
دكتوراه في الشريعة والقانون







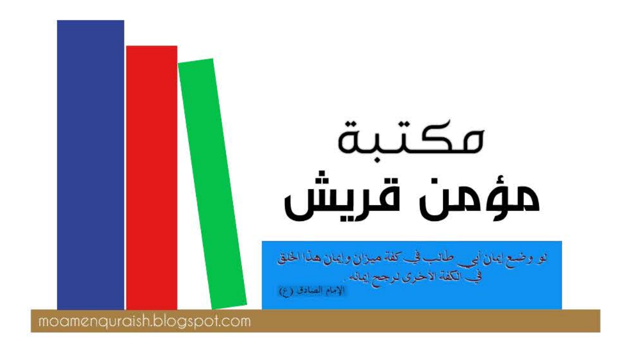
الحرب في الإسلام

أهداف و تكتيك و إستراتيجيا و مفاعيل

من خلال سورة الأنفال

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

ISBN : 9953-484-46-5



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الحـرب في الإسـلام

أهداف و تكتيك و إستراتيجيا و مفاعيل
من خلال سورة الأنفال

الشيخ محمد جعفر شمس الدين
دكتوراه في الشريعة و القانون



للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

القرآن العظيم، كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور، ويرتفع بهم عن مهابط الحيوان، إلى ذرى سامقة، تليق بهذا الكائن، الذي أراد الخالق له أن يكون أكرم مخلوق، عندما أناط به مهمة خلافته له على الأرض.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

وائتمنه على ما ناءت بحمله السماوات والأرض والجبال.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[2].

هذا القرآن العظيم، كان له في قلوب الرَّعيل الأول من المسلمين، مكانة لا يرقى إليه فيها أي شيء، وكانوا لا يعدِلون به أيَّ شيء.

كان المحور الذي يدورون حوله، وينشَدُّون إلى نوره، ويهتدون

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

بهَدْي كلماته، وكان هو الإطار الذي يتحركون ضمن معالمه فلا يتعدَّوْن حدوده.

بهذه الروح، وبهذا الشعور، تلقى المسلمون الأولون كتاب الله، فما مضى إلا وقت يسير، حتى كان القرآن كفيلًا، بتحويلهم من حياة جاهلية مسفة، محكومة لعالم الضرورات والغرائز، إلى حياة عزيزة كريمة، ترفرف عليها السعادة، وتُظَلِّلُها الأمجاد، ولا تجد الغرائز، والضرورات فيها مكاناً، إلا بمقدار ما يأمَنُ الإنسان معه التمزّق والضياع.

ثم دارت عجلة الزمن، وتعاقبت بعد ذلك الرَّعيل ـ ممن حوَّل خط سير البشرية نحو طريق الخير ومنبثق النور ـ أجيال من المسلمين.

وكان كلما اتّسع الفاصل الزمني بين الجيل الأول، والأجيال اللّاحقة، كلما ضعف تأثير القرآن في النفوس، وتأثّر النفوس بالقرآن، حتى غدا ـ في زماننا هذا ـ غيرَ ذي أثر بالنسبة للغالبية العظمى ممن يعتنقون الإسلام.

وهنا يقفز إلى ذهننا سؤال:

ما هو السر ـ يا ترى ـ في عدم تأثير القرآن أو التأثر به، بالنسبة للأجيال المسلمة التي تلت الجيل الأول من المسلمين؟

والذي يتبادر إلى الذهن في مقام الإجابة على هذا، التساؤل، هو أن السبب فيما صار إليه المسلمون، من عدم تأثرهم بكتاب ربهم، وما صار إليه القرآن من عدم التأثير في نفوس المسلمين، ينحصر في أحد أمرين لا ثالث لهما:

إما لتبدّل أو تحريف طرأ على القرآن، بحيث لم يعد هو الكتاب الذي أثّر ذلك الأثر العظيم في نفوس المسلمين الأولين، وهذا الذي بين أيدينا كتاب آخر، لا علاقة له بما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ!

وإما لتبدّل جذري طرأ على نفوس المسلمين في العصور المتأخرة، حتى غَدَوا والجيل الأول من المسلمين أسلافِهم على طرفَيْ نقيض!

أما الأمر الأول، وهو تبدّل القرآن أو تحريفه، فمقطوع العدم. إذ أن ما بأيدينا اليوم من القرآن، هو نفس ما كان بأيدي الجيل الأول من المسلمين، بسوره وآياته، بل وحركاته وسكناته، وهو هو ما أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، تناقلته الأجيال يداً بيد، بالتواتر، حتى تسلّمناه نحن في هذا العصر.

فالقرآن العظيم، هو كتاب الله الخالد، الذي أنزله وتكفّل بحفظه إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

إذن، لم يبق أمامنا، إلا أن نفتش عن السبب لذلك، داخل نفوسنا نحن المسلمين.

وكلمة الحق التي يجب أن تُقال هنا، أن المسلمين، عندما عزلوا القرآن من حياتهم، ضُربت عليهم الذِلّة، وصاروا إلى ما نرى، من هزيمة الروح في واقعهم، وضمور المثل والقيم الإنسانية فيهم، واضمحلال روابط الدين وعرى الأخلاق فيما بينهم.

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

وقد أدى ذلك كله، إلى ما نشاهده من تفسّخ يبدو لأعيننا في كثير من ظواهر الاجتماع، وانحطاط خلقي يبدو واضحاً في كثير من أوضاعهم.

ولكن، كيف تسلَّلت هذه الأدواء إلى كياننا فأفسدته؟

والجواب على ذلك، أن الحضارة المادية، التي استهوانا منها بريقها الزائف، وتحللها من كل ما يرتفع بالإنسان إلى أعلى، هذه الحضارة، استثارت غرائز الحيوان فينا، فكان بعد ذلك، أن اندفعنا في العبِّ منها، دون أن يكون لمِثُلنا، وتقاليدنا التي اكسَبَناها قرآننا علينا من سلطان.

ولم يضق الاستعمار الكافر، متمثلًا في طلائعه الغازية، من مستشرقين وغير مستشرقين، بجهد، في سبيل تشويه ثقافتنا، وقرآننا، وديننا بوجه عام. لأنهم رأَوا، أن أخطر ما يهدد سيطرتهم علينا، هو أن نتمثَّل تراثنا الثقافي، الذي يمثل القرآن الكريم مركز الصدارة فيه وأن أحسنَ ما يدعم هذه السيطرة، إنما هو جرنا إلى مفاهيمهم ومُثُلِهم في الحياة.

وهكذا كان، حتى غدا المسلمون اليوم، لكثافة السُّجُف التي لفَّت نفوسهم، والشهوات التي انغمسوا فيها وتهالكوا عليها، وحملات التشكيك التي تعرَّض لها دينهم وتراثهم، لا يملكون من الوعي لثقافتهم وتراثهم ذاك، بل يقف كثير منهم، موقف العداء من هذا التراث، وخيرهم من يقف موقف الرثاء لهذا التراث (العتيق)، الذي أدى رسالةً اقتضاها طور تاريخي خاص، انقضى فانقضت معه

إمكانات الحياة بالنسبة إليه. فما علينا ـ بحسب جهل هؤلاء ـ إلا أن نحتفظ به كأثر تاريخي، تحيط به هالة من أساطير القرون!؟

وقد نال القرآن العظيم، القسط الأكبر من الحملات التهويشية والتشويهية، التي شنّها الاستعمار الكافر بشراسة، اعتقاداً منه بأنه إذا تمكن من زعزعة ثقة المسلمين بقرآنهم، فسوف يكون معنى ذلك، أنهم خسروا الأرضية الصلبة، التي يُمكنهم أن يقفوا عليها، في تحديهم لهذا الاستعمار بكل ضروبه وأشكاله.

وهذه حقيقة، تبدو جليةً لكل مَن اطّلع على بحوث المستشرقين وكتاباتهم عن الإسلام بشكل عام. والقرآن بصورة خاصة.

يقول كولدتسيهر[1] عند كلامه عن القرآن «من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من التناقضات. ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر أهمية وخطراً، إلا آثار عامة نجد فيها إذا بحثنا في تفاصيلها أحياناً تعاليم متناقضة».

ويقول هذا المستشرق الحاقد في موضع آخر[2] «وكان وحي النبي حتى في حياته معرَّضاً لحكم النقّاد، الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص، وكان عدم الاستقرار والطابع المتناقض البادي في تعاليمه، موقع ملاحظات ساخرة».

---

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٧٨ ـ ٧٩. وفي رأيي أنه ينبغي مطالعة كتب أهم المستشرقين عن الإسلام لكي يلمس القارئ بشكل حسي مدى حقد هؤلاء على هذا الدين وكتابه ويستكشف خلفيات هذا الحقد ودوافعه بنفسه فليطالع كتاب مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر، وكتاب تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان وغيرها.

(٢) نفس المصدر السابق.

وعلى ضوء هذه الحقيقة التي عرضناها، يتضح أن واجب المسلمين اليوم، إذا أرادوا أن يستعيدوا ما خسروه من مواقع ومواقف، وأن يخرجوا من الهوة التي ارتكسوا فيها، أن يرجعوا إلى كتاب ربهم، رافضين كل حملات التشويه والتشكيك التي ضللهم بها الاستعمار الكافر من خلال افتراءات المستشرقين، أن يرجعوا إلى كتاب ربهم، ففيه وحده خلاصهم.

رُوي عن علي عليه السلام أنه قال:

«أما إني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: ستكون فتن. قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله. كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل. هو الذي من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله. فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. هو الذي مَن قال به صدق، ومَن حكم به عَدَل، ومَن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[(١)].

واجب المسلمين، أن يرجعوا إلى كتاب ربهم، يتدبرون آياته، ويتفيأون ظلاله، ويستلهمونه حلول مشاكلهم، لعلهم يرشدون.

ونحن، سوف نحاول في دراستنا هذه لسورة الأنفال، أن نختط منهجاً في التفسير، يكون رائدنا فيه الحرص على أن نقدّم بعض آيات القرآن العظيم، مع تجلية لما اشتملت عليه من مفاهيم وأفكار، تكوّن بمجموعها الصورة المتألقة الوهّاجة، التي ينبغي أن يكون عليها

---

(١) سنن الدارمي ٢/ ٤٣٥، وتفسير الرازي ١/ ١٦٠.

الإنسان المسلم، علّ ذلك يؤدي بالتالي، إلى أن نتمثل هذه الأفكار، وتلك المفاهيم، لتعود في المستقبل القريب ـ بإذن الله ـ سمات الجيل الأول من المسلمين، ذلك الجيل الذي حمل القرآن للبشرية، على أنه المخلِّص والهادي والمرشد. ويكون بذلك انطلاقة بعث جديد للطاقات الكامنة في أمة الإسلام، تحتل بتفجيرها مركز القيادة للبشرية التعسة، التي تتخبط في دياجير جاهليتها وحيوانيتها. والله من وراء القصد.

محمد جعفر شمس الدين

تمهيد

تعتبر سورة الأنفال، من أهم السور القرآنية ـ وكل القرآن مهم ـ وأهميتها تنشأ من كونها نزلت محددة ملامح فترة جديدة من حياة المسلمين. فترة، تميزت بانطلاقة عملاقة للإسلام، حطمت معها كثيراً من الحواجز التي كانت تعترضه، وكان ذلك بداية طيبة لتخليص الإنسانية من المآسي التي ضجّ بها تاريخها الطويل. ومقررة لأسلوب جديد من أساليب الدعوة، كانت معركة بدر فاتحة ناجحة له.

هذا إضافة، إلى أنها فتحت عيون المسلمين، على بعض مواطن الضعف في نفوس أعدائهم. ووضعت لهم كثيراً من القواعد التي يجب عليهم أن يتبعوها خلال قتالهم مع هؤلاء الأعداء، وشرعت بعض أحكام الجهاد، والأسرى، والغنائم، إلى غير ذلك من الأمور والموضوعات.

وسورة الأنفال، خمس وسبعون آية في الكوفي، كلها مدنيّة[١]، قيل بأنها أول ما نزل على النبي ﷺ في المدينة[٢].

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥١٦.
(٢) تفسير التبيان للطوسي ٥/٧١.

وذهب ابن عباس، وقتادة[١]، إلى أنها مدنية عدا سبع آيات نزلت بمكة. وذهب الحسن، وعكرمة، إلى أنها بأجمعها نزلت في معركة بدر[٢].

وسواء كانت هذه السورة قد نزلت بأجمعها في معركة بدر أَوْ لا، فمما لا نقاش فيه، أن جُلَّها يدور حول وصف هذه المعركة، بجميع ملابساتها السابقة عليها والمقارنة لها، وعلاج ما نجم عنها من أسرى وغنائم ومواقف.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

الأنفال، جمع نَفَل - بالتحريك، - وهو لغة[٣] - الزيادة على أصل الشيء، يقال: نفلته كذا إذا زدته، ومن هنا أطلقت النافلة على ما زاد على الصلاة المفروضة.

وقد اختلف المفسرون في المراد من الأنفال في الآية الكريمة.

فذهب[٤] ابن عباس، وقتادة ومجاهد كما روى عكرمة عنهم، إلى أن المراد بالأنفال هنا الغنائم التي غنمها المسلمون يوم بدر.

بينما ذهب آخرون[٥]، إلى أنها ما شذَّ من المشركين إلى المسلمين من عبد أو جارية من غير قتال أو غير ذلك.

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥١٦، وتفسير الفخر الرازي ١٥/ ١١٣.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥١٦، وتفسير الميزان للطباطبائي ٩/ ٥.

(٣) راجع لسان العرب لابن منظور مادة - نَفَل -.

(٤) البيان للشيخ الطوسي ٥/ ٧١، ومجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥١٧.

(٥) نفس المصدر.

وقيل: بأن الأنفال ما سقط من المتاع بعد قسمة الغنائم من الفرَس والدرع والرمح.

وقيل[١]: بأنها كل ما كان من فتح لم يقاتل عليه ولم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وبطون الأودية، ورؤوس الجبال والموات، وغيرها.

ومن الواضح، أن هذه الأمور التي ذكرت أخيراً، هي ما يصطلح عليه بالفيء عند المتشرعة إذ أنه في اصطلاحهم، كل ما يؤول إلى أيدي المسلمين من الكافرين بغير قتال (وهو ملك للدولة، أي للنبي أو الإمام باعتبار المنصب، ولذا يعتبر الفيء نوعاً من الأنفال)[٢].

وقد يكون إطلاق الفيء في اصطلاحهم على الأنفال وجعله نوعاً منه، بلحاظ ما ورد[٣] في بعض الروايات عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، حيث كان لسانها جامعاً بين كلا اللفظين.

ومهما يكن المراد من الأنفال، فلا إشكال في أن المراد بها هنا - ومن وجهة نظرنا - باعتبار مناسبات الحكم والموضوع، خصوص ما غنمه المسلمون من المشركين في معركة بدر. ولكن ليس معنى ذلك، أن الحكم فيها خاص بخصوص هذه الغنائم، وإنما يشمل كل غنيمة، إذ أن المورد عندنا لا يخصِّص الوارد.

---

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي ٦/ ٣٦٤ وما بعدها.
(٢) اقتصادنا للسيد محمد باقر الصدر ٢/ ٦٣٣.
(٣) وسائل ٦/ ٣٦٨.

ولعل الوجه في تسمية هذه الغنائم أنفالًا، زيادتها عن الغاية التي خرج المسلمون من أجل تحقيقها، وهي قتال المشركين، وكسر شوكتهم، وقطع دابرهم، وإعلاء كلمة الله في الأرض.

سبب النزول

وتتضح وجاهة ما اخترناه، من أن المراد بالأنفال هنا، خصوص ما غنمه المسلمون في بدر، إذا تصورنا ما كان عليه حال المسلمين بعد انتهاء القتال وإحراز النصر. يحدثنا الطبري عن ذلك بعد أن وصف أحداثَ معركة بدر:

(ثم إن رسول الله ﷺ أمر فجمع ما في العسكر، فاختلف المسلمون فقال من جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو: والله لولا نحن لما أصبتموه، نحن شغلنا القوم عنكم حتى أصبتم ما أصبتم. وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ وهو في العريش، والله ما أنتم بأحق به منا، لقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن له من يمنعه، ولكن خفنا كَرَّةَ العدوّ على رسول الله ﷺ فقمنا دونه، فنزع الله الأنفال من أيديهم وجعلها إلى رسول الله)[١].

وهذا النص، يوضح لنا، ما كان عليه حال المسلمين بعد انتهاء القتال في بدر، والانقسام الذي حصل بينهم، وأن سبب هذا الانقسام ينحصر في ملكية ما غنموه من المشركين، حيث ادَّعت كل فئة أحقيّتها في ذلك.

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ٢٨٥، وراجع الدر المنثور للسيوطي في تفسير الآية، فقد أخرجه بسنده عن عبادة بن الصامت بشكل أوسع.

وقد أدى بهم هذا التنازع والانقسام إلى أن يرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ لكي يحكم في هذه الغنائم، ويضع حداً لهذا الخصام والانقسام، فنزلت الآية الكريمة.

ومما لا ريب فيه، أن حدوث مثل هذا الاختلاف في صفوف المسلمين وهم ينتصرون لأول مرة في تاريخهم مما قد يجعلهم غير مقدرين لأهمية هذا النصر، في حين، أن عدوهم وهو ينهزم لأول مرة هزيمة مُرَّة، مما قد يجعله أحرص على تحطيم المسلمين والقضاء على دعوتهم بإعادة الكرة عليهم بعد أن تراجع عن مواقعه ليستجمع قواه.

إن حدوث مثل هذا الاختلاف في صفوف المسلمين في مثل هذا الظرف الدقيق، سوف يكون له أثر خطير على مستقبل الإسلام والمسلمين، بما سوف ينتج عنه من تصديع للجبهة الإسلامية، وفتن قد تعصف بالمسلمين وتمزقهم شر ممزق، وتشتت جهودهم في مسارب جانبية وتافهة، تصرفهم عن غرضهم الذي انتدبوا إليه، ألا وهو العمل على نشر لواء الدعوة الإسلامية، والذود عن كرامة الإنسان المهدورة في ظل جاهلية رعناء.

ومن هنا كانت الحكمة تقتضي أن يتدخل ولي الأمر بحزم وقوة، ليطوّق المشكلة، ومن ثم يخنق الفتنة في مهدها، وذلك لا يكون إلا بحسم مادة الفساد ومنشأ الانقسام، وهو ما حدث فعلًا حيث ورد النص صريحاً قاطعاً لا تراجع فيه ولا غموض، ولا تردد، ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

إنكم تتنازعون وتتخاصمون، وها أنتم جئتم الآن تحتكمون، وقد نزل الحكم مبرماً غير قابل للأخذ والرد.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1].

فاتّقوا الله فيما حكم، واتقوا الله فيما مضى..

وتقوى الله، إنما تكون بالخضوع لحكمه، والرضوخ لقضائه، فليست التقوى في الإسلام، مجرد لقلقة لسان، أو شيئاً نظرياً فقط، وإنما هي تجسيد عملي، واستشعار داخلي لعظمة الله وقدرته، يكون باعثاً على الاندفاع للعمل بما يرضيه ومن هنا كانت من أبرز الخصائص التي تُؤطِّر شخصية الإنسان المتقي هي تلك التي تعبر عن نفسها في صيغة عملية.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[2].

فأمر المسلمين هنا بتقوى الله، دعوة لهم إلى تمثل كل هذه الخصائص التي تَنْتَسِج منها شخصية الإنسان المسلم، والتي تكون النتيجة الحتمية لتمثلها في لحظات الانصياع لحكم الله فيما حكم،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٧.

وقضائه فيما قضى من أمر الأنفال. وحينئذٍ، سوف تتلاشى في لحظات أيضاً، تلك الإحَنُ والحزازات التي نشأت من جراء التخاصم، والاختلاف حول مِلْكية الأنفال.

وبهذا تتهيأ الأرضية الصالحة لعودة النفوس المسلمة، التي تنازعتها الخلافات والمنازعات فترة وجيزة، إلى ما كانت عليه من صفاء وود، ومن هنا ورد الأمر الإلَهي التالي، مرتباً على الأمر بالتقوى وهو إصلاح ذات البين.

﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾

والأمر بالإصلاح هنا، يستشعر منه مدى الخراب الذي لحق بالعلاقة التي كانت قائمة بين المؤمنين قبل معركة بدر وأثناءها، إذ الإصلاح لا يكون إلا لما أصابه عطب أو طرأ عليه خلل، ولكن عطب وخلل كل شيء بحسبه. فالخلل في الآلة عادة، يكون ناشئاً عن تعطّل جزء فيها، لا تعود إلى تأدية ما صممت له من عمل، إلا بإبدال ذلك الجزء المعطوب أو إصلاحه.

ومن الواضح، أن الخلل الذي طرأ على علاقات المسلمين في تلك الفترة، إنما كان ناشئاً عن تعطيل لجانب مهم من جوانب النفس المؤمنة، وهو التقوى، وغفلة عن الغرض العظيم الذي خرجوا من أجل تحقيقه في بدر، ذلك الغرض، الذي لم يكن من مقولة المادة ولا عرضاً دنيوياً.

ومن هنا كان الحكم بانتزاع ملكية الأنفال، وحصرها في الله والرسول، كفيلًا برد المسلمين إلى صوابهم. وهزة قُصِد منها

تذكيرهم بما غفلوا عنه من غرض أُنيطَ بهم تحقيقه. وكان أمرهم بالتقوى كفيلًا بدوره أن يعيد للنفس المسلمة المقوم الخطير الذي افتقدته لحظة من لحظات الضعف الإنساني.

ثم يجيء الأمر الثالث:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

فيما أمرتم به، من التقوى وإصلاح ذات البين، بل في كل ما تنوون وما تفعلون. فإطاعة الله ورسوله في هذا الذي أمرتم، وفي جميع ما تصدرون عنه من قول أو عمل، هي المحكّ الذي يختبر عليه إيمانكم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

شبهة وردّها

وهنا قد يحاول بعض المغرضين، أن يتخذوا من اختلاف المسلمين على ملكية الغنائم في بدر، مطعناً ومغمزاً، يحطون به من مقام هذه العُصْبَة المؤمنة وغرضهم من وراء ذلك، التشكيك في قدرة الإسلام، على صوغ نفسيات رجاله، وبناء شخصيات أتباعه؟!

والتشكيك في قدرة الإسلام على صوغ نفسيات رجاله وشخصياتهم، تبدو سخافته، بمجرد تصور أولئك العمالقة من الناس، الذين جعل منهم الإسلام قمماً شامخة، تحاول البشرية أن تضعها هدفاً لتطلعاتها، في حركتها الدائبة إلى أعلى على مر العصور والأجيال.

ومن يلتفت إلى هذا التشكيك، وهو يرى كيف أن المسلمين قد

استطاعوا في برهة وجيزة، أن يدوّخوا العالم المعروف آنذاك، ويطأوا بأقدامهم أرض أوروبا، وأقصى المشرق، بعد أن كانوا قبل إطلالة الإسلام على دنياهم حفنة عبيد، لا يحيون إلا لساعتهم، ولا يغضبون إلا لغرائزهم ألّا تجد ما يشبعها وَيَسُدّ جوعتها.

وهل صاروا إلى ما صاروا إليه من مجد وعزة، وعظمة، بغير تلك الروح، التي نفخها الإسلام فيهم، فأحالهم إلى مخلوقات جديدة ذات تطلعات وطموحات؟

تلك الروح التي صاغهم الإسلام على أساس منها، كانت هي التفسير الوحيد لما آلت إليه حال المسلمين، وما صاروا إليه.

هذا، إضافة إلى أنا نؤمن بأن التنازع والاختلاف على ملكية الغنائم، لم يصدر إلا عن فئة قليلة من المسلمين، ولم يكن صفة عامة كي ينفذ منها المتشككون ليطعنوا في قدرة الإسلام على طبع أتباعه بأخلاقه ومثله، ومثل هذه الفئة التي يستهويها بريق المادة الزائفة، فيجعلها تنسى ما ينبغي لها أن تكون عليه من تَرفّع وإباء، مثل هذه الفئة لا تنفك عنها أمة، ولا تسلم منها دعوة.

تفسير وتوجيه

والواقع أن اختلاف المسلمين على ملكية الغنائم، قد يبدو من خلال النظرة السطحية، والملاحظة العابرة، أمراً غير لائق، ولا مستساغ، خصوصاً وأن النبي ﷺ وشيوخ المهاجرين والأنصار، بين ظهرانيهم.

ولكن الحقيقة، أنه عند النظرة المعمقة، والتدقيق المحايد،

يمكن أن تبدو لنا وراء هذا الموقف، بعض الأسباب والمبررات الموضوعية. وأهم هذه المبررات والأسباب في نظرنا اثنان:

أولاً: إن الظروف النفسية، والاجتماعية، التي اكتنفت المسلمين في المدينة، كانت عاملًا من العوامل التي أدت إلى التنازع على امتلاك الغنائم.

فالمهاجرون كانوا قد دخلوا يثرب، مخلفين وراءهم مكة، وكل ما يملكون فيها من أموال وعقارات، في حين كان منهم الأثرياء والموسرون، حيث اضطروا إلى أن يعيشوا في المدينة ضيوفاً على أهلها من المؤمنين، عيشة لم يكن كثير منهم - في مقاييس المادة - ليرتضيها لنفسه، فيما لو كان بين أهله وفي أرضه.

ولعل كل واحد من المهاجرين هؤلاء، كان يرى في كل رجل من مشركي مكة، سارقاً اغتصب منه أرضه، وماله، ولذا فهو بهذا الشعور، كان يرى أن من حقه أن يقتص منه، وأنه أحق بماله ومغنمه من غيره.

والأنصار بدورهم، كانوا في وضع مالي لا يغبطون عليه، بعد أن نزل بينهم المهاجرون، ووجدوا أنفسهم ملزمين أدبياً بحكم قانون الضيافة ودينياً بحكم أخوة العقيدة، بأن يقوموا اتجاههم بكل ما توفره لهم ظروفهم الحياتية والمادية، كي يخففوا عنهم بعض ما يقاسون من فراق الأهل والمال والوطن...

ومن هنا، ناءت كواهلهم بحمل هذا العبء، وإن لم يجهروا بما يعانون. ولم يستشعر إخوانهم المهاجرون في يوم من الأيام، من أي منهم، بما يوحي باستثقال أو تذمر أو تضجرّ...

ومن الواضح، أن إنساناً يحمل من المسؤوليات المادية والأدبية أضخمها، كان يرى أن من حقه بدوره أن يتملّك الغنائم لتكون ضماناً لاستمراره في القيام بأعباء مسؤولياته تلك.

ثانياً: إن للغنيمة عن طريق الحرب، لذة لا يدركها إلا أولئك الذين نشأوا تحت ظلال السيوف، وأسنة الرماح، العرب، قبل أن يعزهم الله بالإسلام، حتى أصبح عندهم الكسب عن طريق الحرب، أمراً يطبع حياتهم وسلوكهم بطابعه.

ومن البديهي، أن الإنسان عندما ينشأ وفق سلوك مُعيّن، ويحيا نمطاً من الحياة مُعَيَّن، لا يكون انتزاعه من بيئته ذات الأنماط المعينة من السلوك والحياة، أمراً ميسوراً.

بل لا بد لتحقيق ذلك، إضافة إلى تربية وتنشئة على أصول للحياة جديدة، وقواعد للسلوك جديدة، من عنصر زمني طويل الأمد، يكون كفيلاً، إذا انضمت إليه تلك التربية الخلقية والروحية، بالقضاء على كثير من العادات والأنماط، التي تتعارض مع هذه التربية المستجدة.

ومن الواضح، أن كثيراً من المسلمين في بدر، كانوا حديثي عهد بجاهلية، وأن كثيراً منهم، كان قد قضى شبابه وجانباً من شيخوخته، في بيئة أبرز صفاتها الغزو والكسب عن طريق الحروب، ولذا كان من الطبيعي، أن تثور عند بعضهم في تلك اللحظات، رواسبهم النفسية وعاداتهم القبلية حيث أدت بهم إلى التنازع على ملكية الغنائم في بدر.

دعوى نسخ هذه الآية ومناقشتها:

وقد روي[١] عن مجاهد، وعكرمة، والسدي، وغيرهم، أنهم يقولون بأن آية الأنفال هذه، قد نسخت بآية الخمْس، من هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية.

وهذا شيء لا يمكن المساعدة عليه، لأن النسخ هنا، يتوقف على ثبوت أَمرين:

الأول: وجود دليل يدل على النسخ، إذ أنه بالإجماع لا يكون إلا بدليل ولا دليل هنا عليه.

الثاني: إثبات التنافي بين الآية السابقة والآية اللاحقة، بحيث لا يمكن الجمع بينهما بحال، ومن الواضح، أنه لا تنافي بين آية الخمس المتأخرة، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ إلا بالإجمال والتفصيل، إذ أن آية الأنفال، لم تبيّن إلا أن ملكية الغنائم في الأصل، إنما هي لله والرسول، من دون تعرض لبيان مصارفها، فجاءت آية الخمس لِتُفصِّل هذه المصارف، وأن الرسول يقسم أربعة أخماسها، على المسلمين بعد اقتطاع الخمس المفروض، ليوزعه على الأصناف الستة، كما سنوضحه عند تعرضنا لتفسير الآية ـ في محله ـ إن شاء الله.

وعلى كل، فقد امتثل المسلمون ما أمروا به، ورضخوا في أمر الغنائم لحكم الله ورسوله، وهذا شيء لا بد منه بل لا يمكنهم ـ

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١١٦/١٥ كما يراجع تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٧٤/٥.

بحكم إيمانهم ـ أن يصدروا عن غيره، ومع هذا، فليس الرضوخ والقبول لهذا الحكم بالشيء السهل، ليس هيناً أن يقاتل الإنسان الأعداء، ويعرض نفسه بذلك للقتل، ثم تنتزع منه بكلمة واحدة، كل مكاسبه المادية، التي كان يرى أن من حقه الاحتفاظ بها لنفسه، لأنها تسببت عن جهوده وتضحيته الشخصية، بل كان لا بد لبعض المسلمين، من أن يستشعروا في أنفسهم شيئاً من المظلومية، وهضم الحقوق.

ولعل ما حدّث به سعد بن أبي وقاص ـ وكان قد اشترك في بدر مع المسلمين في قتال المشركين ـ يؤكد لنا هذه الحقيقة التي عرضناها. قال سعد: «قتل أخي عمير يوم بدر، فقتلت سعيد بن العاص بن أمية، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فجئت به إلى النبي ﷺ واستوهبته منه، فقال: هذا ليس لي ولا لك، اذهب فاطرحه في القبض، فطرحته ورجعت وبي ما لا يعلمه إلا اللّه، من قتل أخي، وأخذ سلبي، وقلت: عسى أن يعطي هذا لمن لم يبل بلائي»[1].

وقد كان الله سبحانه، يعلم هذا من ذلك البعض، ولذا كان مقتضى الحكمة أن يزال هذا الشعور، لتتخلص النفوس من كل ما يمكن أن يُنغِّص عليها الحياة، لتشعر بعدها بلذة النصر العظيم، الذي صنعه المسلمون بتأييد الله سبحانه على قوى الشر والظلام.

وليس أجدى وأنفع، في مقام تحقيق هذا الغرض، من الكلمة

---

(١) تاريخ الطبري ١٣/٣٧٣.

الطيبة، والموعظة الحسنة، تخاطبان عقل المؤمن وقلبه، فتجلوان الغشاوة المادية، التي تمنع الإنسان في بعض المواقف، من الرؤية الصحيحة، فتغيم أمام بصيرته المفاهيم التي يعتنقها ويؤمن بها.

ومن هنا، طالعنا موكب جليل من الآيات الكريمة، تقطر كلماتها بلسماً، كان قميناً بأن يعيد إلى النفوس القلقة هدوءها، واطمئنانها، وكان افتتاح هذه الآيات بذكر بعض صفات المؤمنين.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

قلّ أن يذكر المؤمنون في القرآن، دون أن يقترن ذكرهم، بذكر شيء من صفاتهم المميزة لهم.

وهذه الصفات، قد تطول، كما هو الحال في مطلع سورة «المؤمنون» وقد تقصر كما في كثير من السور، وقد تكون بين بين، كما في هذه الآية التي بين أيدينا من سورة «الأنفال». حيث تضمنت خمس خصال حصرتها في المؤمن بلفظ (إنما) التي هي أقوى أدوات الحصر، كما قيل.

وهذه الخصال هي: الوجل لذكر الله، ازدياد الإيمان عند استماع آياته، توكلهم على ربهم، إقامتهم للصلاة، إنفاقهم مما رزقهم الله. . .

ومن الواضح، أن الخصال الثلاث الأول هي من أعمال القلوب

وأما الأخيرتان فمن أعمال الجوارح. «وقد روعي في ذكرها الترتيب الذي بينها بحسب الطبع. فإن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجاً فلا يزال يشتد حتى يكمل فيتأثر القلب بالوجل عند ذكر الله، ثم ينمو وينبسط كلما تأمل في آيات الله الدالة عليه فيزداد إيماناً ويترسخ حتى يصل إلى مرحلة اليقين حيث يعرف مقام ربه وأن الأمر كله إليه سبحانه ومن هنا يتوكل عليه ويفوض أمره إليه ويتعمق شعوره بعبوديته له والصلاة مظهر حسي لها مع أنها عبادة بين العبد وربه، فبقى أن يجسّد هذه العبودية له سبحانه في عمل محسوس آخر هو الزكاة كعبادة وإن توجه بها إلى ربه أيضاً، إلا أنها فعل يقوم بينه وبين سائر أفراد مجتمعه، امتثالاً لأمر الله سبحانه»[١].

الخصلة الأولى

وهي وجل القلوب، والوجل، هو الخوف والفزع، أو هو استشعار الخوف. ولا ريب في أن الإنسان إذا آمن بالله وتصوّر جبروته، وقدرته التي تعجز أمامها كل قدرة.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[٣].

وتصوّر علمه الذي أحاط به بكل شيء.

(١) الميزان للطباطبائي، ٩/ ١١ ـ ١٢، بتصرف.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤١.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[1].

وتصور أنه يعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد. وأدرك شدة العذاب الذي ينتظره في الآخرة، إذا ما خرج على حدٍّ من حدود الله، أو عصى أمراً من أوامره، أو نهياً من نواهيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[2].

لا ريب في أن الإنسان بحكم إيمانه، إذا ذُكِرَ الله أمامه، فسوف يتصوره سبحانه بصفاته هذه، ثم يتصور ما هو مطلوب منه اتجاهه، وما سوف يلاقيه من عذاب، إذا لم يؤدِّ هذا المطلوب، فسوف يأخذه الوجل، والخوف، فيندفع إلى امتثال أوامر ربه، والانزجار عند نواهيه، من دون تأخير أو تهاون.

فالوجل، كما يحصل من تصور ما توعَّد الله سبحانه به مخالفي أحكامه من عذاب، كذلك يحصل من تصور ما وصف به سبحانه نفسه، من صفات القدرة، والجبروت والهيمنة، والعظمة.

توهم ودفع

وقد يتوهم أن هناك منافاة بين هذا الجزء من هذه الآية، وبين

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٨.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ٤٠، ٤١.

قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1] حيث إن ما بين أيدينا ينص على أن ذكر الله موجب لوجل القلوب، بينما الآية التي في سورة الرعد، تنص على أنه يكون سبباً لاطمئنانها، فكيف يكون ذكر الله سبباً لأمرين متناقضين وهما الوجل والاطمئنان؟

ويندفع هذا التوهم، بمجرد الالتفات إلى الفرق بين ذكر الله سبحانه ـ الذي هو موضوع الآية التي بين أيدينا ـ بما هو عليه، من صفات القدرة، والإحاطة والجبروت، والقهر والعزة، حيث يستشعر الإنسان إزاءها ضعفه وجهله وفقره، فيأخذه الخوف والوجل، عندما يتصور موقفه بهذه الصفات، بين يدي الله بتلك الصفات، وبين الاستماع إلى ذكره الذي هو القرآن، والذي هو موضوع الآية التي في سورة الرعد.

وقد ذهب بعض المفسرين[2]، إلى ذكر فارق موضوعي آخر بين الآيتين.

فالذكر الذي يكون سبباً لوجل القلوب، هو آيات الوعيد والعقاب في القرآن، بينما الذكر الذي يكون سبباً لاطمئنانها هو آيات المغفرة والرحمة والإحسان فيه.

الوجل والاطمئنان من أفعال القلب

والوجل، فعل من أفعال القلب، ولذلك ورد ـ في المواضع التي ورد فيها القرآن ـ مقترناً به، كما في هذه الآية. وكما في قوله

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥١٩.

تعالى في سورة «المؤمنون»: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[١].

وكما في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢].

كذلك ما يقابله وهو الاطمئنان. كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

وقد ينعكس كل من الوجل والاطمئنان على حواس الإنسان، فيؤثران في سلوكه الخارجي.

الخصلة الثانية

وهي ازدياد الإيمان، عند استماع آيات الله. سواء كانت تلك الآيات متعلقة بالجانب التشريعي، أو الأخلاقي، أو الكوني، أو القصصي.

والتلاوة: هي القراءة.

الخلاف حول ازدياد الإيمان

وقد وقع الخلاف بين العلماء، حول كيفية ازدياد الإيمان، فذهب البعض، إلى أن الإيمان هو التصديق بالألوهية والرسالة، وبما جاءت به من عند الله لأنه اليقين، وعدم احتمال النقيض، فإذا نقص عن تلك الدرجة لم يكن تصديقاً، بل كان شكاً أو ظناً وهما غير الإيمان المفسر بالتصديق[٣].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت ٥٧١.

مناقشة

والظاهر من هذا الاستدلال، حصر التصديق باليقين، وجعل الظن قسماً في قباله، وهو غير دقيق، إذ أن اليقين أحد قسمي التصديق، والقسم الآخر له هو الظن، لا أن الظن قسيم للتصديق[١].

ومهما يكن، فلا إشكال في أن اليقين هو أعلى قسمي التصديق، باعتباره مقترناً مع عدم احتمال النقيض.

رأي الشيخ شلتوت في المسالة ومناقشته:

وقد ذهب الأستاذ شلتوت[٢]، إلى أن الإيمان بمعنى اليقين مما يقبل الزيادة والنقصان من جهات ثلاث.

من جهة وسيلته، وهي الأدلة، حيث قال: «وكلما كان الدليل أوضح، وأقرب، وكلما تكاثرت الأدلة، كان العلم أشد رسوخاً في النفس، وأعمق أثراً في القلب فلا تزلزله الشبهات».

ومن جهة متعلقه، وهو القضايا المصدق بها حيث قال: «فإنه لا شك أن الإيمان بها عن طريق إجمالي، لا يساوي الإيمان بها عن طريق تفصيلي».

ومن جهة أثره وهو العمل، حيث قال: «فإنه لا شك أن تكرار العمل بمقتضى الفكرة، مما يثبت الفكرة ويزيدها رسوخاً في النفس، وأن إهمال العمل بمقتضى الفكرة، مما يورث ضعف الفكرة في النفس».

---

(١) راجع منطق المظفر ١/ ١١ ـ ١٢.

(٢) تفسير القرآن الكريم لشلتوت ٥٧١ ـ ٥٧٢.

وصاحب هذا الرأي ـ كما يبدو من عنونته لهذا البحث بقوله: «إن التصديق يزيد وينقص» ـ يريد بالتصديق الإيمان الذي فسره بدوره باليقين. وعليه، فمراده بالتصديق في عنوان البحث، اليقين.

والظاهر، أنه يريد باليقين ـ الذي فسَّر به التصديق ـ اليقين الذي لا يحتمل معه النقيض.

وهذا القسم من اليقين، هو ما يعبر عنه المناطقة باليقين بالمعنى الأخص، في قبال اليقين بالمعنى الأعم، الذي هو مطلق الاعتقاد الجازم.

وقد أخذ[١] في مفهوم اليقين بالمعنى الأخص ـ إضافة إلى الاعتقاد بمضمون القضية ـ اعتقاد آخر بأن ذلك المضمون غير ممكن النقض أو الانتقاض، وأن هذا الاعتقاد الآخر مما لا يمكن زواله بحال.

مثلًا، أنا أتيقن وجود الله سبحانه، فمضمون القضية المتيقنة هو وجود الله، وينضم إلى هذا اليقين يقيني باستحالة عدمه، وهذا اليقين الثاني، لا يقوى شيء على إزالته من نفسي أبداً.

وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه، يتبين أن الإيمان بمعنى التصديق الذي استظهرنا أنه اليقين بالمعنى الأخص ـ عند شلتوت ـ إما أن يوجد، وحينئذٍ لا يمكن زواله بحال، ولا تقوى أية شبهة على زلزلته، وإلا استكشفنا أنه لم يكن إيماناً من أول الأمر.

---

(١) المنطق للشيخ محمد رضا المظفر ٣/ ٥.

وتحصيل هذا اليقين من طريق إجمالي أو تفصيلي ـ كما ذكره المستدل ـ لا يوجب تنويعاً في نفس اليقين، وإن كان يوجب تنويعاً في سبب حصوله، وفرق بين نفس اليقبن وبين أسبابه الموصلة إليه.

والغريب، ما ذكره أخيراً، من أن إهمال العمل بالفكرة مما يسبب ضعف الفكرة في النفس ومحوها، مع فرضه العمل معلولاً للفكرة التي هي الإيمان عنده.

ووجه غرابته، أنه لم يلتزم أحد من القدماء أو المحدثين بأن المعلول يؤثر في علته حدوثاً أو بقاء، أو قوة أو ضعفاً، أو زيادة، أو نقصاناً.

هذا إضافة إلى أن الإيمان يقابل الكفر، فإذا التزم أحد بأن التصديق الذي هو الإيمان ـ على الفرض ـ أمر قابل للزيادة والنقصان بالمعنى المذكور، فلا بد وأن يلتزم في مقابله بأن الكفر، وهو عدم الإيمان والتصديق أمر يقبلهما، ولا أعتقد بالتزام أحد بقابلية العدم لهما أو لشيء منهما. إذ أن العدم مفهوم واحد كما قيل.

اختيار واستدلال

والذي يترجح في نظري، بالنسبة لمعنى زيادة الإيمان في هذه الآية الكريمة، أن الإيمان يتعدد بتعدد القضايا المطروحة أمام الإنسان، وكل قضية تستدعي إيماناً خاصاً بها.

فوجود الله، قضية تستدعي إيماناً، والوحدانية قضية تستدعي إيماناً، ينضم إلى الإيمان الحاصل من القضية الأولى، والنبوة قضية تستدعي إيماناً خاصاً بها أيضاً، ينضم إلى الإيمانين السابقين،

وهكذا. فيكون معنى زيادة الإيمان، ضم إيمان بقضيَّةٍ لاحقة، إلى إيمان حصل بقضية سابقة.

والذي يؤيد هذا ـ في رأيي ـ أن معنى الزيادة: «ضم الشيء إلى جنسه».

وعلى ضوء ما ذكرناه، يكون معنى قوله تعالى ـ والله العالم ـ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾، وإذا قُرِئت عليهم آيات الله، اعتقدوا بأنها من عند الله، وضموا هذا الاعتقاد، إلى ما كانوا قد حصلوا عليه من اعتقاد بالآيات التي سبق وقرأوها متدبرين، أو قرئت عليهم فوعوها.

ومما يؤيد ـ أيضاً ـ أن المراد بالزيادة المعنى الذي ذكرناه، قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾[1] إذ المعوية المدلولة لكلمة (مع) تعني انضمام إيمان جديد بمضمون قضية جديدة، إلى ما كانوا قد حصلوا عليه من إيمان بمضامين قضايا سابقة.

وبنفس التقريب المذكور في زيادة الإيمان، نتصور زيادة الكفر، إذ يكون معناها، ضم عدم الإذعان والاعتقاد بقضية لاحقة إلى عدم اذعان واعتقاد حصل بقضية سابقة، وهكذا إذ أن الكافرين كانوا كلما قرئت عليهم سورة أو آية، شككوا فيها، وكفروا بها، وضموا هذا التشكيك والكفر إلى تشكيكهم وكفرهم بسابقتها.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٤.

ولعل ما جاء في أواخر سورة التوبة صريح فيما تصورناه من معنى لزيادة الإيمان وكذا زيادة الكفر، وهو قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[1].

والرجس هو الكفر، وإنما سمي الكفر رجساً بلحاظ وجوب تجنبه كما يجب تجنب الأرجاس والأقذار.

فالآية الكريمة، جعلت زيادة رجس الكافرين بضم رجس ـ من جنسه ـ إلى ما في قلوبهم من رجس موجود فعلًا، وهو ما قلناه في معنى زيادة الكفر. وبمقتضى مقابلة زيادة إيمان المؤمنين في الآية لزيادة كفر الكافرين، تحقق زيادة إيمان المؤمنين بضم إيمان من جنسه إلى ما في قلوبهم من إيمان موجود فعلًا.

الخصلة الثالثة

التوكّل، مصدر وَكَلَ.

والتوكل، هو «إظهار العجز، والاعتماد على غيرك»[2].

ولا إشكال، في أن المؤمن، عندما تتلى عليه آيات الله، ويتبين من خلالها عظمته، وقدرته، وإحاطته، وتدبيره.

عندما يتلى عليه قوله تعالى:

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) مختار الصحاح للرازي.

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾[2].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3].

عندما تتلى على المؤمن هذه الآيات، ويستشعر معها ضعفه وجهله وفقره وعجزه، وبالتالي، اشتراك كل بني جلدته معه في ذلك، يدرك تمام الادراك، أن الله سبحانه هو وحده الذي ينبغي أن يتوجه إليه، ويعتمد عليه في كل شأن من شؤونه، دون غيره من مخلوقاته، التي لا يختلف مخلوق منها في ضعفه وعجزه وفقره عن مخلوق آخر.

وليس معنى التوكل، الاتكالية المحضة، التي تنتج التسيب والضياع، فإن هذا ليس من الإيمان في شيء.

ليس من الإيمان في شيء، أن يعدل الإنسان عن سنة الله في الخلق، من جعله لكل شيء سبباً، وربطه بين الأسباب ومسبباتها، فإن في هذا إبطالًا لسنّة من سنن الله، ولن تجد لسنّة الله تبديلًا.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٨.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٤.
(٣) سورة الروم، الآيتان: ٢٥ ـ ٢٦.

وليس معنى قولنا هذا، إنه لا يجوز للإنسان أن يلجأ إلى أخيه الإنسان، لإنجاز بعض شؤونه وأموره، فهذا شيء لا يمكن المحيص عنه، ولكن يجب أن يكون ذلك الالتجاء، بشعور أنه سبب من جملة الأسباب التي قيّضها الله تعالى له، فيرجع اللجوء إليه مع هذا الشعور، إلى اللجوء إليه سبحانه، لئلا يخرج في حقيقته عن خصلة التوكل.

الخصلة الرابعة

إقامة الصلاة

وليس المراد بإقامة الصلاة، أداءها كيفما اتفق، بل لا بد من أدائها متوفرة على الخضوع والخشوع، كما أمر بها النبي ﷺ والأئمة المعصومون عليهم السلام.

والخضوع، إنما يكون في الشكل والصورة، ويتحقق بالإتيان بأجزائها من قيام، وتكبير، وقراءة، وركوع، وسجود، وتشهد، وتسليم، بمنتهى الوقار والهدوء.

ومن هنا اشترط الفقهاء الطمأنينة في كل فعل من أفعال الصلاة، لا أن يؤتى بها نقراً كنقر الغراب.

والخشوع، إنما يكون في المضمون والمحتوى، وذلك بأن يتفكر المصلي في المعاني التي تمر عليه، أثناء القراءة الواجبة فيها، أو الأذكار كذلك، لا أن يدرج القراءة والأذكار، بنحوٍ لا تعدو كونها مجرد لقلقة لسان، لا يستفيد منها عقله، ولا تنتعش بها روحه. ومن

هنا وردت بعض الروايات القائلة بأن ليس للإنسان من صلاته إلا بمقدار ما أقبل عليه منها[١].

بل ينبغي أن تكون صلاة المؤمن، معراجاً له بكل معنى.

تكون رياضة لجسمه، وغذاء لعقله، وسمواً لروحه، وهي بهذا فقط، يمكن أن تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما ذكر سبحانه في مكان آخر من كتابه العزيز.

الخصلة الخامسة

الإنفاق مما رزقهم الله

والإنفاق هنا عام، يشمل الواجب كالزكاة والخمس وغيرهما من العبادات المالية. والمندوب، كالصدقة.

والإنفاق، يحقق في الواقع، هدفين ساميين:

أحدهما: فردي، يرجع إلى شخص المنفق، وهو تخليص نفسه من الشح والبخل اللذين يعتبران آفتين من الآفات، التي إذا ابتلي بها الإنسان، نغصت عليه حياته، وأهدرت كرامته، وجعلته هدفاً لاستهزاء الناس وسخريتهم.

وثانيهما: اجتماعي، وهو مواساة الفقراء، وسد خلة المحتاجين، والعمل بهذا الإنفاق على رفع شقائهم، وتعاستهم،

(١) يراجع في ذلك كتاب وسائل الشيعة للحر العاملي المجلد الثالث/ الباب ٨ و٩، ص٢٠ وما بعدها.

والتخفيف من ضغط الحياة بثقلها عليهم. فيأمن المجتمع الإنساني، من التمزق، والتناحر الطبقي، الذي يكون عادة، وليد تكدس الثروات في أيدي فئة قليلة منه، مع ارتكاس الفئة الأخرى، التي تمثل غالبيته، في بؤرة الحرمان.

وعندئذٍ يوجد المجتمع الصالح، المتماسك الذي تربط بين أفراده وشائج الإيثار والتعاطف، والحب.

والتعبير بـ(مما) في الآية الكريمة، يُشعر بأن هؤلاء المؤمنين إنما ينفقون بعض ما عندهم، ويحتفظون بالبعض الآخر، لينفقوه على شؤونهم واحتياجاتهم.

ونحن، لسنا مقيَّدين بحصر متعلق الإنفاق بالمال، بل يمكن تعميمه ليشمل كل ما يعود على الأمة أو الفرد، بالخير العميم، كالعلم وغيره.

هذه هي الخصال، التي يكون من اجتمعت فيه، هو المؤمن، الذي يستحق وصف الإيمان بحق، وعندها يكون أهلًا لاحتلال المكانة اللائقة عند الله. والمراتب الرفيعة، مراتب القرب من رحمته، ومغفرته، حيث يظلله الله بظله، يوم لا ظل إلا ظلّه.

ونتيجة كل ذلك، الجنة، وما جعل الله فيها من الخيرات والنعم.

وقد ورد في القرآن الكريم، ما يفيد، بأن المراد بالرزق الكريم: الجنة. كقوله سبحانه في سورة الحج:

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١﴾[1].

فالآية الكريمة، لما كانت في مقام بيان جزاء كل من الفريقين المتقابلين، المؤمنين والكافرين، وتصريحها بأن جزاء الكافرين النار، كان ـ بمقتضى المقابلة بين الجزاءين ـ جزاء المؤمنين الجنة. التي عبر عنها في الآية بالرزق الكريم.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥﴾.

لقد ذكرنا فيما سبق، أن الحكم برد الأنفال والغنائم إلى الله والرسول، وإن رضخ له المسلمون وخضعوا. إلا أن ذلك لا ينافي أن يكون بعضهم، قد وجد في نفسه وحرد، لأن هذا الحكم، لم يجر على طبق ما كان يشتهي ويرغب، من أن تكون هذه المكاسب المادية ملكاً له لتصوره أنه أحق بها.

وعليه، فيكون قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ معطوفاً على قوله سبحانه: ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ومرتبطاً به.

ويكون المعنى والله العالم، إن ما حكمنا به من رد الأنفال لله والرسول، لم يرض بعض المؤمنين ممن معك، بل كان ذلك البعض له كارهاً، ككراهيته لخروجك من المدينة ـ بيتك ـ لملاقاة المشركين ومحاربتهم. مع أن خروجك، إنما كان بأمرنا لك به.

والذي يبدو، أن تشبيه كراهة بعضهم الخروج لملاقاة

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٥٠ ـ ٥١.

المشركين، عندما أمرهم النبي ﷺ به، بكراهة بعضهم الحكم بانتزاع ملكية الغنائم منهم، من جهتين:

الأولى: إن الحكم في كلا الموردين، كان من قبل الله سبحانه. والله لا يحكم إلا بالحق.

الثانية: إن هذا الحق، لما كان مخالفاً لما يشتهي هذا البعض ويرغب، ومصادماً مع مصلحته المادية، كان مكروهاً من قبله.

ولا شك، في أن الإنسان، كما يكره أن يحرم مما يراه ثمرة مجهوده الشخصي، كما كان الحال بالنسبة للأنفال، كذلك يكره أن ينتزع من حياة الهدوء والاطمئنان التي يرفل بحللها ـ كما كان الحال بالنسبة للمسلمين في المدينة ـ ليلقى في أتون الحرب والقتال، إما طلباً للسلامة، وحباً للراحة، أو لعدم استعداد لحرب وقتال.

فوجه التشبيه ـ إذن ـ هذان الأمران. وليس وجه التشبيه هو الجدال إذ لمْ يرو أحد أبداً، أن أحداً من المسلمين جادل النبي ﷺ في شأن الغنائم بعد نزول الحكم المعروف فيها.

والكراهية، كيف نفساني، لا يمكن الحكم بثبوته، إلا إذا أبرزه صاحبه إلى الخارج بمُبْرزٍ ما.

وقد أخبر سبحانه بما في نفوس بعض المسلمين، من كراهية الخروج مع النبي ﷺ من المدينة، وإن لم تستتبع هذه الكراهية تخلفاً عن الركب. ولم يذكر المؤرخون والمفسرون، أن أحداً من المسلمين، قد أظهر كراهيته لهذا الخروج بشكل أو بآخر. اللهم إلا

ما روي[١]، من أن بعضهم قد ثقل عندما ندبهم النبي ﷺ للخروج إلى عير قريش التي فيها أموالهم، في حين خفَّ الباقون لفعل ما ندبوا إليه. والتثاقل: هو التباطؤ وإظهار ثقل ما أمروا به على نفوسهم. وربما كان مبعثه كراهيتهم للخروج، كما أخبر سبحانه.

نعم، إنما أبرز بعضهم هذه الكراهية، وأعلن عنها، بعد خروج النبي ﷺ بأصحابه من المدينة، ووصول الأنباء إليهم، عن خروج جيش قريش من مكة، لحماية عيرهم والدفاع عنها، عندما بلغهم خبر خروج المسلمين بقيادته ﷺ للتصدي لها، بحيث وصلت الجرأة عند ذلك البعض، إلى حد الجدال، واللجاج في الخصام مع النبي ﷺ عندما استشارهم في قتال العدو...

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

والجدل والجدال لغةً: شدة الخصومة. وقد ورد في القرآن في سورة البقرة:

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾[٢].

وقد فسر العلماء الجدال في الآية بأن يقول الإنسان: أي والله، أوْ لا والله[٣]. وهذا هو عين التعبير الذي جاء فيما رواه بعض[٤]

(١) تاريخ ابن الأثير ٢/١١٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.
(٣) يراجع مجمع البيان للطبرسي ١/ ٢٩٤ والميزان للطباطبائي ٢/٧٩.
(٤) رواه الحافظ في تفسيره.

المفسرين، عن أبي أيوب الأنصاري قال: «قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: إني أُخبرت عن عير أبي سفيان، أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير، لعل الله أن يغنمناها، فقلنا نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين، قال: ما ترون في قتال القوم، إنهم قد أخبروا بخروجكم؟ فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكنا أردنا العير. ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك» الخ.

وعلى هذا، فالمقصود بالحق الذي وقع الجدال فيه بين النبي ﷺ وبعض المسلمين، كما في الآية الكريمة، هو قتال المشركين.

استفادة من النص وتعليق

ويستفاد من النص التأريخي المتقدم، المروي عن أبي أيوب الأنصاري، أن من عارض في القتال من المسلمين، قد علّل معارضته تلك بأمرين:

الأول: أنهم لم يخرجوا إلا لطلب العير.

الثاني: أنهم لا طاقة لهم بقتال العدو.

وهذا المنطق المشوب برائحة الطين، والمغلّف بضعف الإنسان أمام حطام الدنيا أولًا، لا يصدر إلا عن نفوس، كان همها، أن تحصل على المكاسب السهلة اللينة، دون أن يكلفها ذلك بذلًا ولا عطاءً.

وهذا المنطق المتخاذل ثانياً، لا يصدر إلا عن قلوب، أحدثت

فيها الدعوة إلى قتال العدو، وجلًا، ارتعدت له فرائص أصحابها حتى بدوا ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

فما عليك، إذا أردت أن تتصور حال هؤلاء، في اللحظة التي أصبح فيها قرار القتال نافذاً، ولا محيص لهم عن الرضوخ له، إلا أن تتأمل في دقة التعبير في الآية الكريمة ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إنك إذا تأملت في دقة هذا التعبير، فسوف تنعكس في ذهنك صورة مشهد يتجسم أمامك حياً نابضاً بالحركة، مشهد رهط ينقلون أقدامهم ببطء شديد، وما كانوا بفاعلين لولا حثهم على السير من خلفهم، وهو معنى السَّوْق، ولكن نحو ماذا؟ نحو الموت الذي يتمثل أمام أعينهم، كلما دنوا خطوة من جيش المشركين.

ولكن الذي يُهوِّن من قيمة المنطق المتخاذل المقيت هذا، فيجعله كأن لم يكن، أنه ما كان صادراً إلا عن جماعة صغيرة من المسلمين، ضاعت معارضتهم وسط صيحات الاستبشار بلقاء العدو، وقتاله، وأصوات كهزيم الرعد، يتسابق أصحابها في إعلان استعدادهم لبذل نفوسهم رخيصة، في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض، وكبت الباطل المتمثل في مشركي قريش، والقضاء عليه إلى الأبد، ليكون الدين كله لله.

هذه الأصوات، وتلك الصيحات، كانت صادرة عن الغالبية العظمى من المسلمين. وهذه الغالبية، هي التي تعبر بحق، عن المستوى الرفيع، الذي وصلت إليه النفوس المؤمنة ـ بتربية الإسلام لها ـ من الشعور بعظمة الهدف، وسمو الغاية، وقداسة الفكرة.

بحيث تحتقر كل قيمة مادية، قد تقف في سبيل تحقيقهم لذلك الهدف، ووصولهم لهذه الغاية، وصونهم لفكرتهم المقدسة.

هذا الموقف المشرف، يحدثنا عنه ابن الأثير[١] فيقول: «فأقبل رسول الله ﷺ على أصحابه وقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها. ثم استشار أصحابه فقال أبو بكر فأحسن، ثم قال عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[٢] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد، يعني مدينة الحبشة، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فدعا لهم بخير، ثم قال رسول الله ﷺ أشيروا عليَّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار لأنهم كانوا عدد الناس. وخاف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة وليس عليهم أن يسير بهم. فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: قد آمنا بك وصدَّقناك، وأعطيناك عهودنا فامض يا رسول الله لما أمرت فوالذي بعثك بالحق، إن استعرضت بنا البحر فخضته لنخوضنه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً. إنا لصُبرٌ عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك. فسر بنا على بركة الله، فسار رسول الله ﷺ فقال: أبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين».

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ١٢٠.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾.

ولقد سار النبي ﷺ من وادي (دفران) متوجهاً نحو بدر، بعد أن نشطه وأدخل عليه السرور، ما لمسه من أصحابه، من استعداد للبذل والعطاء. وتحفز للقاء العدو، عندما استمزج آراءهم حول قتال المشركين.

سار ﷺ، بعد أن أطلق كلمته تلك «أبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين» وسار المسلمون معه. وكان رهط ـ نفس ذلك الرهط الذي كره الخروج ابتداءً من المدينة. ونفس ذلك الرهط، الذي جادله ولجَّ في الخصام في وادي دفران عندما انتدبوا لقتال، ونفس ذلك الرهط، الذي كره بعد هذا حكم الله في الأنفال ـ سار هذا الرهط أيضاً، وكلمة الرسول ﷺ بوعد الله له إحدى الطائفتين تجلجل في الآذان. ومع ذلك، يحب في قرارة نفسه، أن يحقق الله وعده، ولكن في غير ذات الشوكة.

والمراد بالطائفة غير ذات الشوكة، القافلة التي كانت فيها أموال قريش، تقابلها الطائفة ذات الشوكة، وهي جيش قريش، الذي خرج من مكة، للدفاع عن القافلة.

والشوكة لغة الحدة، استعيرت هنا من الشوك لحدته.

والوجه في ميل بعض المسلمين للقاء القافلة دون الجيش، هو أنه لم يكن ذلك ليتطلب منهم قتالاً، أو جهداً يذكر، إذ مجموع ما

كان معها ثلاثون أو أربعون رجلًا، بمن فيهم أبو سفيان وعمرو بن العاص.

في حين كان عدد جيش قريش، يناهز الألف رجل، وكانت خيلهم مائة فرس[١].

ولكن الله العالم بما تقتضيه الحكمة، وما تتطلّبه المرحلة الحاضرة، التي يمر بها دينه، أراد غير الذي أرادوا. وحقق وعده، بما لا يتناسب مع ما هووا، فكتب عليهم أن يلاقوا الطائفة ذات الشوكة لأنه ـ سبحانه ـ «يريد أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين».

أرادها معركة فاصلة وحاسمة. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وهذه الآية، متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية. فيكون المعنى ـ والله العالم ـ إنما وعدكم سبحانه، ما وعدكم به من ظفركم بإحدى الطائفتين، ثم جعلها ذات الشوكة، ليظهركم وما تتمثلونه من حق، على المشركين وما يمثلونه من باطل، ولو كان المجرمون يريدون غير ذلك.

ودابر كل شيء مؤخره، والتعبير هنا بقطع دابر الكافرين، كناية عن أنه يريد أن يستأصلهم، ويأتي عليهم. وبذلك يطمس معالمهم، وآثارهم الفكرية والاجتماعية الفاسدة.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١١٦/٢ ـ ١١٨.

وكلمات الله، التي بها يريد أن يظهر الحق، ويثبت آثاره هي: ما وعد به، من غلبة رسله، ونصرة من ينصره. وذلك في قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾(١).

* * *

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

بعد أن بيَّن الله سبحانه، الحالة النفسية التي كان عليها بعض المسلمين عندما انتدبوا لقتال عدو الله وعدوهم. وأن الإنسان قد

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ ـ ١٧٣.

يختار في أغلب المواقف لنفسه، معتمداً في اختياره على نظره المحدود، وحساباته الخاضعة لعالم الضرورات. وقد يكون فيما اختاره مفاسد، لا يدركها، إلا إذا تورَّط فيها.

وأن الله سبحانه، يختار للإنسان ما فيه خيره وسعادته، لأنه العالم بكل شيء، المحيط بكل شيء، المهيمن على كل شيء، ولا يدرك الإنسان ذلك الخير، وتلك المصلحة، إلا بعد أن تتضح له، ويلمسها لمس اليد. وعندئذٍ، يوازن بين ما اختاره لنفسه، وما اختاره له الله، فيرى البون الشاسع والعظيم بين الاختيارين.

بعد أن بيَّن الله سبحانه هذا كله بعبارة وجيزة، غنية مؤثرة. أخذ يذكرهم ببعض المواقف التي وقفوها، بحكم ما اختاره الله سبحانه لهم، من قتال المشركين، وبعدد النعم التي أفاضها عليهم نتيجة لهذا الاختيار، الذي لم يكن ليلاقي هوى في نفوس بعضهم، ولا رغبة.

وأول هذه المواقف، شعورهم بضعف إمكاناتهم، إزاء إمكانات عدوهم كماً وكيفاً. ذلك الشعور، الذي أدى بهم إلى أن يتوجهوا إليه سبحانه يستغيثونه.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

والاستغاثة، طلب الغوث والمعونة.

أو كما قيل: تستجيرون به. والاستجارة: طلب الخلاص. وقيل، تستنصرونه على عدوكم.

ولا بأس بالأخذ بأي واحد من هذه المعاني، لتأدّي المقصود بأي واحد منها. وقد روُي أن المستغيث كان هو النبي ﷺ. قال في مجمع البيان[١]:

«إن النبي ﷺ لما نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين، استقبل القبلة. وقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف ماداً يديه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية.

نعمة إمدادهم بالملائكة

ومهما يكن مصدر هذه الاستغاثة، فماذا كانت نتيجتها؟ كانت نتيجتها الاستجابة العملية السريعة، التي يتمثل فيها العطف الإلهي، والتأييد الرباني:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

والردف: التابع.

والمردف: المقدم الذي أردف غيره، أي جعله تابعاً له في الركوب. وفي معنى «مردفين» أقوال:[٢]

منها: مع كل ملك ملكٌ ردفاً له. وقد ذهب إليه ابن عباس. ومن هنا ذهب الجبائي إلى أن الملائكة كانوا ألفين[٣].

---

(١) للشيخ الطبرسي ٤/ ٥٢٥. كما رواه أحمد في مسنده عن عمر بن الخطاب.

(٢) التبيان للشيخ الطوسي ٥/ ٨٣.

(٣) نفس المصدر.

ومنها: وهو ما ذهب إليه السدي، وقتادة، أنهم متتابعون. أي أنهم كانوا ألفاً كل ملك منهم في أثر الآخر.

ومنها: أن يكون «مردفين» بمعنى رادفين، والرادف: المتأخر. وعليه يكون المعنى: أني ممدكم أيها المستغيثون، بألف من الملائكة جاءوا بعدكم.

الرأي المختار

ونحن، عند اختيارنا لمعنى من المعاني، في إرداف الله سبحانه الملائكة يوم بدر، لا بد وأن نلاحظ ما ورد في ذكر قصة الإمداد بالملائكة في ذلك اليوم، في مكان آخر من القرآن الكريم، وذلك حيث قال سبحانه في سورة آل عمران:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[١].

ففي هذه الآيات، تصريح بأن عدد الملائكة الذين أمد الله المسلمين بهم يوم بدر، خمسة آلاف ملك، وعليه، فكيف يمكن أن نوفقّ بينه وبين ما تصرح به الآية التي بين أيدينا ـ في سورة الأنفال ـ من أنهم كانوا ألفاً؟؟

والذي نراه، أنه لا تنافي بين الموردين أبداً. وذلك لأن موضوع

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٦.

كل منها يختلف عن الآخر. فالآية التي بين أيدينا تخبر بأن الملائكة كانوا ألفاً مردفين، فإذا قرأنا «مردِفين» بكسر الدال، كما ذهب إليه الجمهور[١]، وقد عرفنا سابقاً أن المردِف: المقدم الذي جعل غيره تابعاً له في الركوب، يكون المعنى: أن الألف من الملائكة، قد أردف كل ملك منهم ملكاً آخر، فيكون المجموع ألفي ملك. في حين أن التي في سورة آل عمران تخبر، بأن الملائكة إنما كانوا ثلاثة آلاف منزلين لا مردفين. وإذا كان موضوع الآية التي بين أيدينا الملائكة المردِفين، وموضوع الآيات التي في آل عمران الملائكة المنزلين، يرتفع ما قد يبدو من تنافٍ بين الموردين. فإذا ضممنا الألفي ملك موضوع حديث هذه الآية مع الثلاثة آلاف ملك المنزلين، موضوع حديث سورة آل عمران يكون المجموع خمسة آلاف ملك، وهو ما أجملت ذكره الآية في سورة آل عمران.

﴿هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

وأما إذا قرأنا «مردفين» بفتح الدال، كما ذهب إليه أهل المدينة ويعقوب[٢]، وعرفنا أن المردف هو المتبوع بغيره، فلا تنافي أيضاً. إذ يكون المعنى: أن الله سبحانه، قد أمدَّ المسلمين بألف من الملائكة، وهذا ما نظرت إليه الآية هنا، متبوعاً بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، ثم أتم العدد خمسة آلاف، وهو ما تنظر إليه الآية الواردة في سورة آل عمران.

---

(١) تفسير المنار ٩/ ٦٠٧.

(٢) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٥/ ٨٤.

تعقيب وتنبيه:

بعد هذا كله، نبَّه سبحانه المسلمين، على أن إمدادهم بهذا العدد الضخم من الملائكة، ليس لأنهم يصنعون النصر ولا أنتم. إذ النصر لا يكون بكثرة العدد، ولا قوة المنتصر، ولا ضعف المغلوب، فإن هذه الأمور، ما هي إلا أسباب ظاهرية للنصر، وأما حقيقة النصر، فمن عند الله العزيز، الذي لا يذل القادر الذي لا يغلب، والحكيم فيما يريد ويفعل ويعدْ.

وإنما جعله الله بشرى لهم، ليسرّوا به ويفرحوا بإنجاز الله سبحانه وعده لهم بالنصر. فتطمئن بذلك قلوبهم، وتسكن، وتستقر، بعد أن أخذ منهم الخوف كل مأخذ، بسبب قلتهم، وكثرة عدوّهم.

هذا إذا أرجعنا الضمير في لفظي (جعله) و(به) إلى نفس الإمداد. ويمكن إرجاع الضمير فيهما، إلى نفس إخبار النبي ﷺ المسلمين، بإمداد الله لهم بذلك وربما يؤيد هذا، كون البشرى لغة، الخبر المفرح.

نعمة النعاس

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة، إلى تصفح صورة أخرى من صور نعمه سبحانه على المسلمين يوم بدر.

تلك النعم، التي ترتبت على اختيار الله لهم، ما كانت لتترتب، لو كان ما اختاروه هم لأنفسهم.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

حكمة ورحمة

وقد كان لتقدير الله سبحانه لهذا النعاس، حكمة ورحمة، ولطف.

فقد كان المسلمون، يعانون، عندما نزلوا بدراً، من الجهد والتعب الشيء الكثير.

ولا عجب إذ إنهم قطعوا أغلب المسافة بين المدينة وبدر سيراً على أقدامهم، حيث لم يكن عندهم سوى سبعين بعيراً، فكانوا يتعاقبون عليها، البعير بين الرجلين والثلاثة، والأربعة. كما لم يكن فيهم غير فارس واحد[١].

هذا فضلًا عما كان يعانيه كثير منهم، من الخوف والقلق، للقاء المشركين مع ما هم عليه من ضعف، وما عليه عدوهم من شوكة وقوة.

ومع تلك الحال، كان من العسير أن يخوضوا غمار حرب غير متكافئة. فالأعصاب القلقة المتوفزة، المنهوكة، لا تُمكِّن صاحبها من التركيز، وتحمّل المشاق.

ولذا، بدوا أحوج ما يكونون، إلى ما يريح الأعصاب، ويبعث في تلك القلوب الواجفة السكينة. ويعيد لهذه الأجساد المنهوكة القوة والنشاط.

فكان أن غشاهم ربهم النعاس.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/١١٨.

أي جعله يحيط بهم ويلبسهم حتى يغطيهم، إذ الغشاوة تعني الغطاء. والنعاس، اسم مصدر لنعس. وهو فتور يصيب الحواس دون أن يغلب عليها. قال في المصباح المنير: «أول النوم النعاس، وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم. ثم الأسن وهو ثقل النعاس. ثم التَّرفيق وهو مخالطة النعاس للعين. ثم الكرى وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان. ثم العفق وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم. ثم الهجود» الخ[١].

وهنا تتجلى حكمة الله سبحانه، وعظيم رحمته، ورأفته بالمؤمنين. فالموقف لم يكن ليحتمل غطيط المسلمين في نوم عميق، يتركون للعدو معه فرصة لمُباغتتهم وإفنائهم، قبل أن يستعدوا لمواجهته، أو يستيقظون منه محطمي الأجسام، يعتريهم الكسل والخمول.

وهم مع ذلك، بحاجة ـ كما سبق ـ إلى ما يريح أجسامهم وأعصابهم. فاختار لهم الله سبحانه النعاس، فهو يتكفل بتوفير الراحة المنشودة، دون أن يفقدوا حواسهم فيفوتهم تحرك العدو!!.

هذا، مع أن الثابت أن النعاس لم يغش إلا طائفة من المسلمين آنذاك، كما تشير إليه الآية الكريمة في سورة آل عمران، وذلك في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[٢].

---

(١) باب نعس.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

وقد روي عن علي ﷺ وهو يصف المسلمين في تلك الحال: «ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح»[١].

ولما كان النعاس فتوراً في الحواس، عبّر عنه سبحانه بالأمَنة وهي الأمان، باعتبار عدم شعور الإنسان مع هذا الفتور، بالخوف.

هذا ما كان من أمر النعاس الذي غشي المسلمين يوم بدر، والحكمة فيه.

نعمة إنزال المطر

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

وأما بالنسبة لنعمة إنزال المطر على المسلمين يوم بدر، فهذه الآية تنص على أن الغرض منه كان مجموع أمرين:

الأول: التطهير، وما ترتب عليه من إذهاب رجز الشيطان واطمئنان القلوب.

الثاني: تثبيت الأقدام.

قصة التطهّر وما ترتب عليه

أما قصة التطهر وما ترتب عليه، فيلقي عليها الأضواء، ما روي عن ابن عباس[٢]، من أن المسلمين، باتوا ليلة بدر على غير ماء،

---

(١) ابن الأثير ١١٨/٢.

(٢) نفس المصدر.

حيث كان المشركون قد سبقوهم إليه. فأصبح بعضهم جُنباً بالاحتلام، والبعض الآخر مُحْدِثاً، وأصابهم الظمأ، فصلى كل منهم بجنابته. فوسوس إليهم الشيطان مشنعاً عليهم صلاتهم عن غير طهارة، مع الجنابة والحدث. فداخلهم من وسوسته من الحزن والتشكيك. فأنزل الله سبحانه عليهم الغيث، فاغتسلوا وتطهروا. وبذلك أغلق الباب الذي حاول إبليس أن يدخل منه إلى قلوب المؤمنين، فاطمأنت وهدأت.

وبذلك تحقق الغرض الأول من غرضَي إنزال المطر يوم بدر ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

والرجز لغةٌ في الرجس، أبدلت السين زاياً، كما قيل للأسد أزد. وهو ما ذهب إليه الفراء[1]. والرجز القذر. والمراد برجز الشيطان هنا وسوسته التي ذكرناها للمؤمنين بشأن صلاتهم عن جنابة أو حدث.

والربط في الأصل: الشد.

والربط على قلوب المؤمنين هنا، كناية عن تقويتها، وتصبيرها، ومنه قوله تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[2].

(١) صحاح اللغة للرازي/ باب السين.
(٢) سورة القصص، الآية: ١٠.

قصة تثبيت أقدام المسلمين والحكمة منها

وأما الغرض الثاني من إنزال المطر يوم بدر، فهو تثبيت أقدام المسلمين.

فقد روي: أن المسلمين عندما نزلوا بالعدوة الدنيا من وادي بدر، كانت تلك العدوة، عبارة عن أرض رملية لينة، لا تستقر على سطحها قدم. وقد كان هذا كفيلاً بزعزعة قوة المسلمين، وإرباكهم أثناء القتال. خاصة وأنهم سوف يقاتلون راجلين، إذ لم يكن بينهم سوى فارس واحد، هو المقداد بن عمرو الكندي. فكان أن بعث الله سبحانه السماء من فوقهم مما ساعد على تلبيد الرمال، وتثبيتها تحت أقدامهم، فثبتت بدورها، وتحويل الأرض الثابتة في العدوة القصوى التي نزل بها المشركون، أرضاً موحلة لا تساعد على ثبات. قال ابن الأثير:(١)

«ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي، وبعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشاً منه ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه».

الخلاف حول اشتراك الملائكة في القتال

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/ ١٢١ ـ ١٢٢.

تنص هذه الآية، على الاشتراك الفعلي للملائكة في معركة بدر.

وقد اختلف المفسرون، في ماهية هذا الاشتراك. هل هو اشتراك في قتل وقتال؟ أو أنه اشتراك اقتصر على إثبات وجود، لما فيه من تكثير عدد المسلمين في أعين المشركين، ورفع الروح المعنوية عندهم، وتقويتها.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى الأول[١]. وفسر أمر الله الملائكة بتثبيت الذين آمنوا، على أنه أمر بالقتال معهم في ذلك اليوم.

روى ابن الأثير فقال[٢]: «قال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه، فعرفت أنه قتله غيري. وقال سهل بن حنيف: كان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف».

اختيار واستدلال ونقاش

ونحن، لا نميل إلى هذا الرأي، القائل، باشتراك الملائكة في القتال الفعلي إلى جانب المسلمين يوم بدر. وذلك لأمور:

الأول: إن ما رواه ابن الأثير عن أبي داود المازني أو سهل بن حنيف، وكذا ما رواه غيره بهذا الصدد، لا يمكن أخذه أخذ المسلمات، ولذا لم يعبأ به شيوخ المفسرين.

الثاني: إن اشتراك الملائكة مع المسلمين في القتال الفعلي، وقتل المشركين، ينافي سنة الله سبحانه في نشر هذا الدين. وأنه أراد

(١) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٥/ ٨٧.
(٢) الكامل في التاريخ ٢/ ١٢٩.

له سبحانه أن ينتشر لا بالخوارق والمعجزات وإنما بالأسباب العادية. وإلا كان في مقدوره تعالى، أن يخلق الناس مؤمنين من دون حاجة إلى قتل وقتال. أو كان باستطاعة الملائكة أن تتولى قتال المشركين، من دون أن يكلف سبحانه المسلمين عناء ذلك.

الثالث: إن العدد الذي قتل من المشركين، وهو سبعون رجلًا، لا يتناسب مع عدد الملائكة الذين أنزلوا مدداً للمسلمين، والذين بلغوا خمسة آلاف. بل كان يكفي ملك واحد للإجهاز على مجموع السبعين، بل على المشركين كافة.

الرابع: إن المتصفح لكتب التاريخ والسيرة، يرى أنها تذكر أسماء قتلى بدر من المشركين كما تذكر قاتل كل منهم من المسلمين. وقد روي[1] أن علياً عليه السلام قتل وحده من السبعين خمسة وثلاثين مشركاً، هذا غير من أسره بنفسه، وغير من ساعد الآخرين على قتله.

ومع معرفة قاتلي المشركين بأسمائهم، كيف ننسب قتلهم إلى الملائكة مع أنه لم يسم واحد فقط أنه قتل بغير يد إنسان من المسلمين. اللهم إلا ما روي عن الربيع بن أنس أنه قال: «كان الناس يوم بدر، يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا. بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان، مثل سمة النار قد أحرق به».

وهو مما لا يمكن الاطمئنان إليه. إذ لم يرو عن غير الربيع هذا ولو كان لبان، ولتواتر نقله، حيث إنه من الأمور الهامة، التي تتوافر الدواعي على نقلها بالتواتر.

(١) راجع الإرشاد للشيخ المفيد.

وبناءً على صحة ما اخترناه يكون قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ خطاباً للمؤمنين، وتوجيهاً لهم، نحو الطريقة المثلى، التي تتناسب مع قتال الراجل المسلم، الفارس الكافر.

إذ هل أمام الراجل، إلا أن يضرب ما يقع تحت مرمى سيفه، وهو البنان: أي مجموع أطراف أصابع الأيدي والأَرجل؟

والمقصود من فوق الأعناق أحد أمرين:

الأول: الرؤوس.

الثاني: أن تكون الأعناق نفسها هي موضع الضرب المأمور به.

كل تلك النعم، التي أنعم الله بها عليكم أيها المؤمنون، من استجابته لكم عندما استغثتموه، بإمدادكم بالملائكة. وجعله النعاس لكم أماناً. وإنزاله المطر عليكم طهوراً مع ما ترتب عليه، من إذهاب رجز الشيطان عنكم، وتطمين قلوبكم. كل هذه النعم ترتبت على ما اختاره سبحانه لكم، لا على ما اخترتموه لأنفسكم.

وكل ضروب العذاب التي أنزلها بأعدائكم، من إلقائه الرعب في قلوبهم، وتسليطكم عليهم، تطيحون منهم الرؤوس، وتبينون من أكفهم الأصابع، وتذلون بأسركم لصناديدهم كبرياءهم، وغطرستهم.

كل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وجانبوهما. وبذلك جانبوا الحق الذي أمروا باتباعه. وانفصلوا عن الإنسانية العابدة، التي أراد الله لها أن تكون هي المهيمنة، والمسيطرة، ليكون الدين كله لله.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ باتخاذه غير سبيل المؤمنين، فإن الله

شديد العقاب. في الدنيا بما لاقى المشركون على أيدي المسلمين، وهو ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ مجرد ذوق، تدركون معه مرارته وقسوته. وسوف تطعمون ما هو أشد وأدهى يوم القيامة بكفركم ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

مع حكم من أحكام الجهاد

بعد كل هذه النعم، التي أنعم الله بها على المؤمنين، والتي كان لها أثرها، في الشد من عزيمتهم، واذهاب خوفهم، وتطمين قلوبهم، وتثبيت أقدامهم. لم يبق لهم من عذر يعتذرون به، عن مجابهة أعدائهم، على الحالة التي صاروا إليها من الرعب الملقى في قلوبهم، والبلبلة التي حدثت في صفوفهم، من جراء ذلك.

بعد كل هذا، ومع حتمية المعركة وكونها وشيكة الوقوع، يتوجه الله سبحانه إليهم، بالأمر بالثبات في وجه العدو، وبألا يولّوه الأدبار.

والزحف: مصدر زحف. وجمعه زُحوف.

ويراد به «الدنو قليلًا قليلًا، والتزاحف: التداني. وأزْحفتُ القوم إذا دنوت لقتالهم»[١].

والأدبار: جمع دبر، وهو الظهر[٢].

(١) تفسير التبيان للطوسي ٥/ ٩١.
(٢) مختار الصحاح للرازي باب دبر.

«والتولية: جعل الشيء يلي غيره» وولاه دبره، إذا جعله يليه[١].

والمتحرف: هو المائل عن الجهة المقابلة للعدو، والتي يفيدها لفظ اللقاء، إلى جهة أخرى.

والمتحيز: التارك مكانه ومركزه إلى آخر.

والفئة: جمعها فئون، وفئات، وهي الطائفة.

وباء يبوء بوءاً: بمعنى رجع.

وعلى ضوء فهمنا لأهم مفردات الآيتين، يكون معناهما هو: أيها المؤمنون، إذا واجهتم الذين كفروا بالله ورسوله، وجحدوا نعمه ظاهرها وباطنها، وقد زحفوا عليكم معتدين محاربين فلا تفروّا منهم منهزمين، تاركين لهم ظهوركم. بل يجب عليكم الثبات في وجههم، مقبلين مقاتلين. ومن يولهم يوم القتال ظهره، إلا أن يكون مائلاً عن جهة المقابلة لهم، إلى جهة أخرى يرى أن القتال فيها، أجدى للمسلمين وأنكى بالعدو أو تاركاً مكانه ومركزه الذي يقاتل منه، إلى مركز آخر من مراكز المعركة، رأى أن ضغط المشركين على الطائفة التي تتمركز فيه قد اشتد، ولذا فهي بحاجة إليه ليقاتل معها. أو كان ذلك المركز في حد ذاته، أوسع من مركزه الحالي، أو كان فيه الماء الذي يحتاجه لرفع عطشه، أو غير ذلك مما تقتضيه ضرورات الحرب.

من يولّهم يوم القتال ظهره، إلا لأحد هذين الأمرين، فقد رجع

---

(١) تفسير مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٢٩.

يصحبه غضب من الله وسخط، ومكانه الذي سوف يحل فيه في الآخرة جهنم وبئس العاقبة والمصير.

وبهذا تكون الآيتان قد تضمنتا حكماً عظيماً من أحكام الجهاد في الإسلام هو وجوب الثبات في وجه العدو، وحرمة الفرار من الزحف.

الخلاف حول عموم هذا الحكم ورأينا فيه

وقد ذهب[١] الحسن، والضحّاك، وقتادة، إلى أن هذا الحكم وهو حرمة الفرار من الزحف، يختص بمعركة بدر لا يتعداها.

ونحن، لا نوافق على ما ذهبوا إليه، بل نرى أن حرمة الفرار من الزحف، حكم عام لكل معركة أو حرب يخوض المسلمون غمارها ضد الكافرين وذلك لأمور:

الأول: أن سياق الآيات التي سبقت هاتين الآيتين ولحقتهما، بحكم تأريخها للوقائع والأحداث التي حصلت في معركة بدر، ووصفها لها، يشير إلى أنها نزلت بعد المعركة، ومقتضى وحدة السياق، هو كون الآيتين المتضمنتين لحكم الفرار قد نزلتا بعدها كذلك، فكيف يكون خاصاً بمعركة قد انتهت وانقضت؟

الثاني: على فرض نزول الآيتين يوم بدر، أثناء المعركة أو قبلها، فمن المعلوم أن المورد لا يخصص الوارد، بل يبقى الحكم الوارد على عمومه من حيث الدلالة.

(١) تفسير التبيان للطوسي ٥/ ٩٢.

الثالث: أن القول بالعموم هو ما دلت عليه النصوص المتضافرة من السُّنة الشريفة[١].

والفرار من الزحف، من الكبائر التي توعّد الله سبحانه عليها النار، ولا خلاف بين الفقهاء في ذلك[٢].

ولكن الفقهاء قيدوا إطلاق الحكم بوجوب الثبات أمام العدو، وحرمة الفرار بما إذا كان العدو، ضعف المسلمين، أو أقل. فلو كان أكثر من الضعف، جاز الفرار حينئذٍ[٣].

* * *

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

بعد أن أمر الله سبحانه المسلمين بالثبات أمام العدو، لما ينتج عنه من هزيمة المشركين، وكسر شوكتهم، وقطع دابرهم، بالأسر، أو القتل، ذكر تعالى المسلمين، بأن كل ما حلَّ بالكفار، من صنوف العذاب، إنما هو بفعل الله سبحانه ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وما أنتم إلا أسباب مباشرة لهذا القتل، بعد أن هيأ سبحانه لكم كل وسائل النصر والغلبة، وكتب على أعدائكم الهزيمة بالرعب الذي ألقاه في قلوبهم.

---

(١) راجع تفسير التبيان للطوسي ٥/ ٩٢ ووسائل الشيعة للحر العاملي/ الجهاد باب ٢٧ و٢٨.

(٢) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي ـ كتاب الجهاد ـ باب/ ٢٧ و٢٨ ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ وجواهر الكلام لمحمد حسن النجفي مجلد ٢١/ ٥٦ والاقناع للمقدسي ٢/ ٨.

(٣) جواهر الكلام للنجفي ٢١/ ٥٦ والاقناع للمقدسي ٢/ ٧ ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٦٧.

ثم ينوجه سبحانه، إلى نبيه ﷺ بالخطاب ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ وذلك إشارة إلى ما كان النبي قد فعله بُعيد ابتداء القتال يوم بدر حيث «أخذ حفنة من التراب، ورمى بها قريشاً، وقال: شاهت الوجوه. وقال لأصحابه: شدوا عليهم، فكانت الهزيمة»[1].

فالله سبحانه، ينفي أن تكون هزيمة المشركين، التي استتبعت هذا الرمي منه ﷺ لحفنة التراب في وجوههم، معلولة لنفس رميه ﷺ. حيث لم تصل ذراته إلى كل الوجوه، لقلته، ولعدم قدرة الرامي لذلك على حد سواء.

وبالجملة، إسناد القتل إلى المسلمين أنفسهم، كإسناد الرمي إلى النبي ﷺ إنما يصح في حدود كونهم أسباباً ظاهرية، وفاعلين مباشرين لكل من القتل والرمي، ولكن الذي أوجد القتل فيهم، وأفاضه عليهم، وأوجد الرمي فيه ﷺ، إنما هو الله سبحانه، الفاعل ما منه الوجود.

ثم عقب تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والابتلاء: الاختبار. والضمير في «منه» يرجع إليه سبحانه. وعليه يكون المعنى: إن الغرض من كل ما فعله الله سبحانه على أيديكم، من قتل الكافرين، ورميهم ذلك الرمي المعهود، وما سبقه من اختياره قتالكم المشركين مع كرهكم له، إن هو إلا اختبار للمؤمنين أيشكرونه على قتله ورميه لعدوهم، اللذين استوجبا هزيمته، والإنعام بالنصر عليهم أم يكفرون؟.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ١٢٦ والطبري ٢/ ٢٨١.

ولما كان البلاء بالخير والشر، أشار سبحانه هنا، إلى أن البلاء هنا إنما كان «بلاءً حسناً».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

يسمع استغاثة المستغيث فيغيثه، ويعلم ما ينطوي عليه قلبه بعد ذلك من الشكران أو الكفران.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قال في مجمع البيان[١]: «ذلكم موضعه رفع. وكذلك: إنَّ الله. في موضع رفع. والتقدير: الأمر ذلكم، والأمر أن الله».

و«ذلكم» إشارة إلى بلائه للمؤمنين البلاء الحسن، في قتله سبحانه المشركين على يدهم ورميه لهم على يد نبيه ﷺ، وإلى أن الله مضعف كيد الكافرين.

والكيد: المكر. وإضعاف الكيد، إنما يكون: بإلقاء الرعب في القلوب، وتفريق الكلمة، والاطلاع على عورات العدو، وإبطال حيله[٢].

* * *

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

والاستفتاح: طلب الفتح والنصر.

---

(١) للشيخ الطبرسي ٤/ ٥٣١.

(٢) راجع تفسير التبيان للطوسي ٥/ ٩٥ ومجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٣١.

راي وتفنيد

وقد ذهب البعض[١]، إلى أن الخطاب في هذه الآية للمؤمنين، وهذا حمل للآية على خلاف ظاهرها. بل هنالك قرائن تمنع من حملها عليه. كقوله تعالى:

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

فإن الخطاب هنا إنما كان للمشركين. وبمقتضى وحدة السياق لا بد من أن يكون الخطاب السابق عليه لهم أيضاً.

ويوضح لنا أمر الاستفتاح هذا بإيجاز ما رُوي[٢] من أن أبا جهل، كان يقول عندما ابتدأت المعركة: «اللهم اقطعنا للرحم، وآتانا بما لم نعرف، فأحِنْهُ[٣] الغداة. فكان هو المستفتح على نفسه».

كما روي[٤] أن المشركين قبل أن يخرجوا للقاء المسلمين، تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعز الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين.

وقد يكون الاستفتاح بمعنى الاحتكام إلى الله. من فتح يفتح فتحاً القاضي إذا حكم ومن هنا سُمِّيَ القاضي فتّاحاً.

وعلى ضوء ما ذكرنا، يكون معنى الآية: أيها المشركون إن تطلبوا الفتح والنصر مني على المسلمين، فقد جاء النصر، ولكن لا لكم، بل لمن طلبتم خذلانهم وهزيمتهم.

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ١٥/ ١٤٢.

(٢) انظر الطبري ٢، ص٢٨١ والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ١٢٥.

(٣) كناية عن الدعاء عليه بالموت لأنه يقال لمن يموت حان حينه بفتح فسكون.

(٤) الكامل لابن الأثير ٢/ ١٢٥ وتفسير الرازي ١٦/ ١٤١ وتفسير الطبرسي ٤/ ٥٣١.

أو، إن تحتكموا إلي، فقد جاءكم الحكم، وهو النصر للمؤمنين والخذلان لكم. فخير لكم في الدنيا، أن ترتدعوا عما أنتم عليه، من عداوة المؤمنين، وقتال لهم، ما دامت الهزيمة نصيبكم. وخير لكم في الآخرة، أن تتحولوا عن شرككم وكفركم بهذا الدين وتكذيبكم لنبيه. فإن لم تفعلوا، وعدتم إلى ما كنتم عليه، من كفر بهذا الدين، ومكر بالمؤمنين، عدنا إلى قتلكم وإرعابكم، ورميكم، وهزيمتكم، ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً وإن كثرت، إذ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، بما تحمله من مبادىء وقيم، تستميت في الدفاع عنها. وعدنا إلى نصر المؤمنين، بتأييدهم، وتثبيت أقدامهم وقلوبهم، وإظهارهم عليكم وذلك لأن الله مع المؤمنين.

وقد تكون جملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

بعد هذا العرض الطويل، للنعم التي أنعم بها سبحانه على المسلمين، والتي مهَّدت طريق النصر لهم، وهزيمة أعدائهم، تعود الآيات حاملة في طياتها، عدة نداءات إلهية موجهة إلى جماعة المؤمنين.

النداء الأول: الأمر بإطاعة الله ورسوله

وقد كانت هذه الآية، طليعة هذه النداءات، متضمنة الأمر بإطاعة الله ورسوله.

وإطاعة الله، إنما تكون بالإيمان بوحدانيته، وحاكميته، والعمل بما أنزل من القرآن. وإطاعة الرسول إنما تكون بتصديقه فيما بلّغ عن الله، من عقيدة وشريعة. والرسول، باعتباره قائد الأمة وإمامها، لا يجوز الخروج على ما خططه لها في مسارها، لئلا تحدث الفوضى في صفوفها، فتتصدع وتنهار.

النهي عن التولّي عن الرسول ﷺ

ومن هنا، أتى النهي عن التولّي عنه ﷺ، الذي هو عبارة عن العدول عن خطه، والإعراض عن سبيله، والخروج عليه.

أتى هذا النهي شديداً ماضياً: «ولا تولوا عنه».

وأصل «تولوا» «تتولوا».

ومرجع الضمير في «عنه» هو الرسول ﷺ.

ويمكن أن يكون مرجعه نفس الأمر بإطاعة الله ورسوله المتقدم.

قلت: أتى هذا النهي شديداً ماضياً. إذ ما هو عذركم في هذا التولي والحال أنكم تسمعون آيات الله، التي تذكّركم بالنعم العظيمة التي أنعم بها عليكم، ابتداءً بما اختاره لكم من قتال المشركين، وانتهاءً بالنصر المؤزّر يوم بدر. وتسمعون أوامر نبيه ونواهيه. ومواعظه وإرشاداته؟

ما هو عذركم لو توليتم «وأنتم تسمعون» كل ذلك؟

اللهم، إلا أن تكونوا، لضعف إدراككم، وفساد عقولكم، وانحطاطكم في سُلَّم الإنسانية ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وهذا مما يربأ المؤمن بنفسه عن أن يكونه. بل هذا مما لا يليق بإنسان يشعر بكرامة.

* * *

﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾.

والدواب: جمع دابة. وهي لغة كل ما يدب على الأرض ومنه الإنسان. والصم: جمع أصم، وهو من فقد حاسة السمع.

والبكم: جمع أبكم، وهو من فقد حاسة النطق.

وقد ميَّز الله سبحانه، هذا الإنسان على بقية أنواع الدواب، بالعقل، وأمره أن يتدبَّر به، كل ما يسمع، وكل ما يرى.

وقد أشارت الآية الكريمة هذه، إلى أنه، إذا لم يتدبر، ولم يتعقل، فمعنى ذلك، أنه عطل هذا العقل، وبالتالي، فقد ما يميزه عن غيره من أنواع الحيوان التي لا تعقل. بل يكون أحط منها، لتفريطه بما قيض له، في حين أن باقي أنواع الحيوان، يستغل ما قيض له من حواس بشكل غريزي.

ولعله إلى نفس هذا المعنى، يشير قوله تعالى في سورة أخرى، بصدد وصف الكافرين:

﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

وهؤلاء لمّا شلوا عقولهم عن التدبر والتفكّر، وعميت قلوبهم عما يكتنفهم ويحيط بهم. علم الله أن لا خير يرجى للإنسانية منهم ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ ولكن ما فائدة إسماعهم، مع تعطيلهم لعقولهم. وهل يعدو ذلك، أن يحرك الصوت أوتار السمع عندهم، ثم يتلاشى على طبلات آذانهم، فَيَتَولّونَ كأن لم يكن صوت ولا كلام ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

سبب نزول هذه الآية

وقد قيل فيمن نزلت فيه هذه الآية أقوال:

أحدها: أنها نزلت في بني عبد الدار[١]، حيث لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير، وسويد بن حرملة، وكانوا يقولون: «نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد، وقد قتلوا جميعاً بأُحُد، وكانوا أصحاب اللواء».

الثاني: أنها نزلت في المنافقين[٢].

الثالث: أنها نزلت في مشركي قريش[٣] «لأنها في سياق الخبر عنهم».

الرابع: أنها نزلت[٤] «في قوم كانوا يقولون للنبي ﷺ أَحْيِ لنا قُصيّاً، فإنه كان شيخاً مباركاً، يشهد لك بالنبوة فنؤمن لك، فقال الله تعالى، ولو أحيا لهم قصيّاً وسمعوا كلامه، لتولّوا عنه وهم معرضون». وقد نُسب هذا القول إلى الجبائي.

---

(١) الميزان للطباطبائي ٩/ ٦١ وتفسير الطبرسي ٩/ ١٣٢ وقد رجّح ابن جرير الطبري القول الثالث.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٣٢.

وجهة نظر:

ومن الواضح أنه لا تنافي بين القول الأول والرابع لأن القوم الذين كانوا يقولون له ﷺ أخي لنا قصياً لا بد وأن يكونوا من بني قُصي بل قد يكونون هم بنو عبد الدار إذ إن عبد الدار هو ابن قصي المشهور. كما لا تنافي بين هذين القولين بعد أن جمعنا بينهما وبين القول الثالث، إذ إن بني قصي لم يدخلوا في الإسلام وإنما بقوا على شركهم.

* * *

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

النداء الثاني: الأمر بالاستجابة لله وللرسول

هذا هو النداء الثاني لجماعة المؤمنين. وقد تضمن الأمر بإجابة الرسول ﷺ إلى كل ما يدعوهم إليه. وما يدعوهم إليه هو الإيمان بالله، وتصديق رسوله، والعمل بما جاء به من عند ربه من كتاب، ونظام، وأحكام.

إذ إن دعوته إلى كل هذه الأمور، لا تعدو أن تكون دعوة إلى ما فيه حياة لهم، وسعادة في الدنيا والآخرة.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

الإسلام هو الحياة

ولكن، كيف يكون هذا؟ كيف تكون بالعمل بهذه الأمور التي ذكرت حياتهم وسعادتهم؟

لقد خلق الله سبحانه هذا الإنسان، من قبضة من تراب، ونفخة من روح. فالإنسان، ليس جسداً كله، وليس روحاً كله، وإنما هو مزيج منهما وخليط.

فقبضة التراب، تتمثل فيها كل نزوات الجسد ورغباته، وغرائزه، وغلظته، وتمرّغه في عالم الضرورات، ونفخة الروح تتمثل فيها كل نوازع الإنسان العلوية، التي تشدّه أبداً إلى أعلى، إلى مراتب الكمال الإنساني، التي ببلوغها يحقق الإنسان فيه معنى الخلافة لله على الأرض.

وعلى أساس من هذين الأمرين، يجب أن يعالج الإنسان.

وعلى أساس مراعاة كلا الجانبين فيه، يجب أن يُنظَّم.

وإن أي دين، أو أي نظام يدَّعي استهداف سعادة الإنسان ورقيّه في تشريعاته وقوانينه، ثم لا يضع في حسابه ازدواجية الطبيعة الإنسانية، بل يحاول أن ينظّم الإنسان، من خلال النظرة إليه، على أنه جسد فقط، أو روح فقط، فهو كاذب في دعواه. لأنه يكون بعمله هذا، قد أغفل نصف الإنسان، ومزق النصف الآخر، بحلوله المبتورة المرتجلة.

والإسلام، من بين كل الأديان والنظم، سواء كانت أرضية عاشها أسلافنا في الماضي، أو نعايشها اليوم، أو تدعي ارتباطها بالسماء، الإسلام هو الوحيد الذي فهم الإنسان على أساس ازدواجيته، وعالجه على هذا الأساس. يقول رسول الله ﷺ:

«إن لجسدك عليك حقاً، وإن لروحك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً».

وبذلك، كان في الإسلام إحياءٌ لهذا الإنسان، لأن بالنظر إليه من إحدى زاويتيه فقط، تمزيقاً له، يكون معه القضاء عليه.

أضف إلى ذلك، أن أي جانب وضعت يدك عليه من جوانب الإسلام، تجد فيه ما يوفّر الحياة السعيدة الكريمة لهذا المخلوق.

فالإسلام في جانبه العقيدي، الذي دعا الإنسان إلى اعتناقه، والذي يتمثل في الربانية الواحدة، والنبوة، والمعاد، يوفر الحياة السعيدة للإنسان.

فإيمان الإنسان بالله الواحد، سوف يوفر له الحياة المستقرة، بما يجنبه من الحيرة والارتباك، اللذين يعتريانه حول مصدر هذا الكون، ومبدئه. فينغصان عليه حياته، ويحيلانه إلى قلق دائم، وشك مقيم.

وإذا آمن بالله كخالق له، ومنعم عليه، كان بحاجة إلى من يدلُّه على ما هو مطلوب منه نحوه، من واجبات، وإلا فسوف يقع في حيرة من أمره، فيما يجب عليه أن يفعله، وفيما يحرم. ومن هنا، كان إيمانه بالرسول، رافعاً لهذه الحيرة المميتة.

وإيمانه بيوم يجمع فيه الناس، ليثاب المحسن بالجنة، ويعاقب المسيءُ بالنار، سوف يحدث في نفسه وازعاً عن التعدي على حريات الآخرين، وحرماتهم، وحقوقهم، وبهذا يعيش بنو الإنسان آمنين، من الظلم والظالمين.

كما أن الإسلام في جانبه التشريعي، الذي دعا الإنسان إلى الالتزام به، والذي يتمثل في العبادات والمعاملات بأقسامها الأربعة: السياسات، والأحكام، والعقود والايقاعات. يوفر أيضاً الحياة الحرة السعيدة للإنسان.

فالعبادات تنظم علاقته مع ربه، وتشعره بالثقة بنفسه، لارتباطه به، فتهدأ وتطمئن.

والمعاملات، تنظم العلاقات العامة والخاصة لبني الإنسان فيما بينهم بشكل يضمن بقاء النوع الإنساني واستمراره.

هذا، موجزاً، هو الإسلام، وهو ما يدعو إليه الرسول ﷺ. ومن الواضح أنها دعوة كريمة للإنسان الذي كرمه الله وفضّله.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[1].

وحريٌ بهذه الدعوة، أن تتلقى القبول. وأن تتلقى الاستجابة الظاهرية على اللسان، والواقعية في أعماق النفوس. لا الرفض والصدود.

فالاستجابة الظاهرية، من دون استجابة تتفاعل في أعماق النفس خضوعاً وتسليماً، لا تجدي ولا تقبل.

ولا يظُنَّن أحد أنه يفلت من رقابة الله، فيظهر الإيمان ويبطن الكفر، وكيف يفلت من رقابته، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه. ويعلم ما يوسوس به صدره، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

فمن كان كذلك، فليتّق الله ربه، وليبادر إلى قرن الاستجابة الظاهرية، باستجابة واقعية يترجمها إلى عمل حقيقي، وفق ما دعي إليه، لينقذ نفسه من عذاب الله، يوم يحشر الخلق جميعاً ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

تُحْشَرُونَ﴾ ليحاسبهم على ما عملوا، وسوف يكون عقاب هذا الذي أظهر الاستجابة، وأبطن الرفض والصدود، شديداً، لأنه ورط نفسه في حياة حقيرة، تتسم بالنفاق والتذبذب، اللذين لا يرضاهما الله من إنسان، كما لا يرضاهما لنفسه إنسان، أراده الله خليفة له على الأرض.

* * *

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)﴾.

شطرا المسؤولية في الإسلام

إلى جانب المسؤولية الفردية التى تلقى على عاتق الفرد كفرد، في قبال الحرية الفردية التي هي حق من حقوقه، وضع الإسلام أسس مسؤولية اجتماعية.

وقوام هذه المسؤولية، العمل على منع أي خروج على مبادىء العقيدة، وأحكام الشريعة، قد يقوم به فرد أو جماعة، ووجوب الردع الفوري والحاسم ليسُدَّ بذلك باباً من أبواب التصدع، ويقضي على بادرة من بوادر الفساد اللذين قد يؤديان عند التغاضي عنهما، إلى انحلال البنية الاجتماعية، والشخصية الحضارية للأمة الإسلامية.

وهذا، ما يسمى بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ما يسمى بالاصطلاح الحديث، الرقابة الاجتماعية.

ولا يتفاوت أفراد الأمة أبداً، في مقام تحمل هذه المسؤولية، أو أداء هذا الواجب. إذ إنه من الواجبات الكفائية التي تتعلق بكل فرد،

بحيث لو أخلَّت الجماعة بامتثاله، لعوقب جميع أفرادها على هذا الإخلال. وعند القيام به من قبل واحد يسقط عن الباقي.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٢).

«من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٣).

عود إلى أجواء الآية

ومن هنا، جاءت الآية الكريمة، تحذر جماعة المؤمنين، من السكوت والتغاضي عن أولئك النفر من الظالمي أنفسهم وجماعتهم، التي يعيشون بين ظهرانيها، بخروجهم على أحكام الله، وانتهاكهم لحدوده وحرماته.

لأن هذا الخروج، وذلك الانتهاك من قبل مثل هذه الفئة المستهترة، التي تحب أن تشيع الفاحشة بين الأمة، سوف يؤديان إلى الفتنة، وهي الفوضى والارتباك، وبالتالي الانحلال والاضمحلال للكيان الحضاري والاجتماعي للجماعة ككل.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي المجلد ١١، باب ٣، من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص٤٠٣.

أو هي البلية، كما ذهب إليه الحسن[١].

أو الضلالة، كما اختاره ابن زيد[٢].

أو العذاب، كما عن الجبائي[٣].

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾.

درس وعبرة

وفي بني إسرائيل، أكبر درس وعبرة في هذا المجال حيث حلّت بهم اللعنة، فاضمحلت دولتهم، ومزقوا شر ممزق، من جراء تفشي المنكر فيهم، دون أن يقف منهم في وجه مرتكبيه من يستنكره أو يحاول تغييره.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[٤].

وفي مقام تفسير هذه الآية، وردت في السُّنة الشريفة أحاديث منها ما روي عن علي عليه السلام في حديث طويل: لما جُعل التفضُّل في بني إسرائيل جعل الرجل منهم يرى أخاه على الذنب فينهاه فلا ينتهي فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وجليسه وشريبه، حتى ضرب الله عزَّ وجلَّ قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن... الخ[٥].

---

(١) التبيان للشيخ الطوسي ٥/١١٣.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ ـ ٧٩.

(٥) راجع وسائل الشيعة للحر العاملي ١١/٤٠٨ وابن كثير ٢/٣٠٠.

وقد ورد في الحديث «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»[١].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

تعقيب وتوجيه

وقد عمل الاستعمار الكافر، بكل ما أوتي من قوة ومكر، على أن تتفشى المنكرات في الأمة الإسلامية، وتنحل بالتالي أخلاقياتها، فتتخلى عن دينها القويم، بما فيه من قيم ومثل، وتتلاشى شخصيتها وتضمحل، حتى يحكم قبضته عليها، ويؤكد سيطرته، وقد نجح في ذلك إلى حد بعيد.

فحري بكل فرد في الأمة اليوم، أن يقف في وجه كل من يرفع عقيرته ـ وما أكثر هؤلاء بيننا ـ داعياً إلى التحرر من قيود الدين، والخروج على شريعة الله ونظامه، تحت شعارات براقة خداعة، قد تجوز على كثير من السذج والبسطاء.

حري بكل فرد في الأمة المسلمة، أن يقف في وجه هؤلاء ليمزق الأقنعة عن وجوههم، وسوف لن يجد تحتها ـ على أحسن الاحتمالات ـ إلا منحرفاً عن جادة الحق والفضيلة، أو محترفاً العمالة والذيلية للاستعمار الكافر، الذي زرع إسرائيل في قلب الأمة الإسلامية، لتصفي حسابات الثأر معها. وتشبع حقدها الدفين على الإسلام والمسلمين.

* * *

(١) نفس المصدر.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾.

تنبيه وتذكير

في هذه الآية الكريمة، يذكر الله سبحانه جماعة المؤمنين، بما كانوا عليه، قبل أن يؤويهم، ويؤيدهم، وينصرهم، ويغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، من الخوف والوجل، بسبب القلة والضعف، ثم يلفت أنظارهم إلى ما صاروا إليه، من قوة ومنعة. وكثرة عُدَّة وعدد.

قلَّةُ المسلمين في مكة واستضعافهم

يذكِّرهم سبحانه، بما كانوا عليه في مكة، في بدء الدعوة الإسلامية. حيث لم يكونوا ليتجاوزوا بضع عشرات من عبيد وأحرار، وسط ذلك الحشد الكبير من مشركيها. لا يجرؤ الواحد منهم على أن يجهر بإسلامه. بل لا يجرؤ على أن يُيمم شطر دار ابن الأرقم، حيث كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن على النَّفْر من أصحابه، لئلا يُتَّهم بالجريمة العظمى، جريمة خروجه من دين الآباء والأجداد، وعيبه لآلهتهم، حتى ولو كان من سادة قريش ووجوهها. فيكون ذلك سبباً لتعرُّضه لأقسى أنواع التعذيب والمهانة.

يحَدثنا ابن هشام في السيرة، عما كان يجري للنَّفْر ممن أشرقت قلوبهم بنور الإيمان من قبل عتاة قريش آنذاك فيقول: «ثم إنهم ـ أي المشركين ـ عدَوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم بالضرب، والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر. من

استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، وكان أمية بن خلف، يخرج بلال ابن رباح إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأتي بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللّات والعزّى. فيقول وهو في ذلك البلاء: أحدٌ أحد»[١].

ويصوِّر عبد الله بن الحارث، الذل والهوان، اللذين لاقاهما كل من آمن بالله ورسوله في تلك الحقبة فيقول[٢]:

كل امرىء من عباد الله مضطهد ببطن مكة مقهورٍ ومفتون

إنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الذل والمخزاة والهونِ

فلا تقيموا على ذل الحياة وخزي في الممات وعيب غير مأمون

النصر الأول للإيمان بمكة

وقد أراد الله سبحانه، أن تكون ثمرة كل هذا العذاب، خلاف ما توقّعه الظالمون.

أراد لهذا العذاب، أن يثمر الصبر، والجلد عليه في ذات الله. وأن تكون ثمرة هذا الصبر وذلك الجلد، تجذير الإيمان، وتعميقه، والإصرار على إعلاء كلمة السماء، متمثلًا بالجهر بهذه الكلمة، في وجوه أولئك الطغاة.

وإيذاناً من الله القاهر، بإسفار الحق ودحض الباطل. وكان تحقيقاً لوعده رسله وأوليائه بالنصر والغلبة:

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١/٣٣٩ ـ ٣٤٠.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١/٣٥٤.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾[١].

الإيواء الأول للمؤمنين

والله سبحانه، بعد أن تحقق للبصيص الضئيل من الإيمان، أن يتحول إلى جذوة لن يقوى على إطفائها كل عتو العتاة وجبروت الجبابرة. ولكي لا يدع لذلك العتو وهذا الجبروت أن يفترسا أجساد المؤمنين، بعد أن استعصت عليهما أرواحهم وعقولهم، أذن لهم بالهجرة بدينهم إلى بلاد الحبشة، بلاد النجاشي. فكانت الهجرة الأولى، وكان الإيواء الأول من الله للمسلمين.

لقد أذن الله تعالى لهم بالهجرة على لسان رسوله ﷺ، حيث قال لهم ﷺ[٢]: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد. وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه». والحق، أن لطف الله بعباده المؤمنين، قد قيَّض لهم مأوى هو خير مأوى، وداراً أحسّوا فيها بالدَّعة بعد عناء. والاستقرار بعد بؤس وشقاء.

يحدثنا المهاجرون بدينهم إلى الله عن ذلك، وكان عددهم[٣] ثلاثة وثمانين رجلًا عدا النساء والأطفال فيقولون: «لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشي، أمِنّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه»[٤].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١/ ٣٤٤.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج١/ ٣٥٣.
(٤) نفس المصدر ص٣٥٨ وتاريخ الطبري، ج٢/ ٢٢١.

النصر الثاني للإيمان بالحبشة

ولكن، هيهات للحقد الأسود، في قلوب هي كالحجارة أو أشد قسوة، أن يخمد أو يستكين.

وهيهات للنفوس المجبولة برائحة الطين، أن تتحرر من عبودية الغرائز المشبوبة وقيود الحيوانية الهابطة.

وهيهات للأيدي الملّطخة بدماء المستضعفين، أن تعرف يوماً الطهر، والبراءة، والرَّحمة.

لقد كانت كل هذه الأمور، كفيلة بأن تدفع بأصحابها من مشركي مكة، وطغاتها، لأن يلاحقوا المؤمنين بالله، بالكيد والأذى والتآمر، حتى خارج الحدود! خاصة، وأنهم استفاقوا بعد فوات الأوان، ليكتشفوا أن هذه الهجرة، إنما كانت انطلاقة جبارة لكلمة الله، خارج حدود الجزيرة العربية. فهي إذن، ليست هُروباً من جحيم مكة إلى جحيم الغربة. وإنما هروب من جحيم جاهلية لقوم جفاة عتاة، إلى رحاب عدل ملك في الأرض، قيَّضته لهم عناية رب الأرض والسماء.

ولذا، فقد ائتمرت قريش أن تبعث فيهم «رجلين من قريش، جلدين، إلى النجاشي، فيردهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها، وأمنوا فيها. فبعثوا عبد الله ابن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا إليه هدية»[1].

ولكن، ماذا كانت النتيجة؟

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١/٣٥٦ وما بعدها.

ماذا كانت نتيجة هذه المؤامرة من قريش؟

وماذا أجدت رشوة قريش لبطارقة النجاشي، ومحاولتها رشوة النجاشي نفسه من أحسن ما يُستطرف من متاع مكة؟

هنا تتجلّى رحمة الله، ويتجلّى كرمه، ويتجلّى صدق وعده بنصر من ينصره، النصر الذي تغيض عنده كل مقاييس الأرض وتتلاشى.

كانت نتيجة كل ما مكروا، الخذلان والخسران. وشاء الله لكلمته أن تعلو مجلجلةً في آيات قليلة تلاها عليه جعفر بن أبي طالب، زعيم المهاجرين، من سورة «كهيعص» حيث (بكى النجاشي حتى اخضلّت لحيته. وبكت أساقفته حتى اخضلّت مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال لهما النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة. انطلقا، فلا والله لا اسْلمهم إليكما ولا يُكادون)[1].

ولم يكتف رسولا قريش بما جرى، ولم ييأسا، فعاودا الكرَّة من الغد على النجاشي، ليمكرا مكراً، فقالا له: «أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى؟

فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا، هو عبد الله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١/ ٣٦٠.

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله، ما عدا عيسى ابن مريم ما قال هذا العود. فتناخرت بطارقته حوله، حين قال ما قال. فقال: وإن نخرتم والله. اذهبوا، فأنتم آمنون بأرضي، من سبّكم غرم. ما أحب أن لي جبلًا من ذهب، وأني آذيتُ رجلًا منكم»[١].

ثم أين الرشوة وفعلها الساحر في النفوس الضعيفة؟

لقد ديست ـ بفضل الله ـ تحت أقدام الحق، وذلك عندما التفت النجاشي إلى من كان عنده من رجاله قائلًا: «ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرّشوة حين ردّ عليَّ ملكي فآخذ الرشوة منه. وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه»[٢].

وهكذا خذل الله الكفر ورسوليه. فخرجا من عند النجاشي مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به.

وأقام المؤمنون عنده بخير دار مع خير جار!!!

وكان النصر الثاني من الله للإيمان.

الإيواء الثاني للمؤمنين

ثم ابتدأ المؤمنون المهاجرون بالرجوع إلى مكة من الحبشة، بعد أن تناهى إليهم خبر دخول قريش وسائر أهلها في الإسلام[٣].

ولكنهم فوجئوا بأن ذاك الذي نُمي إليهم لم يكن صحيحاً. بل

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٦١.
(٢) نفس المصدر ١/ ٣٦٠.
(٣) نفس المصدر ٢/ ٣.

صُدِموا بما هو أقسى وأمرّ. صُدموا بما كان الظالمون قد صنعوه أثناء غيابهم، حيث عقدوا حلفاً فيما بينهم «على بني هاشم وبني المطلب على أن لا ينحكوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم»(١).

وحيث تجاوزوا كل حد بتهكمهم بالرسول ﷺ، ومن بقي من أصحابه في مكة. وطرح زوج أبي لهب الشوك في طريقه. وهمزهم ولمزهم له ﷺ كلما مر بهم(٢). واستمرارهم فيما كانوا عليه من تعذيب المؤمنين، وفتنتهم عن دينهم واستضعافهم «أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة، واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها. فخرجوا أرسالًا ـ أي جماعة في إثر جماعة ـ وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة»(٣).

وهكذا تحقق فضل الله سبحانه للمؤمنين بالإيواء الثاني لهم في المدينة، بعد هجرتهم إليها.

النصر الثالث للإيمان

ثم كان النصر الأكبر في بدر. ذلك النصر لم يكن ليتحقق، لو أعملت مقاييس الأرض وأهل الأرض للنصر والهزيمة. كما سبق وذكرنا.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٧٥.
(٢) نفس المصدر ١/ ٣٧٥ وما بعدها.
(٣) نفس المصدر ٢/ ١١١.

ومن هنا، كانت الحكمة في تذكير المؤمنين في هذه الآية الكريمة بهذه النعم.

تذكيرهم بما كانوا، ولفتهم إلى ما صاروا، ليدركوا الفرق العظيم بين الحالتين. والبون الشاسع بين الفترتين.

هذا الفرق الذي حدث نتيجة لما اختاره الله بلطفه لهم. إذ إن الإدراك لهذا الفرق العظيم، سوف يحدث عندهم العزم على أن لا يتركوا مجالًا لأي ظالم، أن ينتهك حكماً من أحكام الشريعة المُحْيية، يبغي من وراء ذلك هدم تلك الشريعة. وبالتالي يرجعون إلى ما كانوا عليه من حال الخوف والاستضعاف.

والمستضعف: من عدَّه الغير ضعيفاً بتحقير حاله.

وآواه: إذا أنزله منزلًا. والمأوى: هو كل مكان يأوي إليه شيء ليلًا أو نهاراً.

* * *

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

سبب نزول هذه الآية

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

الأول: أنها «نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري»[1].

(١) تفسير الميزان للطباطبائي ٩/ ٦٤.

وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحات من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم رسول الله ﷺ ذلك، إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ. فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحاً لهم، لأن عياله وماله وولده كانت عندهم. فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنه الذبح فلا تفعلوا. وأتاه جبرائيل فأخبره بذلك. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنتُ الله ورسوله، فنزلت الآية فيه».

الثاني: ما أورده ابن جرير[1] من «أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبرائيل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال النبي ﷺ لأصحابه: إن أبا سفيان بمكان كذا فاخرجوا إليه واكتموا. فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان: إن محمداً يريدكم فخذوا حذركم. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾» الآية.

النداء الثالث: النهي عن خيانة الله والرسول

ومهما يكن من سبب لنزول هذه الآية، فقد تضمن النداء فيها نهياً جازماً وحازماً لجماعة المؤمنين، عن أن يخونوا الله والرسول، ويخونوا أماناتهم.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ١٣/ ٤٨٠.

ما نفهمه من لفظ الأمانات في الآية

والخيانة، هي الامتناع عن أداء الحق الواجب الأداء.

والأمانات، جمع أمانة، وهي ما استنيب الإنسان في حفظه.

والأمين، هو من يؤدي ما اؤتمن عليه بحفظه على أكمل وجه، بحيث لا يتعدى عليه، ولا يفرط فيه.

وهناك أشياء كثيرة، ائتُمِن الإنسان عليها من قبل الله سبحانه.

أعظم الأمانات

فهناك أمانة من أعظم الأمانات وأقدسها، تلك هي رسالة السماء إلى الأرض.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[١].

وحفظه لأعظم الأمانات هذه، إنما يكون، بإقامته لأحكامها في نفسه، وفي أسرته، وفي المجتمع ككل.

وإقامته للشريعة في نفسه، يتحقق بأن يجعل تصرفاته كلها، منسجمة مع أحكام هذه الشريعة. وأن يطبع سلوكه بطابعها المميز. وأن لا يتصرف تصرفاً يتنافى مع ما تدعو إليه.

ومما تدعو إليه، هو تزكية الإنسان نفسه، بمنعها عن التورط فيما يؤدي بها إلى التحلل والطغيان والانحراف:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[1].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾[2].

ومما تدعو إليه، أن يحفظ الإنسان نفسه، فلا يفعل ما يؤدي بها إلى التهلكة.

﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[3].

وفي قبال ذلك، دعت الشريعة الإنسان إلى أن لا يقهر نفسه ويذلها، بل يُمَتِّعها بما رزقه الله من الطيبات، في حدود معقولة لا خطر فيها ولا ضرر.

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾[4].

وأما إقامته للشريعة في أسرته، فإنما يتحقق بتطبيق أحكامها المتعلقة بالأسرة عليها، كأحكام الميراث والوصية، والنفقات، والزوجية، كأن يؤدي كل من الزوجين ما للآخر عليه من حقوق. إلى غير ذلك من الأحكام.

وأما إقامته للشريعة في مجتمعه، فهو أن يطبق الأحكام التي

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ٩.
(٢) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

تضمن وقاية هذا المجتمع، من التفسخ والدمار، كقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكافله وتكاتفه مع أبناء مجتمعه، وتعاطفه معهم على البر والتقوى، ومشاركته لهم عملياً ووجدانياً، في كل ما يمكن أن يحقق السعادة والكرامة لكل فرد في الأمة.

العقل أمانة

ولو أخذنا العقل الإنساني، لألفيناه أمانة مهمة، أودعها الله هذا الكائن، وأمره أن يحكّمه في كل ما يعترضه من أمور. وأن يتدبر به ما يحيط به من مظاهر هذا الكون المترامي، ويميط اللثام عن كثير من أسراره، كل ذلك ليحقق الإنسان التناسق بين النظام الكوني ونفسه.

هذا العقل، ليس ملكاً للإنسان الفرد، وإنما هو ملك للبشرية ككل. ولذا حرّم المالك الحقيقي ـ سبحانه ـ على هذا الإنسان، أن يفسد هذا العقل، أو يزيله بسكر أو بغير سكر. وأوجب عليه أن يدفع عنه كل ما يمكن أن يلحق به الضرر أو الوهن. فإن لم يفعل، فقد خان الأمانة، وخان نفسه، بما أوقعها فيه من حرمان، وسخرية واستهزاء وخان الإنسانية، بما حرمها من ثمرات وإنجازات محتملة لذلك العقل فيما لو حافظ عليه.

النفس أمانة

وهنالك نفس الإنسان، بما اشتملت عليه من جوارح وجوانح، فهي ليست ملكاً له، وإنما لخالق هذا الإنسان، فهو أمين عليها، يتصرف فيها وفق إرادة مالكها الحقيقي.

الكون أمانة

وهذا الكون بما فيه، وبما يزخر من مخلوقات حية وغير حية، وكنوز وخيرات، حيث سخّرها سبحانه جميعها لخدمة هذا الإنسان، أكرم مخلوق وأعزه، فجعلها أمانة في يده، ونصبه خليفة عنه ليتصرف فيها.

ومقتضى كون كل هذا أمانة عند الإنسان، أن يستغل كل طاقاته وخيراته المذخورة، وأسراره المودعة فيه، فيما يريده الذي استخلفه فقط، وهو إعلاء الحياة الإنسانية، وإنماء الحضارة البشرية وإغناؤها، وبالتالي، الأخذ بيد هذا الكائن إلى أعلى مراتب الكمال. فإذا استغل هذا الكون بكل ما فيه لغير صالح الإنسان والحضارة الإنسانية، فمعنى ذلك، أنه قد خان الأمانة، وخان الله الذي استودعه إياها، وخان الرسول الذي بلّغه وعرّفه ما ينبغي عليه القيام به لحفظها.

فالأمانة بهذا المفهوم الواسع الشامل للإنسان والكون والحياة، هي أمانة الله والرسول، نُهي الإنسان نهياً قاطعاً عن خيانتها، لما فيها من خيانة لهما، بل للإنسانية جمعاء وتأتي بعدها في المرتبة، أمانة الإنسان لدى الإنسان الآخر.

ومن حافظ على الأمانة العظمى، وأعطاها حقها من الحفظ والأداء، فهو قمين بأن يحافظ على جميع الأمانات الأخرى، التي يؤتمن عليها من قبل بني الإنسان، سواء كانت نفساً، أو مالاً، أو سراً، أو عرضاً، أو أي شيء آخر.

ولكن مع ذلك، مع عظمة هذه الأمانة، وخطورتها، وقداستها، باعتبار انتسابها إلى الله والرسول، مع كل ذلك، قد تشق الخيانة طريقها إلى بعض ضعاف النفوس فيقترفونها.

ولما كانت الأموال والأولاد مظنة هذا الضَّعف، حذر الله سبحانه الإنسان من ذلك، حذره تحذيراً شديداً من أن تكون علاقته بالأولاد والأموال، سبباً يؤدي به إلى خيانة الأمانة التي ائتُمن عليها، بأن يقترف الخيانة بدافع الطمع بالمال، والجشع إليه، أو بدافع البخل على ما كدسه منه عنده، أو يقترفها بتوهم أنه بذلك يدفع الأذى عن ذريته وأولاده. كما تقدم من فعل أبي لبابة في النص التاريخي الآنف الذكر.

ويضرب الله سبحانه في كتابه الكريم مثلًا لذلك قوم هود حيث آتاهم من الأموال والأولاد ما شاء وما شاؤوا ولكن غلبت عليهم شقوتهم وتملكهم الغرور القاتل الذي أودى بهم وبكل ما أوتوا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾(١).

فماذا كانت النتيجة؟

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾(٢).

لما كان كل من الأولاد والأموال مظنة الضعف الذي قد يؤدي إلى الخيانة فقد بيَّن الله سبحانه لهذا الإنسان، أن الأموال والأولاد فتنة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

والفتنة: هي الابتلاء والاختبار، فالأموال والأولاد، المحك

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٣١ ـ ١٣٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٣٩.

الذي يكتشف به مدى تعلق الإنسان بالأرض، وتمرغه في عالم الضرورات. ويثبت من خلاله، مدى قدرته على التحليق والسمو، في عالم القيم الإنسانية الحقة، والمثل العليا، لتحقيق الإنسانية الكاملة في نفسه، والإنسانية العابدة، وبالتالي يفوز برضوان الله، وبما عنده من الأجر العظيم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

* * *

النداء الرابع: التقوى وأثرها في حياة المؤمنين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

عقّب الله سبحانه، النداء السابق للمؤمنين المتضمن للنهي عن خيانة الله والرسول والأمانات، بنداء آخر تضمنته هذه الآية الكريمة، بيَّن لهم فيه، أنهم إذا اتقوا الله، بأن التزموا ما أمرهم به، وحافظوا على الأمانة التي أودعها لديهم من أن يؤثر في نفوسهم الضعف البشري اتجاه الأموال، والعصبية الضيقة اتجاه الأولاد ومن هم في منزلتهم، فيخونونها ومنعوا أنفسهم عن الوقوع فيما منعهم عنه. إن هم فعلوا كل ذلك، فسوف يشملهم بلطفه ورحمته، وذلك من جهات ثلاث.

الجهة الأولى

هي: أن يجعل لهم فرقاناً.

والفرقان: من فرق يفرق، كل ما فرق به بين أمرين.

نعم، سوف يجعل الله لهم فرقاناً بين حياتين، حياة تحكمها الجاهلية بكل إسفافها وحقارتها، وحياة يحكمها الإيمان بكل ما فيه من سمو ورفعة وتحليق.

حياة يعيش الإنسان فيها، وتعشعش داخله كومة من عبوديات، وحياة يعيش الإنسان فيها متمتعاً بالحرية الجوهرية النابعة من أعماقه، والمنعكسة على كل من حوله.

وفرقاناً بين مقياسين للإنسان، مقياس قوامه ما يملك، ومقياس قوامه التقوى.

مقياس ينظر إلى العنصر والنسب، ومقياس لا يقيم وزناً لهما ولا حساباً.

وقد ذهب مجاهد[١]، إلى أن الفرقان هو المخرج في الدنيا والآخرة.

وقال السدي[٢]: الفرقان هو النجاة.

وذهب الفراء[٣] إلى أنه الفتح والنصر والعز.

الجهة الثانية

هي: تكفير السيئات.

والتكفير معناه الستر، والسيئات جمع سيئة، وهي في اللغة الخطيئة. وقد قيل بأن المراد بها هنا الصغير من الذنوب، وهو ما لم

---

(١) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٥/ ١٠٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

يتوعد الله سبحانه بالنار عليه. ومن الواضح أن ستر السيئات كما يكون في الدنيا، بألا يكشفها الله أمام الناس في هذه الحياة، كذلك يكون في الآخرة، حيث لا يفضحه بإظهارها أمام الخلائق يوم يقف بين يديه.

الجهة الثالثة

غفران الذنوب.

والذنوب، جمع ذنب، وجمع الجمع: ذنوبات. والذنب في اللغة: الجرم. وقد قيل بأن المقصود بها هنا الكبير من الذنوب، وهو ما توعد الله سبحانه بالنار عليه.

وغفر غفْراً وغُفْراناً ومغفرة الذنب: عفا عنه.

هذه هي الجهات الثلاث، التي تترتب على تقوى الله، جعل الفرقان وتكفير السيئات، وغفران الذنوب، وهي جهات لم تكن لتقتصر المصلحة المستبطنة فيها على الحياة الدنيا للإنسان فقط، أو الحياة الأخرى له فقط، وإنما كانت شاملة لكلتا الحياتين، تمشياً مع منطق الإسلام وتأكيداً لنظرته إلى شقَّي هذا الإنسان، المادي منه والروحي.

وفي هذا ما فيه، من مدى سعة فضل الله على عباده، وإحسانه لهم ورأفته بهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

* * *

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

بعد هذه الجولة الروحية النافعة، مع أوصاف المؤمنين، وسلسلة النعم الطويلة التي ذكرهم الله سبحانه، بإغداقها عليهم، نتيجة لما اختاره لهم، من قتال العدو، وتتويجها بالنصر المؤزَّر الذي حازه المسلمون في بدر. ثم النداءات الإلهية الكريمة المتضمنة لوصايا السماء وتوجيهاتها لجماعة المؤمنين.

بعد هذه الجولة الروحية المفيدة، مع كل ما ذكر، تنقلنا الآيات الكريمة في جولة جديدة، لتطلعنا في الجانب الآخر، على الصورة المعبرة، عما كانت تنطوي عليه قلوب أعداء الله، من خبث ومكر، وحقد، ولجاج في حرب الله ورسوله، وإغراق في العناد للحق، والحسد لأهله.

وكانت هذه الآية، فاتحة الجولة الجديدة.

والمكر: هو الخديعة والاحتيال، والمكر نظير الغدر. إلا أن الغدر مأخوذ فيه ترك الوفاء بعهد قائم فعلًا. والمكر قد يكون ابتداءً من دون سبق عهد عليه.

وفي هذه الآية، يذكّر الله سبحانه، نبيه ﷺ بما كان من أمر المشركين، عندما صدع بالحق. حيث اتبع هؤلاء كل الأساليب، وسلكوا كل السبل، ليقضوا على الدعوة المحمدية في مهدها.

وقد أدى بهم تفكيرهم، إلى أن أنجع وسيلة للقضاء عليها، هي التخلص من حامل لواء تلك الدعوة، محمد ﷺ وهذا مما لم يكن باستطاعتهم تنفيذه في حياة عمه أبي طالب (رض).

وقد ذكرت الآية الكريمة ثلاثة اتجاهات تدارسها المشركون في كيفية ذلك التخلص.

الأول: أن يجرحوه جراحة، لا يقوم معها أبداً. وهو معنى قوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما، بأن معناه: ليثبتوك في الوثاق أو الحبس. والمعنى الأول للإثبات ـ في نظري ـ أوجه وأنسب بحال المشركين، حيث كانوا يريدون القضاء على الدعوة، في شخص حاملها، فيأمنون جانبه إلى الأبد. ومن الواضح أنهم لا يأمنون مع حبسه ﷺ، من أن يواصل دعوته من وراء جدران سجنه، وهو المؤيَّد من ربه، الأمين الصلب في أداء ما حمل من أمانة.

الثاني: الإخراج من مكة، ولكن بشكل يكون موته محتوماً، كأن يخرجوه على بعير حتى يهلك، أو يكفيهموه بعضُ الأعراب، وهو ما اختاره أبو البختري، وهشام، والفراء[١].

الثالث: القتل.

سبب نزول هذه الآية

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية أنه «تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم، إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق، يريدون النبي ﷺ. وقال بعضهم بل اقتلوه، وقال بعضهم بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه ﷺ. فبات علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ. وخرج النبي. فلما أصبحوا ساروا إليه، فلما رأوا علياً، رد الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري. فأخذوا يضربونه ليدلهم عليه فلم يبح لهم بشيء وقد حبسوه فترة ثم أطلقوه ليقتفوا أثر رسول الله ﷺ فاقتفوا أثره الخ».

---

(١) التبيان للطوسي ٥/١٠٩.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

مكر الله، ما معناه؟

ومن الملاحظ، أن الآية أسندت المكر إلى الله سبحانه، كما أسندته إلى المشركين. مع أنه سبحانه منزّه عن المكر بمعناه اللغوي المتقدم، لغناه عنه، وحاجة المشركين إليه. بل الذي يصدر عنه خصوص مجازاته لهم على ما مكروا ويمكرون.

وعليه، فالمكر الذي أسند إليه سبحانه، يراد به الجزاء على مكرهم، كما أسند الاستهزاء إليه في قوله عزّ من قائل: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[١] وأريد منه مجازاته لبني إسرائيل، على استهزائهم بالمؤمنين.

ومن هنا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي يجازيهم الله على مكرهم، بإحباط مؤامراتهم، وإفشال مخططاتهم، ورد كيدهم في نحورهم، وهو شديد في مجازاته هذه لهم، وهو خير الماكرين.

كيف يكون الله خير الماكرين؟

وقد قيل في كيفية ذلك عدة وجوه:

الأول: «أن يكون المراد أقوى الماكرين، فوضع خير موضع أقوى، ليُنبّه بذلك على أن كل مكر يبطل في مقابلة فعل الله».

الثاني: «أن يكون المراد من قوله خير الماكرين، ليس هو التفضيل، بل المراد أنه في نفسه خير. كما يقال: الثريد خير من الله».

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥.

الثالث: «أن يكون المراد خير الماكرين لو قدر في مكرهم ما يكون خيراً».

الرأي المختار

وكأنَّ هؤلاء، لما لم يتعقلوا أن يكون مكر المشركين خيراً في نفسه، إذ كيف يمكن أن يكون ما يدبرونه في الخفاء، من كيد لله ورسوله، وتآمر على حامل لواء الأمانة العظمى، كيف يكون هذا كله خيراً، حتى يكون مكر الله أكثر خيراً منه، ظناً منهم بأن التفضيل إنما كان بلحاظ المكر، عندما لم يتعقّلوا ذلك، ساقوا هذه الوجوه، بما فيها من تمحّلات وتأويلات، ونفي للتفضيل في الآية الكريمة.

ونحن لا نستسيغ شيئاً من الوجوه المذكورة، وذلك لأن التفضيل في الآية، ليس بلحاظ المكر، وإنما هو بلحاظ الماكرين، بمعنى المجازين على المكر.

ولا إشكال في أن المجازاة على المكر من قبل أي إنسان صدرت، تكون خيراً في نفسها، ولكنها بحكم محدودية الإنسان المجازي من حيث التفكير والزمان والمكان وجهله بكثير من الحقائق، سوف تأتي ناقصة وغير مطابقة لمقتضى الحال. ومن هنا تتأتى المفاضلة بين مجازاة إنسان لإنسان آخر على مكره ومجازاة خالق هذا الإنسان على ذلك المكر. فيصح أن يقال: بأن مجازاته سبحانه أكثر خيراً من تلك. إذ إن الخالق بلحاظ كونه عقلاً مطلقاً، لا يحدُّه زمان ولا مكان. ولا يخفى عليه شيء. سوف تأتي مجازاته تامة شاملة، وحاوية لكل عناصر النجاح ومقاييس الفوز، بحيث لا يتصور

معها الفشل بحال. وفي خيبتهم فيما دبَّروه، على ما بذلوا فيه من ذكاء، ودهاء، أكبر شاهد على مدى كمال تدبير الله، ودقة مجازاته.

* * *

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

تمهيد

لقد أطل الإسلام على جزيرة العرب، في وقت كان أهلها، قطيعاً تتحكم فيه فئة قليلة، ممن جمعوا في أيديهم الجاه والمال، والقوة، فراحوا بهذه الأمور الثلاثة يتصرفون في كل المقدرات والإمكانات، وما يتناسب مع مصالحهم الشخصية والقبلية.

كانت هناك الطبقة المتحكمة في قريش، ممن ترى لنفسها الصدارة والزعامة على كل القبائل.

وكانت هنالك طبقة الأحبار والرهبان، من اليهود والنصارى، ممن احتكروا لأنفسهم حق فهم التوراة والإنجيل، وادَّعوا أحقيتهم في التكلم باسم السماء.

لقد جمعت الطبقة الأولى في يدها زعامة الأرض، بينما قبضت الثانية على زمام زعامة الأرض والسماء.

وجاء الإسلام...

وهو رسالة تحرير وتطوير، وبعث للقوى المذخورة في الإنسانية. تلك القوى، التي حاولت كلتا الطبقتين أن تستغلها لصالحها، فعملتا على قهرها وتذويبها.

جاء الإسلام...

فأشعر الناس أنهم بشر لهم الحق في الحرية والنور. وأنهم مغلولون مقيدون، لهم الحق في الانعتاق من القيود والأغلال، وأفهمهم أن هؤلاء الذين يدَّعون لأنفسهم حق الزعامة والسيادة، ما هم إلا كبقية مخلوقات الله، لا فضل لهم على غيرهم يكون لهم به مثل هذا الحق. وأن المال أو الجاه، أو العنصر أو الدم، لا يمكن أن تكون مجتمعة أو منفردة، مقياساً للتمايز والتفاضل، وإنما المقياس لذلك هو مقدار ما يؤديه الفرد للإنسانية من خدمات. وأن المقياس العملي العام لكل التصرفات إنما هو تقوى الله ورضوانه.

كما أفهمهم أن لا واسطة بين الله وعباده، وأن هؤلاء الأحبار والرهبان الذين يدّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه والناطقون باسمه، ما هم إلا طُغمة فاسدة، يكذبون على الله. ويشترون بآياته ثمناً قليلًا، ويأكلون أموال الناس بالباطل والإثم والعدوان.

وبهذا الموقف، كان الإسلام صيحة هدم للكيانات المبنية بجماجم البائسين وأشلائهم، المجبولة بدموع المظلومين ودمائهم. الموشاة بالأكاذيب والأضاليل والخرافات التي كان ينسجها المتشدقون باسم السماء.

وقد شعر المنتفعون، والمصلحيون، بالخطر الماحق والزاحف، المتمثل في الدعوة الجديدة، في الإسلام.

ولذا كان من الطبيعي أن يتحرك هؤلاء تحركاً سريعاً وشرساً، ليوقفوا هذا الزحف، وليدرأُوا هذا الخطر حفاظاً على مصالحهم من أن تضرب ومكاسبهم من أن تسلب، وزعامتهم من أن تتلاشى.

وقد اتبعوا في سبيل تحقيق هدفهم هذا، أسلوبين اثنين:

الأول: أسلوب الحرب الفكرية.

الثاني: أسلوب الحرب المادية.

الحرب الفكرية

وأعني بالحرب الفكرية، تلك الحملات التشويهية والتشكيكية التي نظمها الكفار، والتي كان يقصد من ورائها، إحداث البلبلة الفكرية لدى الإنسان العادي، حيث تؤدي به إلى تأرجح الصورة أمامه، فتمنعه من الرؤية الواضحة، وبالتالي من الاقتناع والاختيار.

ما استهدفته هذه الحرب

وقد استهدفت هذه الحملات التشويهية والتشكيكية، ثلاثة أمور خطيرة:

الأول: القيادة الإسلامية متمثلة في شخص النبي الأعظم ﷺ.

الثاني: العقيدة.

الثالث: معجزة الإسلام الخالدة، القرآن.

الحرب الفكرية واستهدافها لشخص النبي ﷺ:

أما بالنسبة لشخص النبي ﷺ، فقد حكى القرآن الكريم ضُروب النعوت والصفات، التي كان المشركون يلصقونها به ﷺ. ومختلف التُّهم التي كانوا يرمونه بها. فقد اتهموه بالكذب والسحر:

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾[1].

---

(١) سورة ص، الآية: ٤.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾[1].

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾[2].

ورموه بالجنون:

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾[3].

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾[4].

وحدة الأسلوب مع اختلاف الزمان والمكان

والعجيب أن يتشابه الأسلوب في كل زمان ومكان، فيكون التكذيب ديدن جميع الأمم السابقة بالنسبة لأنبيائها، فقد اتبعه قوم نوح:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[5].

وقوم عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[6].

وقوم ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾[7].

وقوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾[8].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢.
(٢) سورة القمر، الآية: ٢٥.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٦.
(٤) سورة الدخان، الآية: ١٤.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ١٠٥.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ١٢٣.
(٧) سورة الشعراء، الآية: ١٤١.
(٨) سورة الشعراء، الآية: ١٦٠.

وأصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾[1].

والأعجب من هذا، أن ينهجوا نفس النهج في تشويه شخص كل رسول قائد، فيرمونه بالسحر والجنون:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾[2].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[3].

وفي موسى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾[4].

الحرب الفكرية واستهدافها للعقيدة

أما فيما يتعلق بالعقيدة، فقد انصبت عليها الحملات التشكيكية متمثلة في أصولها الكبرى: الوحدانية والنبوة والمعاد.

النبوة وحملات التشكيك

فبالنسبة للنبوة مثلًا نرى المشركين، قد اتبعوا أسلوب التشكيك فيها:

أولاً: بإلقاء شبهة أنه لماذا يرسل الله نبياً من البشر، مع أن من الأفضل أن يرسل ملكاً من الملائكة وهو في مقدوره؟

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٧٦.
(٢) سورة القمر، الآية: ٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٦٦.
(٤) سورة غافر، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾(١).

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾(٢).

ثانياً: ببث الشك حول دعوى النبوة من قبل النبي ﷺ بالذات، وذلك بأن الله لو أراد أن يرسل نبياً لاختار شخصاً له من الجاه والمال والعظمة، ما يكون معه أهلًا للزعامة والقيادة. وهذا ما ليس متوفراً في محمد بن عبد الله، وهو اليتيم الفقير.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾(٣).

ثالثاً: بإلقاء طلباتهم التعجيزية على النبي ﷺ مما لا ارتباط له بما يدعوهم إليه من قريب ولا من بعيد.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾(٤).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾(٥).

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣١.
(٤) سورة الحجر، الآيات: ٦ ـ ٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾(١).

التوحيد وحملات التشكيك

وأما بالنسبة للتوحيد، فقد عمل المشركون للتشكيك فيها على خطين:

الأول: استغلال عاطفة التعلق بتراث الآباء والأجداد، ليثيروا الناس ضد عقيدة التوحيد:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾(٢).

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾(٣).

الثاني: استغلال سذاجة بعض الناس بتصويرهم لهم أن آلهة متعددة يعبدونها خير لهم من إله واحد، مع إثارة شكوكهم بأسلوب اشفاقي حول إمكان جمع هذه الآلهة الكثيرة في واحد:

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾(٤).

الحرب الفكرية واستهدافها للقرآن

وأما القرآن، فقد تعرض لأعنف حملة تشكيكية من قبل المشركين، وقد اتخذت تلك الحملة صوراً متعددة.

---

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٢.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٦.

(٤) سورة ص، الآية: ٥.

فمرة يقولون بأنه من وضع محمد وتأليفه، وليس للسماء به أدنى ارتباط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[١].

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾[٢].

وأخرى يقولون بأن محمداً قد تعلّمه من الأحبار والرهبان:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[٣].

عود إلى أجواء الآية

وهنالك أسلوب آخر اتبعه المشركون للتشكيك في القرآن وإعجازه وهو ما تحدثنا عنه الآية الكريمة:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾.

فادعاؤهم القدرة على مجاراة القرآن، والإتيان بمثله، أسلوب يقصد منه الحط من قيمته كمعجزة، لا يستطيع أحد من البشر أن يجاريه، ويضفي عليه صبغة بشرية، تنزع عنه صفة القداسة.

ومن هنا جاء الوحي قاطعاً في تحدي هؤلاء المشركين أن يثبتوا مدعاهم في الإتيان، لا بقرآن آخر، بل بعشر سور مثله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[٤].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الطور، الآية: ٣٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة هود، الآية: ١٣.

بل شدد القرآن في تحديه لهؤلاء، في إثبات ما يدّعونه، وذلك بالإتيان بسورة واحدة مثله فقط.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾[1].

وبهذا التحدي، انكشف كذب ما ادعوه، إذ لم يأتوا بما يضارع هذا القرآن، بل لم يأتوا إلا بما هو سخيف مضحك، ولذا لن يكون ذا جدوى، أن يتشدقوا بعد ذلك ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾.

بل لن يكون ذا جدوى أن يرددوا مزاعمهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

والأساطير: جمع أسطورة وهي الباطل.

وقيل «الأساطير» جمع أسْطُر، وأسْطُر جمع سَطْر، فتكون على هذا جمع جمع لسطر، وزيدت الياء للمدّ.

درس وعبرة وتنبيه

ولم يقتصر التشكيك بالقرآن على المشركين في الصدر الأول للإسلام، بل تعداهم إلى كل حاقد، ولذا كان المستشرقون ولا يزالون، يحاولون النيل من هذا القرآن، متوخين من وراء ذلك نفس ما توخاه المشركون من وراء حملاتهم التشكيكية آنذاك، ألا وهو زلزلة عقيدة المسلمين بقرآنهم، وبالتالي بالإسلام ككل.

إذ إن القرآن هو القاعدة التي يرتكز عليها الإسلام في تشريعاته وأصوله وأحكامه.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٨.

فهذا جولد تسيهر[١]، وهو من المستشرقين الحاقدين على الإسلام، نراه يقول في سياق كلامه عن القرآن: «ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً متجانساً وخالياً من التناقضات» ويقول: «كان وحي محمد حتى في حياته معرضاً لحكم النقاد، الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص، وكان عدم الاستقرار والطابع المتناقض البادي في تعاليمه موقع ملاحظات أخرى».

وما على المسلمين، إلا أن يحذروا من هذه الأساليب، التي سن المشركون من قريش وغيرها، في بدء الدعوة الشريفة قواعدها، ثم اتبعها كل الحاقدين على الإسلام من مستشرقين وغيرهم بهدف النيل منه. وما على المسلمين إلا أن يصمدوا في وجه هذه الحملات التشكيكية، كما صمد النبي ﷺ والعصبة المؤمنة في وجهها حتى كتب لها الموت والفناء.

* * *

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) في كتابه المعرّب العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٧٨ ـ ٧٩.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

عندما يطغى الحقد على إنسان، يعميه عن أبسط قواعد السلوك، التي يكون فيها خيره وصالحه، ويفقده السيطرة على أعصابه، فتراه مخلوقاً مهتز الشخصية، لا يعقل ما يصدر عنه من قول أو فعل.

والمشركون بعد أن ادعوا دعواهم، التي رموا من ورائها إلى تحطيم الإسلام بالتشكيك بدستوره ومعجزة نبيه، القرآن، لم يتحقق شيء مما رموا إليه، بسبب التحدي القاطع والحازم، بأن يقيموا الحجة على صحة دعواهم تلك، وعجزهم وخذلانهم إزاء هذا التحدي. كل ذلك أدى بهم إلى حالة من الاضطراب العصبي، والارتباك الفكري، حملتهم على التفوه بما لا يصدر عن إنسان ممتلك لوعيه وإدراكه، بأن طلبوا لأنفسهم العذاب.

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

فهل يتصور أن يرضى إنسان عاقل، يفكر ويدرك ويعي، لنفسه العذاب؟ وأي عذاب؟

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

فمجرد تصور أن يكون النازل من السماء بدل هذا الماء المعهود حجارة، يوضح شدة ذلك العذاب المستنزل وقسوته.

أمطرت ومطرت والفرق بينهما

والفرق بين التعبير بأمطرت السماء ومطرت، أن التعبير بالأول، لا يكون إلا للدلالة على أن النازل عذاب، بينما التعبير بالثاني لا يكون إلا للدلالة على أن النازل رحمة.

استيضاح وتوضيح

قد يقول قائل: لما كانت مظنة نزول المطر منحصرة بالسماء، فإن ذكر السماء في قوله تعالى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ﴾ يبدو لَغْوِياً وبلا فائدة.

والحقيقة، أن هذا الكلام، وهو انحصار مظنة نزول المطر بالسماء إنما يكون بالنسبة للمطر المطلق، في حين أن المطر هنا مطر مضاف لا مطلق، إذ هو مطر الحجارة، ولمّا أمكن أن يكون مطر الحجارة هذا من أمكنة متعددة: كسطوح المنازل، ورؤوس الجبال، وغير ذلك من الأماكن العالية، اتضحت الفائدة من ذكر السماء في الآية الكريمة، «لأن الحجارة إذا نزلت من السماء كانت أشد نكاية وأكثر ضرراً».

وقد قيل، بأن فائدة ذلك هي «أنه لما كانت الحجارة المسوَّمة للعذاب وهي السِّجِّيل، معهودة النزول من السماء، ذكر السماء إشارة إلى إرادة المعهود من الحجارة، كأنه قال: فأمطر علينا حجارة من سجّيل، فوضع قوله من السماء، موضع قوله: «مِن سِجّيل».

هذا هو **التفسير الأول** لاستنزال المشركين العذاب على أنفسهم.

التفسير الثاني: أن يكون ذلك منهم أسلوباً من أساليب التضليل،

فهم يعرفون، أن كلمة الله قد سبقت بألّا يعذبهم بعذاب من سبقهم من الأمم، كالجراد والدم والقمل، والصاعقة، والخسف، والطوفان، وإسقاط الكسف من السماء، وذلك تعظيماً لخاتم الأنبياء، وتكريماً، بعد أن بعثه الله رحمة للبشرية، فلا يمكن أن يكون سبباً بوجوده للانتقام والتعذيب.

وحين يطلبون إنزال العذاب بهم، معلقين ذلك على شرط أن يكون ما يدعو إليه محمد هو الحق.

﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾.

ثم لا يقع ما يطلبون، فسوف لا يكون ذلك، في اعتقاد السذج والبسطاء، إلا لعدم تحقق الشرط، وهو أحقية القرآن والدعوة الإسلامية ككل. فيدخلون الشك بذلك إلى النفوس والعقول.

ولكن الله سبحانه، كشف زيف ما تمخضت عنه مقدماتهم الفاسدة التي رتبوها، وأحبط ما هدفوا إليه من تشكيك الناس، وتشويه الدعوة، فبيّن أن الله وإن لم ينزل بهم ما طلبوه من العذاب، ولكن لا لأحقيتهم هم، وبطلان ما ادعى محمد ﷺ. ولا لأنهم يستحقون بقاءً وعطفاً. بل بسبب وجود محمد ﷺ بينهم رحمة:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

ومعنى ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وأنت حي فيهم.

وقيل، بأن معنى ذلك، نفي العذاب عنهم ما دام النبي ﷺ بين ظهرانيهم في مكة، وعليه فيكون قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارة إلى نفي العذاب عنهم، بعد خروجه من

بينهم إلى المدينة، بسبب دخول بعضهم في الإسلام، واستغفارهم لما بدر منهم من كيد للنبي والمسلمين.

وقيل، ـ كما في الدر المنثور ـ بأنهم لما استنزلوا الله العذاب على أنفسهم إن كان ما يدعو إليه محمد الحق، رجعوا فندموا على ذلك، فقال بعضهم: غفرانك اللهم، فأنزل الله سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وقيل، بأن في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ استدعاءً إلى الاستغفار. أي إنهم لو استغفروا لم يعذبوا. وهو قول قتادة ومجاهد[1].

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

بعد أن أخبر الله سبحانه عن حال المشركين، واستنزالهم العذاب الأليم منه عليهم. وبعد أن أخبر سبحانه أنهم لن يجابوا إلى ما طلبوا. ثم بيّن السبب في عدم إجابته لهم، وهو وجود النبي ﷺ بينهم رحمة، والاستغفار الصادر عن بعضهم لما بدر منهم من كفر وعناد.

بعد هذا كله، جاءت هذه الآية، لتؤكد لهم أن عدم إنزال ما طلبوه من عذاب بهم، لا أنهم أهل للشفقة، أو مستحقون للرحمة والعطف، بل بالعكس، فيهم كل مقتضيات استحقاق العذاب والعقاب.

---

(١) تفسير التبيان للشيخ الطوسي، ج٥/١١٣.

إذ كفى مقتضياً لتعذيبهم صدهم عن المسجد الحرام، وتعذيبهم من تمكن من دخول مكة، إذا لم يكن له فيها من يحميه ويمنعه.

ومنعهم هذا ليس له من وجه حق، إلا ما تصوره لهم عقولهم، من أنهم أولياء البيت وأصحابه، يمنعون من يشاؤون عنه، ويدعون من يشاؤون.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾.

وكيف يكونون أولياء بيت الله ، وهم يتلبسون بأعظم أنواع الظلم على الإطلاق، وهو الشرك بالله، ومحاربة رسوله والمؤمنين؟

كيف يؤتمنون على بيت الله، مع أنهم بشركهم، خانوا أعظم أمانات الله سبحانه، وهي توحيده وعبادته؟

فليس لهم من حق في ولاية البيت الحرام. بل الحق في توليه، منحصر في المتقين لله، الذين يؤمنون به، ويعبدونه، ويقيمون حدوده، ويعظمون شعائره.

﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾.

كيف يكونون ولاة بيت الله الحرام، وهم لم يقيموا له حرمة، لا بصدهم المؤمنين عنه فقط، بل بطوافهم به عراة الأجسام، نساءً ورجالًا، على أصوات هي خليط من المكاء والتصدية؟ والمكاء: الصفير، يقال: مكا يمكو مكاءً، إذا صفَّر بفيه.

والتَّصْدية: التصفيق. يقال: صدى يصدى تصدية، إذ صفَّق بيديه.

سبب نزول هذه الآية

وقد روي عن ابن عباس[١]، في سبب نزول هذه الآية «أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة، كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني، فيجيء رجلان من بني سهم، يقوم أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، ويصيح أحدهما كما تصيح المكاء، والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير، ليفسدا عليه صلاته».

وذهب سعيد بن جبير، إلى أن التصدية هنا، الصد عن البيت الحرام.

وقد أطلق لفظ الصلاة على فعلهم هذا من تصفير وتصفيق، لأنهم كانوا يعتبرون فعلهم هذا صلاة لهم ودعاءً. ولذا أخبر الله سبحانه، أن صلاة المشركين عند بيته الحرام، لم تكن إلا لهواً ولعباً، وتصفيراً وتصفيقاً، ومن كان هذا حاله مع الله وبيته الحرام، فهو مستحق للعذاب والعقاب.

﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) يراجع الدر المنثور عند تعرضه لتفسير هذه الآية.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

لقد تقدم منا القول، بأن المشركين عندما أحسّوا بالخطر الذي يهدد مراكزهم، ومصالحهم، متمثلًا في رسالة الإسلام، تحركوا بكل شراستهم وقوتهم ليصدوا هذا الخطر، فشنوا حرباً على هذا الدين، وهذه الرسالة.

وقلنا، بأن حربهم تلك، اتخذت أسلوبين اثنين: أسلوب الحرب الفكرية. وأسلوب الحرب المادية.

وقد تحدثنا عن أول الأسلوبين، حسب ما استوحيناه من الآيات الكريمة المتقدمة.

الحرب المادية وسبب نزول هاتين الآيتين

وقد جاءت هاتان الآيتان، لتحدثانا عن ثاني الأسلوبين، وهو الحرب المادية التي شنّها المشركون، وكل النفعيين على الإسلام.

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية وما بعدها[1]، أنه لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فَلُّهُم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بِعِيرِه، مشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، في رجال من قريش إلى من كان معه تجارة فقالوا: يا معشر قريش، إن محمداً قد وَتَرَكمُ، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأراً. ففعلوا. ففيهم ـ كما ذكر ابن عباس ـ أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾ الخ.

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام، ج٣/ ٦٤.

وقد أخبرت الآية الكريمة، أن الذين كفروا، بدل أن ينفقوا أموالهم، التي رزقهم الله فيما يرضيه ـ تأدية لحق شكره ـ تراهم ينفقونها ليمنعوا الناس عن سبيله الذي اختطه للبشرية، لتصل بسلوكه إلى سعادتها وكرامتها، وهو الإسلام.

ولكنهم سوف ينفقونها ـ كما حدث في غزوة أُحد، حيث استأجر أبو سفيان وحده ألفين من الأحابيش من كنانة[١]، ليقاتلوا المسلمين ـ ثم لن يحصلوا على ما أَملوا، لأن الدائرة سوف تدور عليهم، وسوف يُغلبون. وبهذا يكون إنفاقهم لأموالهم في هذا السبيل حسرة عليهم.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾.

والحسرة: التلهف الشديد على الشيء الفائت.

نعم، سوف تكون أموالهم تلك التي أنفقوها في سبيل محاربة الله ورسوله والمؤمنين عليهم حسرة، يتلهفون على فواتها، وتكون سبباً لتنغيص حياتهم الدنيا مع ما سوف يلاقونه فيها، من ذل وهوان، بسبب هزيمتهم، زيادة على خسرانهم لأموالهم.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

ولن يقتصر الأمر على هذا العذاب الدنيوي، الذي هو الحسرة والهزيمة، بل سوف يكون لهم في الآخرة ما هو أشد وأنكى من العذاب الدائم، في نار جهنم.

---

(١) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٥/١١٨.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

والحشر: الجمع. ومنه (يوم الحشر) أي يوم القيامة، وقد عبّر عنه في القرآن الكريم، بيوم الجمع[1].

غاية مقصودة وغرض سامٍ

كل هذا الذي ذكر، من انفاق الذين كفروا أموالهم في سبيل الطاغوت، والصّد عن دين الله، وحرب أوليائه، وما سوف يكون عليه حالهم من حسرة وخزي وهزيمة في الدنيا، وجمع إلى العذاب الأليم الدائم بنار جهنم في الآخرة، كل ذلك، ليميز الله الخبيث من الطيب. والخبيث هو الرديء، والمقصود به هنا الكافر. والطيّب، هو الجيد، والمقصود به هنا المؤمن.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

وليس الغرض من فعل الله سبحانه كل ذلك بالكافرين، هو أنه يجهل من هو المؤمن ومن هو الكافر، فيريد أن يرفع جهله بهذه الأمور، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فهو العليم بكل شيء. المحيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وإنما الغرض من ذلك في نظري، هو أن يجعل مائزاً بين جزاء الكافرين، وهو الحسرة، والهزيمة، والحشر إلى جهنم، إلى غير ذلك من مخيف الأمور، التي توجب عند تصورها من قبل الإنسان، تجنيب نفسه لها وذلك بتجنب السبيل الذي أدى إليها وهو سبيل الكفر. وبين جزاء المؤمنين، وهو السرور والنصر، وإدخالهم الجنة، إلى غير ذلك

(١) سورة التغابن، الآية: ٩.

من الأمور، التي توجب عند تصورها من قبل الإنسان، رغبة أكيدة، وميلًا شديداً لسلوك السبيل الذي يؤدي إليها وهو سبيل الإيمان، وبهذا يتميز خط الإيمان عن خط الكفر. مع ما يترتب على هذا التميز من وضوح في الرؤية أمام ذلك الإنسان الذي يريد أن يسلك ابتداءً أحد السبيلين.

وبهذا، لن يسلك سبيل الخبيث، بحكم انجذاب الشيء إلى شبيهه، إلا من فسدت سريرته وخبثت طينته.

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

ثم بعد عملية الجمع بين الخبثاء، بحكم انجذاب الشيء إلى شبيهه ـ كما ذكرنا ـ يركم الله سبحانه هذا الجمع، بأن يلقي بعضه فوق بعض في نار جهنم.

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾.

ومعنى ركمه: إذا جمعه ثم ألقى بعضه فوق بعض.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وأي خسران أعظم من هذا الخسران؟

خسران الأموال، وخسران الأنفس.

خسران الدنيا، وخسران الآخرة...!؟

* * *

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

عرض وتمهيد:

خلق الله سبحانه هذا الإنسان، وأراده خليفة له على الأرض وزوده بكل الإمكانات والقدرات، التي تعينه على تحقيق الغرض الذي أوجد من أجل تحقيقه. وقد بلغ من لطفه به أنه جعله دائماً تحت رعاية السماء، توجهه، وتسدد خطاه، وتأخذ بيده نحو ما فيه خيره وسعادته.

ومن هنا، تتابع موكب الأنبياء والرسل، كل نبي أو رسول، كان يواصل المهمة العظمى، من حيث انتهى من سبقه.

ونحن، إذا راجعنا تاريخ الأنبياء والنبوات، كما قصها علينا القرآن العظيم، نجد هنالك قاسماً مشتركاً بينها في الأسلوب.

إذ إن الدعوة عند كل نبي، كانت تمر بمرحلتين اثنتين:

١ ـ مرحلة الدعوة باللسان والبيان.

٢ ـ مرحلة المعاملة بالمثل، ومواجهة التحدي بالتحدي.

جولة مع التاريخ

ونحن لو استقرأنا أبرز المواقف التي وقفها أبرز الأنبياء أمام طغاة أقوامهم وجبابرتها، سوف لن نجد ولو واحداً منهم فقط، ابتدأ دعوته بالمجابهة والتحدي، بل كانوا جميعاً لا يتحولون إلى هذه

المرحلة، إلا بعد أن يؤدوا المرحلة الأولى كاملة، وييأسوا من جدوى الاستمرار فيها، إزاء إصرار الكافرين على كفرهم وحربهم لرسالة الله إلى البشرية.

نستطيع أن نستعرض معاً، نموذجاً من النماذج التي أوردها القرآن، لنؤيد ما ذهبنا إليه.

فبالنسبة إلى موسى عليه السلام، عندما أرسل إلى فرعون ليدعوه إلى الله، وينقذ بني إسرائيل من عبوديته وبطشه، ويعيد إليهم كراماتهم وحرياتهم، هذا موسى، بكل شجاعته ورباطة جأشه يقف بين يدي فرعون، بكل طيشه، ونزقه، وجبروته، لتبدأ محاورة هادئة بينهما، يثبتها لنا القرآن.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[1].

هكذا رد موسى عليه السلام على أسئلة فرعون بكل هدوء ووضوح، مؤدياً واجبه كنبي مرسل إلى قوم. وغرضه الأول والأخير، هو إرجاعهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه كبشر. وينقذهم من الهوة التي ترددوا فيها، والتي لا تتناسب مع إنسانيتهم أبداً. وهدايتهم إلى صراط الحق والخير.

(١) سورة طه، الآيات: ٤٩ ـ ٥٥.

وبهذا تنتهي المرحلة الأولى، من مرحلتي دعوته. مرحلة الدعوة بالبيان واللسان.

ولكن بعد أن أربكت أجوبة موسى الواضحة والهادئة، والمتمشية مع فطرة الإنسان، والمقنعة لعقله وفكره، بعد أن أربكت فرعون، وأحرجته أمام علية القوم من ملئه، جعلته ـ ككل عاجز تعييه الحيلة والوسيلة ـ يرجع إلى غطرسته وطيشه ونزقه، فينتقل إلى مرحلة مهاجمة موسى، والتشكيك في أقواله ودعواه. مرحلة التحدي. فاتهم موسى بالسحر، وتحداه في أن يجعل بينه وبينه موعداً.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾[1].

وقد اكتشف موسى عليه السلام، بانتقال فرعون فجأة من مرحلة الاستجواب الهادئ المعقول، إلى مرحلة التحدي السافر والتشكيك الرخيص، اكتشف أن هذا الطاغية لم ولن يفيد معه بعد ذلك بيان ولا لسان. وما دام قد أرادها معركة مجابهة على رؤوس الأشهاد، قبل التحدي، وقابله بتحدٍ مثله.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾[2].

وبهذا ابتدأت المرحلة الثانية من مرحلتي دعوة موسى عليه السلام.

وهكذا، كان موقف إبراهيم عليه السلام، في دعوته لقومه، حيث ابتدأهم بمرحلة البيان باللسان ثم انتقل بعدها إلى المرحلة الثانية، مرحلة التحدي الصلب والمهاجمة المكشوفة، فحطم الأصنام.

---

(١) سورة طه، الآيات: ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٥٩.

ومحمد ﷺ لم يكن بدعاً من الأنبياء، كما أن رسالته لم تكن بدعاً من الرسالات، فكان لا بد وأن يتبع في دعوة قومه إلى ما أرسل به، نفس المرحلتين اللتين اتبعهما من سبقه من رسل، مرحلة البيان باللسان، ومرحلة مقابلة التحدي بالتحدي.

عود على بدء

وقد جاءت هاتان الآيتان الكريمتان، لتصورا هاتين المرحلتين بوضوح. فيأمر الله سبحانه في الآية الأولى نبيه ﷺ أن يدعو الكافرين إلى الانتهاء عن كيد المؤمنين، وحرب الإسلام مادياً ومعنوياً. وأن يرجعوا إلى الله مولاهم الحق.

سبحانك اللهم ما أعظمك، وأرحمك بعبادك.

هذه الشرذمة التي كادت هذا الكيد، وصدت عن سماع كلمة الحق هذا الصدود، وأغمضت عيونها عن إشراقة النور، وحاربت رسالة السماء هذه الحرب الشرسة، بدافع من حقدها وجهلها.

هذه، بعد كل جرائمها، أمر الله سبحانه رسوله، أن يدعوها إلى سلوك صراط الله، ومراجعة حساباتها. فتدرك أن لا طاقة لها بحرب الله ورسوله والمؤمنين. فترجع عما هي عليه من غيّ، والله عند ذلك يغفر لها ما قد سلف. فما يفعل الله بعذابها إن هي آمنت واتقت.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

وإلا، إذا استمرت هذه الشرذمة في حربها لله ورسوله ولدعوته، وأصرت على عنادها وتمادت في غيها، فلتحذر سنة الله في الأمم الأولى التي سبقتها، حيث كان العذاب الأليم، والدمار الكامل، والاستئصال في الدنيا، والخزي في جهنم يوم القيامة.

﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾.

والسنة: السيرة والطريقة.

بعد أن يأمر الله سبحانه نبيه أن يدعو هؤلاء المشركين، إلى تغيير مواقفهم العدائية من رسالته ورسوله، مرغّباً لهم بمغفرة، ورضوان وتجاوز، ومخوِّفاً من عذاب أليم أصاب من سبقهم من أمم. بعد هذا تنتهي مرحلة البيان باللسان. وحيث لم يستجيبوا لهذه الدعوة الكريمة، التي تهدف إلى خيرهم، وخير الإنسانية، تأتي الآية الأخرى، لتنقل المسلمين إلى الموقف الثاني، إلى المرحلة الثانية، إلى مجابهة هؤلاء الكافرين وقتالهم.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾.

ولكن، ما هي أهداف هذا القتال؟

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

أهداف القتال في الإسلام

وهنا، لا بد وأن نقف بإيجاز، على فلسفة الإسلام في الحرب، لنرى هل هي بالنسبة إليه وسيلة، أو غاية. حيث يذهب بعض الحاقدين على هذا الدين من مستشرقين وغير مستشرقين، إلى اتهام الإسلام بأنه قام على القهر والغلبة، وانتشر بواسطة السيف. وأن غزوات المسلمين لم يكن الغرض منها إلا السلب والنهب والاستيلاء.

ولكي ندرك عمق نظرة الإسلام إلى الحرب، لا بد لنا من فهم طبيعة هذا الدين، وأبعاده.

لقد كان الإنسان، عندما أطل الإسلام على دنيانا هذه، يرسف في عبوديات كثيرة، غلته عن السمو، وخنقت في روحه إمكانات الإبداع.

والإسلام، وهو خاتمة رسالات السماء إلى الأرض، جاء ليحرر هذا الإنسان من عبودياته تلك، وليرتفع به عن مهابط الحيوان، التي مرغت وجهه بالطين ولفت روحه بسجف الذل والجهل والهوان.

ولذا كان الإسلام المخلص والمنقذ، لا لفئة معينة من الناس أو لفترة محدودة من الزمان. وإنما كان دعوة موجهة إلى البشرية، لا يحده زمان ولا عصر ولا مكان.

وإذا كان هدف الإسلام تخليص البشرية مما تعانيه من شقاء، كان له الحق كل الحق، في أن يمارس نشاطه وتحركه، في سبيل تحقيق الهدف الذي أنزله الله سبحانه من أجل تحقيقه. على امتداد رقعة الأرض، وبصورة تستوعب كل بني الإنسان.

ولكن، هنالك، في كل زمان ومكان، من تعميه مصلحياته، وأنانياته عن الإذعان للحق، ويمنعه خبثه وجهله من الاستماع إلى رنة صوته، أو احتمال اشراقة نوره، ولذا، يهب ليدفع ما يراه مهدداً لمصالحه تلك. وليحطم ذلك الوتر، الذي عزف له لحناً يتنافى مع ما ألفته أذناه من لحن، يستجيش فيه دائماً رائحة الطين وغرائز الحيوان، وليطفئ ذلك النور، الذي أضاء ما حوله، فكشف له عن مستنقعات آسنة يعيش فيها حشرة تغتذي العفن، ولا تألف إلا الظلام.

وقد حاول الإسلام أن يمد لهذا المخلوق جسر الخلاص،

ويرفعه من الوهدة التي تردّى فيها، إلى ذرى سامقة، تليق به كإنسان. ويمزق عن عينيه الحجب التي لفّته، فغلّفت معها عقله وروحه.

نعم، كان الإسلام كفيلًا، بأن يفعل كل ذلك لهذا الإنسان، لولا أن حالت بينه وبينه هذه الفئة من الأصنام التي حدست بما سيكون عليه حالها إن تركت للمارد أن ينطلق من عقال، عقال تسلطها وجبروتها بما تملك من جاه ومال وسلطان.

فهل يتخلى الإسلام يا ترى عن دوره الذي خلق من أجله، وهو تخليص الإنسان، فيترك الأصنام؟ والجواب، أن لا تخلي ولا استخذاء. ولذا حينما شعر رسول الإنسانية، أن هذه الطواغيت، تقف بين الناس وبين إشراقة النور، وأنه لم ولن ينفع معها أسلوب الحكمة والموعظة والبيان، لم يجد بداً من أن يحطم الأصنام، ويدمر الطواغيت، ليحيا الإنسان بإرجاع حريته وكرامته إليه، وارجاعه إلى مركزه القيادي الذي أراد الله له أن يكون فيه، وبذلك يتحقق الهدف الذي أطل على الدنيا من أجل تحقيقه.

ومن هنا أُذن للمؤمنين بالقتال. فكانت الحرب، وكان القتال.

وبهذا يتبين، أن الحرب في الإسلام لم تكن غاية في حد ذاتها، وإنما كانت وسيلة لا محيص عنها، لغاية سامية نبيلة.

والآية الكريمة، تشير إلى هذا المعنى، حيث تعلل الأمر بقتال المشركين بشيئين اثنين:

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

أجل، إن الدعوة إلى الإسلام، سوف توحد القلوب، وتجمع

الطاقات لتوجهها نحو هدف واحد، هو رضوان الله سبحانه. وتنقذ العقول والنفوس من التمزق بين أرباب متعددين.

وإذا ما تركت هذه الأصنام، لتحول بين الناس وبين اعتناق الإسلام، فسوف يستمر الشرك، وتتعدد النحل، وتتنوع تبعاً لذلك الميول والاتجاهات، والاعتقادات، فيحدث الصراع، وتحدث الفتن.

ولذا جاء الأمر جازماً قاطعاً، ليوفر على البشرية مزيداً من العذاب والشقاء.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.

وبعد ذلك، إذا أنتجت الوسيلة ما رسم لها من غاية، وهي رجوع الطغاة عن كيدهم، وأقلعوا عن صد الناس عن مشرق النور ومنبع الهدى، وانتهوا عن ذلك كله، فلا حرب. ولكنهم مع ذلك تحت رقابة الله، وبصره، لا تخفى عليه مما يعملون خافية.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وأما إذا لم ينتهوا عما بدأوا به، ولم يرتدعوا، فما عليكم أيها المؤمنون، إلا أن تلجوا في قتالهم. ولا تهنوا، واعلموا أن النصر سوف يكون لكم عليهم. والخزي والهزيمة سوف تكونان من نصيبهم. وكيف لا تكون هذه هي النتيجة والله مولاكم، والطاغوت مولاهم. ونعم المولى والنصير مولاكم ونصيركم، وبئس المولى والنصير مولاهم ونصيرهم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

* * *

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

تسمّى هذه الآية بآية الخمس، في سورة الأنفال.

حكم إلهي وحكمة بالغة

بعد أن بيّن الله سبحانه، حكم الغنائم في مطلع هذه السورة المباركة بصورة إجمالية، وأنها لله والرسول.

وبعد هذه الجولة الروحية الطويلة، من تذكير المسلمين بنِعم الله المتتابعة عليهم. وبيان ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من خصال. وتذكير المسلمين أيضاً، بكيد الكافرين لهم، وأساليبهم في هذا الكيد. وكيف أنه تعالى لم يتركهم وحدهم في ميدان الصراع مع المشركين.

بعد هذه الجولة الطويلة، في عالم التوجيه الروحي، والتي كانت الحكمة البالغة منها، الرجوع بالنفوس المؤمنة التي ضعُفت أمام إغراء الغنائم، وبريق الذهب. وإعادتها إلى جادة الحق والإيمان. وإزالة ما يكون قد أحدثه الحكم بانتزاع ملكية الأنفال من أيدي المؤمنين، وجعلها له سبحانه ولرسوله، من نفور واضطراب نفسيين.

بعد هذا كله، جاءت الآية المباركة لتبيّن بالتفصيل، مصارف هذه الغنائم، فقسمتها إلى خمسة أقسام. جعلت أربعةً منها للمسلمين، فكان ذلك موجباً لتأثرهم، وندمهم على ما استشعروه من غمط للحقوق، عندما انتُزعت الغنائم منهم بادئ ذي بدء. وأدركوا

الحكمة السامية من وراء ذلك. وأنها إنما كانت ترمي إلى ما ذكرنا من تصفية نفوسهم من شوائب المادة، ليكون جهادهم لعدوهم، وخروجهم من ديارهم، ذا غرض يسمو على كل القيم المادية الحقيرة، ويخلص لله وإعلاء كلمته في الأرض.

المراد بالغنيمة في اللغة

وعندما نراجع كلمات اللغويين في معنى الغنيمة، نجد أنهم ينقسمون في تعريفها إلى فريقين.

فريق يأخذ في مفهومها، عدم بذل جهد أو مشقة، كما في القاموس، حيث يقول في تعريفها: «الغُنم بالضم، والمغنم والغنيمة، ما يظفر به الإنسان ويناله ويصيبه من غير مشقة»[١].

وفريق آخر، يذهب إلى إطلاق الغنيمة والمغنم، على كل ما يحصل عليه الإنسان من مكاسب وأرباح، من دون تقييده بشيء. وذلك كما في الراغب الأصبهاني حيث يقول: «والغُنْم بالضم فالسكون، إصابته والظفر به، ثم استُعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم»[٢].

ومن ذلك يظهر، أن المقصود بالغنيمة في اللغة، هو كل ما يكسبه الإنسان ويربحه من أي طريق كان. بمشقة أو بغير مشقة، في حرب أو في سلم، من دون تقييد.

---

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي مادة غنم.

(٢) غريب القرآن مادة غنم، كما يراجع معجم ألفاظ القرآن الكريم الموضوع من قبل مجمع اللغة العربية بالقاهرة حرف الغين. ومختصر مختار الصحاح لعبد القادر الرازي باب الميم فصل الغين. وغيرها.

المراد بالغنيمة في الآية الكريمة

وقد أجمع المفسّرون[١]، على أن المراد بالغنيمة في الآية الكريمة بحكم سياقها هو ذلك الذي يظفر به المسلمون بعد قتال الكفار من أموال وسلاح وأسرى. وأنه يجب فيه الخمس لمن ذكرته الآية، ويملك المسلمون الأخماس الأربعة الباقية.

خلاف الفقهاء حول خصوص الحكم في الآية وعمومه

وقد اختلفت كلمات فقهاء الإسلام، حول خصوص الحكم الوارد في الآية ـ وهو وجوب الخمس ـ فيما ظفر به المسلمون مجتمعين أو منفردين من الكافرين بواسطة القتال والحرب. أو أن وجوبه عام في كل ما يربحه المسلم من المشرك أو غيره، في حالتي السلم والحرب؟

رأي جمهور الفقهاء

ذهب جمهور الفقهاء من الأحناف، والشافعية، والمالكية، والحنابلة، إلى تخصيص الحكم، وهو وجوب إخراج الخمس، بخصوص الغنائم التي يظفر بها المسلمون من الكفار بعد قتال، مع خلاف بينهم في الأرض المفتوحة عنوة[٢]، وذلك بعد أن بنوا على أن الغنيمة مأخوذ في مفهومها أن تكون بعد حرب وقتال.

---

(١) راجع تفسير الميزان للطباطبائي ١ ـ ٨٩ وتفسير الرازي ١٥/ ١٦٤ وما بعدها وتفسير المنار لرضا ١٠/٦ وما بعدها.

(٢) يراجع البداية والنهاية لابن رشد ١/ ٤١٢ وما بعدها وكفاية الطالب للشاذلي وحاشية العدوي ٢/ ٧ وما بعدها. والدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ٣/٢٢٩.

جاء في الدر المختار ورد المحتار عليه للأحناف «الغنيمة ما نيل من الكفار عنوةً والحرب قائمة فتخمس وباقيها للغانمين»[١].

وجاء في المغني والشرح الكبير للحنابلة «والغنيمة ما أخذ بالقهر والقتال من الكفار»[٢].

رأي فقهاء الزيدية

وأكثر فقهاء الزيدية[٣]، وإن ذهبوا إلى نفس ما ذهب إليه جمهور الفقهاء ممن ذكرنا من أن الغنيمة، هي كل ما ظفر به المسلمون بقتال من المشركين أو بقهر. ولكنهم في نفس الوقت لم يخصّصوا هذا الحكم ـ وهو وجوب إخراج الخمس بغنائم الحرب، بل جعلوه فيها وفي نوعين آخرين[٤].

الأول: ما أُخذ من ظاهر البر والبحر أو استُخرج من باطنهما.

الثاني: الخراج والمعاملة وما يؤخذ من أهل الذمة.

رأي فقهاء الإمامية الاثني عشرية

وأما فقهاء الإمامية الاثني عشرية، وبعض فقهاء الزيدية[٥]، فقد ذهبوا، إلى أن الخمس واجب في كل فائدة مكتسبة، سواء اكتُسبت برأس مال كأرباح التجارات، أو بغيره كما يستفاد من دار الحرب أو ما يحصل من حيازة المباحات[٦].

---

(١) لابن عابدين ٣/ ٢٢٨.

(٢) لابن قدامة ٧/ ٢٩٧ وما بعدها. كما يراجع للمالكية بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٤٠١ وما بعدها. ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وحاشية العلامة العدوي عليه ٢/ ٧.

(٣) البحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٠٦.

(٤) نفس المصدر ٣/ ٢٠٩ وما بعدها.

(٥) نفس المصدر ٣/ ٢١٤.

(٦) جواهر الكلام على شرائع الإسلام للشيخ محمد حسن ٢١/ ١٤٧.

هذا إضافة إلى عدة أمور أخرى هي[١]:

١ ـ المعادن.

٢ ـ الكنوز.

٣ ـ ما يُخرج من البحر بالغوص.

٤ ـ ما يفضل عن مؤونة السنة على الاقتصاد له ولعياله من أرباح التجارات والصناعات والزراعات.

٥ ـ الأرض التي اشتراها الذمي من مسلم.

٦ ـ الحلال الذي اختلط بالحرام ولا يعرف مقداره ولا صاحبه.

اختيار واستدلال

ونحن نختار ما ذهب إليه فقهاء الإمامية وبعض فقهاء الزيدية، من أن الخمس يجب في كل فائدة يستفيدها الإنسان في حياته، لا فرق في ذلك بين أن تأتي عن طريق الحرب والقتال مع الكافرين، أوْ لا عن طريق قتال أصلًا، من كافر أو غيره. وذلك لعدة أمور:

أولاً: لأن لفظ الغنيمة في اللغة، هو مطلق الفائدة والكسب من دون تقييد.

ثانياً: إن هنالك نصوصاً كثيرة وردت بطرق متعددة، مُبيِّنةً بوضوح، موارد وجوب الخمس وموضوعه. وإنه إضافة إلى مكتسبات الحرب مع الكافرين وكل مكتسب، ما ذكرناه آنفاً، من الأمور الستة.

---

(١) جواهر الكلام على شرائع الإسلام للشيخ محمد حسن ١٦/١٣ وما بعدها.

وذلك كقوله ﷺ عندما سُئِل عن الخمس فقال: «في الرِّكاز الخمس» والركاز، هو الكنز الدفين، والمعادن.

وكذلك ما ورد في الأحاديث الشريفة، من وجوب تخميس كل ما استخرج من البحر كاللؤلؤ والعنبر وغيرهما، إلى آخر تلك الروايات[١].

ثالثاً: إن الحكم بوجوب إخراج الخمس في الآية، وإن كان وارداً في مورد خاص وهو غنائم بدر، إلا أن المعلوم والمتفق عليه بين العلماء في علم أصول الفقه، أن المورد لا يُخَصِّص الوارد بحال.

رابعاً: إن الذهاب إلى قصر وجوب إخراج الخمس، على خصوص غنائم دار الحرب، لا ينسجم مع خلود الإسلام وبقائه من ناحية عملية، واستمرار الدولة الإسلامية زمن قيامها، في تحمل الأعباء الضخمة، التي تترتب عليها اتجاه الأمة في الداخل والخارج وذلك من وجوه عدَّة أهمها:

١ ـ إن الحروب قد أغلقت أكثر أبوابها، وانحصرت، وانحسر ظلها، فانحسر بذلك ما قد يترتب عليها، في حال انتصار المسلمين من غنائم.

٢ ـ إن نتائج هذه الحروب، ليست مضمونة إلى جانب

---

(١) راجع في كل ذلك كتاب وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة للحر العاملي، المجلد السادس/ كتاب الخمس، فصل أبواب ما يجب فيه الخمس. وكتاب البحر الزخار لمحمد بن المرتضى وجواهر الأخبار والآثار المطبوع بهامشه لمحمد بن يحيى الصعدي الجزء ٣/ ٢١١ وما بعدها.

المسلمين في كثير من الأحيان، بل بالعكس، فقد تكون نتائجها في غير صالحهم، فتكون الغنائم من نصيب أعداء الإسلام.

وفي كلتا الحالتين، تكون النتيجة ـ على القول بالتخصيص ـ نضوب موارد الدولة الإسلامية، أو تقصيرها عن تغطية أعباء الأمة ومصارفها كما سبق وقلت.

ولذا كان الحكم بعموم وجوب الخمس في كل فائدة يحصل عليها مسلم. كما تقدم عرضه، مع أدلته، أنسب للاقتصاد الإسلامي، وأليق بوضع الأمة المسلمة.

الأصناف المستحقة للخمس

وقد اختلفت كلمات الفقهاء هنا، في كيفية قسمة الخمس، تبعاً لاختلاف أنظارهم واجتهاداتهم بالنسبة للأصناف التي تستحقه.

ويمكن حصر هذه الأقوال في قولين رئيسيين:

القول الأول: إنه يقسَّم على خمسة أسهم.

وقد اختار هذا القول: جمهور الأحناف[١]، والشافعي[٢]، والحنابلة[٣].

وقد جعل أصحاب هذا القول، سهم الله وسهم رسوله ﷺ سهماً واحداً.

---

(١) الدر المختار ورد المحتار عليه لابن عابدين ٣/٣٢٦.
(٢) إعانة الطالبين للسيد البكري الدمياطي ٢/٢٠٦.
(٣) المغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ٧/٣٠١.

حجة هذا القول:

واحتج من ذهب إلى ذلك بأمرين:

الأول: أنه لما كان من غير المعقول، أن يكون لله نصيب في الخمس، حيث إن الأشياء كلها ملك له سبحانه، فلا بد وأن يُحمل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ على بعض الوجوه[١].

منها: احتمال أن يكون المقصود منه، افتتاح الكلام بذكر الله على سبيل التعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

ومنها: إن إضافة الخمس إلى الله، تحتمل أن تكون، باعتبار كونه مصروفاً إلى وجوه القُرب التي هي لله تبارك وتعالى.

ومنها: احتمال أن يكون لخلوصه لله، بخروجه عن تصرف الغانمين، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾.

الثاني: ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال في غنائم خيبر: مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم[٢].

تنبيه

ولا بد من التنبيه هنا، على أن بعض من يذهب إلى هذا القول الأول، إنما يقول بتقسيم الخمس خمسة أجزاء في حياة النبي ﷺ. أما بعد وفاته ﷺ، فقد ذهب أبو حنيفة ومن تابعه من فقهاء الأحناف[٣]، إلى وجوب تقسيمه إلى ثلاثة أقسام فقط، قسم لليتامى،

---

(١) يراجع في ذلك كله بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٢٤ وتفسير الرازي ١٥/ ١٦٦.

(٢) الرازي في تفسيره ١٥/ ١٦٥.

(٣) يراجع بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٢٥ والرازي في تفسيره ١٥/ ١٦٥.

وقسم للمساكين، وقسم لأبناء السبيل. وأسقطوا سهم رسول الله ﷺ بسبب موته، وسهم ذوي القربى.

القول الثاني(١)

وهو ما ذهب إليه فقهاء الإمامية الاثني عشرية بالاجماع، وفقهاء الزيدية. وطاووس، وأبو العالية.

والخمس على رأي هؤلاء، يُقسَّم ستة أقسام لا خمسة ولا أقل ولا أكثر سهم لله، وسهم لرسوله، وسهم لذوي القربى، والثلاثة الباقية للأصناف الثلاثة اليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل.

اختيار واستدلال ونقاش

ونحن نختار في هذه المسألة، هذا القول الثاني، وهو وجوب تقسيم الخمس إلى ستة أقسام وذلك لعدة أمور:

الأول: إن الآية الكريمة ظاهرة في أن الخمس يقسَّم على ستة لا خمسة ولا أقل. وظاهر القرآن ـ كما هو مقرر في محله من علم أصول الفقه(٢) حجة، لا يصار إلى غيرها إلا بدليل يصرف ذلك الظاهر عما هو ظاهر فيه.

ومن الغريب حقاً، أن ابن قدامة المقدسي(٣)، يشنُّ حرباً شعواء على أبي حنيفة، الذي يقسّم الخمس إلى ثلاثة أقسام فقط، متهماً إياه

---

(١) يراجع جواهر الكلام للشيخ محمد حسن ١٦/ ٣٤ وما بعدها، والبحر الزخار لابن المرتضى ٣/ ٢٢٤.

(٢) راجع كفاية الأصول للمحقق الخراساني المطبوع مع حقائق الأصول للسيد محسن الحكيم المجلد الثاني/ ٨٣ وما بعدها.

(٣) يراجع المغني والشرح الكبير ٧/ ٣٠١.

بأنه يخالف ظاهر الآية الكريمة، في حين نراه يقع في نفس الخطأ، عندما يقسّم الخمس إلى خمسة أقسام مخالفاً بذلك هذا الظاهر أيضاً؟

الثاني: إن ما ذكروه في توجيه الآية الكريمة، ونصوا عليه، كما بدا ذلك واضحاً من كلماتهم التي أوردناها، كتعبيراتهم بلفظ (يحتمل) في كل وجه من الوجوه الموردة، ولفظ (احتمال)، إن هذه الوجوه، ما هي إلا احتمالات وتخمينات وتكهنّات. ومثل هذا محرم في تناول كلمات الله من غير دليل، وقول بغير علم.

الثالث: إن كون هذه الوجوه احتمالات، يسقطها عن الدليلية، انسجاماً مع القاعدة الأصولية «عند الاحتمال يبطل الاستدلال».

الرابع: إن الأصل الذي بنوا عليه ما ذهبوا إليه، وهو عدم تعقُّلهم ملكية الله لجزء من الخمس، باعتبار أن له ملك السماوات والأرض، غريب حقاً، إذ كيف يمكننا أن نتصور أن يملك الله السماوات والأرض ومن فيهن، وما بينهن، ولا نتصور قابليته لملكية قبضة من المال!؟؟ ومن الواضح، أن الذي يقول من الفقهاء، بملكية الله سبحانه لجزء من الخمس، لا يدّعي أن الله بحاجة إليه لشراء خبز وحطب وماء وكسوة، لأنه تعالى منزَّه عن هذا كله. وإنما يرى أنه سبحانه، المالك الجوهري والحقيقي، تركه لوليّ الأمر. الذي هو النبي ﷺ والخلفاء من بعده، ليصرفوه في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض، ولينفقوه فيما يؤدي إلى هذا السبيل، وعلى هذا يحمل ما ورد في السنة الشريفة، من فعله ﷺ عن أبي العالية، حيث «كان يجاء بالغنيمة، فيعزل منها الخمس، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله، فما قبض عليه من شيء، جعله للكعبة، فهو الذي يسمّى لله».

وليس ذلك، إلا لما قلناه، إذ إن الكعبة من شعائر الله، كالصفا والمروة وغيرهما. وعندئذٍ يمكننا أن نلغي خصوصية الملكية في هذا الفعل، لنتعدّى منها إلى كل ما صح أن يكون شعيرة من شعائر الله، أو إعلاءً لشعيرةٍ من شعائره. أو خدمة لمصلحة من مصالح عقيدته.

الخامس: إن ما ذكروه من الأمور الآنفة، كوجوه وتوجيهات لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ ما هي إلّا استحسانات لا يمكن الركون أو المصير إليها، لأن الاستحسان، بناءً على تعريفه[١] بأنه إعمال نظر، استناداً إلى انقداحات نفسية لا يمكن التعبير عنها، يجيز لأي شخص أن يفتي بما يراه حسناً في نظره. وعندئذٍ، يؤول الأمر إلى وجود أحكام متعارضة، من دون قيود أو ضوابط. وهذا مما لا يمكن قبوله أو القول به. ولعلّه لذلك قال الإمام الشافعي: «من استحسن فقد شرَّع»[٢].

السادس: إن ما استدلوا به من فعل النبي ﷺ، يوم فتح خيبر، في حديث عن سعيد، من أن النبي ﷺ أخذ وبرةً من بعير ثم قال: لا يحل لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم. فلا يمكن الاطمئنان إليه، ولا الاستدلال به لعدة وجوه، أهمها:

أولاً: عدم ثبوت صحة سند الحديث، بل غموض هذا السند. إذ إنهم يروونه عن شخص مهمل، فيقولون: رواه سعيد[٣]. فمن هو سعيد هذا يا ترى؟ هل هو سعيد بن المسيّب؟أو سعيد بن جبير؟ أو

(١) مصادر التشريع فيما لا نص فيه لعبد الوهاب خلاّف ٥٨.
(٢) فلسفة التشريع في الإسلام للأستاذ صبحي المحمصاني ١٧٤.
(٣) راجع الشرح الكبير المطبوع مع المغني لابن قدامة المقدسي الحنبلي ٣٠٢/٧.

سعيد آخر غيرهما؟ ومع غموض حال الراوي، وعدم وضوح حال سند الرواية، حيث تروى في بعض المصادر[١]، مرسلةً، فكيف يُعمل بها ويُرْكن إليها؟

ثانياً: إن الرواية ـ مع التنزّل عما تقدم ـ هي مظنونة الصدور، والآية الكريمة مقطوعة الصدور، وهي نص في أن الخمس يقسَّم على ستة أسهم. فلا يجوز أن نرفع اليد عما هو قطعي بما هو ظنيّ.

ثالثاً: على تقدير صحة فعله ﷺ يوم خيبر، كما تقول الرواية، يرد احتمال أنه، إنما فعل ذلك، في هذه الواقعة بالذات لمصلحة اطلع عليها، وظروف استثنائية أحاطت بها بالخصوص.

أو إنه «إنما فعل ذلك، لا باعتباره مبلغاً للأحكام الشرعية العامة، وإنما بوصفه وليّ الأمر، المسؤول عن تنظيم الحياة للمجتمع، وتوجيهها توجيهاً لا يتعارض مع المصلحة العامة التي يقدرها». ومع الاحتمال يبطل الاستدلال.

خلاصة البحث

وعلى ضوء كل ما تقدم، يتضح أن الخمس بمقتضى صريح الآية الكريمة، والسنة الشريفة، إنما يقسَّم ستة أقسام، لا أقل ولا أكثر.

المستحقون للخمس

وكما وقع الخلاف بين العلماء، حول خصوص حكم وجوب

(١) راجع تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا ١٠/١٨.

الخمس في الغنائم، أو عمومه لكل مكسب كما تقدم، فقد اختلفوا أيضاً في المستحقين لهذا الخمس من الأصناف.

ما نفهمه من الآية

والآية الكريمة، ظاهرة ـ كما اتضح في المسألة السابقة ـ في أن الخمس يُقسَّم على ستة أقسام: سهم لله، وسهم لرسوله، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

ومن الواضح، أن سهم الله سبحانه ـ بعد أن ناقشنا فيما تقدم الرأي القائل بعدم تعقله ـ هو تلقائياً للنبي ﷺ بالوراثة، باعتباره ولي الأمر الذي لا ينازعه منازع ولا يعارضه معارض، وبهذا يجتمع للرسول ﷺ سهمان: سهم الله سبحانه، وسهمه هو بنص الآية.

ويؤيد هذا ويشير إليه، ما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال «إن الله تعالى لم يسأل خلقه مما في أيديهم قرضاً من حاجة به إلى ذلك. وما كان لله من حق فهو لِوَلِّيه»[1].

المراد بذي القربى

والمراد بذي القربى في الآية الكريمة، الإمام المعصوم، باعتباره وليّ الأمر بعد الرسول ﷺ.

وعلى هذا، فالإمام المعصوم من نسل علي وفاطمة عليهما السلام، بلحاظ انحصار قرابة النبي ﷺ فيه منهما عليهما السلام يستحق ثلاثة أسهم من الستة، سهمين بالوراثة، وهما سهم الله وسهم الرسول، وسهماً بالأصالة.

(١) أصول الكافي للشيخ الكليني ١/ ٥٣٧.

وقد وردت في ذلك روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[(١)].

والذي يؤيد ما ذهبنا إليه، من أن المراد من لفظ «ذي القربى» الوارد في الآية الكريمة هو الإمام المعصوم باعتباره ولي الأمر بعد النبي صلى الله عليه وآله، هو وروده بلفظ المفرد.

الأقوال في المسالة

ومع قطع النظر عن الصيغة التي ورد بها اللفظ في الآية الكريمة، فقد وقع الخلاف بين علماء المسلمين وفقهائهم، حول المراد بذوي القربى، بعد إجماعهم على أن المراد بهم بشكل عام، قرابة النبي صلى الله عليه وآله. وذلك على ثلاثة أقوال[(٢)]:

القول الأول ودليله

والقول الأول، يعتبر أن قرابة النبي صلى الله عليه وآله، هي قريش كلها. وقد استدلوا له بفعله صلى الله عليه وآله يوم نزلت عليه الآية الكريمة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[(٣)].

تفنيد

وهذا الرأي مردود من وجهة نظرنا لأمرين:

الأول: إن العشيرة شيء، والقرابة شيء آخر، وبمعنى أوضح مفهوم العشيرة أوسع من مفهوم القرابة كما هو واضح، إذ قد يكون إنسان من العشيرة ولا يكون قرابة.

---

(١) راجع وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة للشيخ الحر العاملي باب ١ من أبواب قسمة الخمس.

(٢) يراجع تفسير القرطبي ٨/١٢.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

الثاني: ما أخرجه الطبراني وابن مردويه، عن أبي أمامة، قال: لما نزلت، وأنذر عشيرتك الأقربين، جمع رسول الله بني هاشم، فأجلسهم على الباب، وجمع نساءه وأهله، فأجلسهم في البيت. الخ الرواية[١].

وجهة نظر

والذي يبدو لي، أنه منسجم مع منطوق الآية الكريمة، أن المراد بالأقربين الفئة القريبة من حيث سهولة المخاطبة والتلاقي، في مقابل الأبعدين من حيث المكان، والذين لا يتيسَّر اللقاء معهم، ولا يمكن مخاطبتهم.

القول الثاني ودليله

وهذا القول، هو عبارة عن تفسير قرابة النبي ﷺ ببني هاشم وبني المطلب. حيث اختاره الشافعي، وأحمد، وقتادة، وأبو ثور، وغيرهم.

واستدلوا له، بما ورد عن رسول الله ﷺ، من أنه قسَّم سهم ذوي القربى بين هذين الصنفين، بني هاشم وبني المطلب، وقال عندما طالبه البعض من بني عبد شمس وبني نوفل في ذلك، ولِمَ حرمهم، مع أنهم وهم بمنزلة واحدة: «لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام، وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد وشبك بين أصابعه»[٢].

---

(١) يراجع تفسير الميزان للطباطبائي ١٥/ ٣٣٤.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٢.

نقاش وتفنيد

والاستدلال بهذه الرواية لهذا القول مردود، إذ إن إعطاءه ﷺ نصيباً لبني المطلب من خمس خيبر ـ على تقدير صحة الحادثة ـ لم يكن إلا تفضُّلًا منه ﷺ، لا بسبب القرابة التي هي موضوع البحث، وإلا لأعطى بني نوفل وبني عبد شمس.

ويدل على ذلك، أن جبيراً وعثمان، جاءا إليه ﷺ وبيدهما حجة واحدة، احتجا بها بين يديه ﷺ وهي القرابة، وأنهما وبني المطلب بمنزلة واحدة منه ﷺ فيها، حيث قالا: «فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة».

والاعتراض على ذلك، بأن في بني نوفل وبني عبد شمس مانعاً، وهو النصرة المعروفة له ولبني هاشم في الشعب، حيث وجدت في بني المطلب، يؤكد معنى التفضل في إعطائه ﷺ، إذ تكون النصرة سبب مثل هذا التفضل على بني المطلب في مثل ذلك الإعطاء، ومانعاً من حصوله بالنسبة للآخرين.

ولا أقلّ من احتمال أن يكون إعطاؤه لبني المطلب تفضلًا لا استحقاقاً. وعند الاحتمال يبطل الاستدلال.

القول الثالث

وهو أن قرابة الرسول ﷺ المستحقين للخمس، هم بنو هاشم خاصة.

واختار هذا القول، الإمامية الاثنا عشرية بالإجماع[١]، والزيدية[٢]، ومجاهد، ومالك، والثوري، والأوزاعي، وغيرهم[٣].

اختيار واستدلال

ونحن ـ بعد وضوح فساد القولين السابقين ـ كما بيَّنا، نختار هذا القول الأخير وذلك لعدة وجوه:

أولاً: الروايات الواردة صريحة في ذلك:

منها: ما رواه في الوسائل، بسند متصل بالإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حيث قال عندما سئل عن آية الخمس: «وخمس يقسّم فيه سهم رسول الله صلى الله عليه وآله، ونحن نقول هو لنا، والناس يقولون: ليس لكم». الحديث[٤].

تعليق وتوضيح:

ومن الواضح، أن الإمام الصادق عليه السلام هو ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي ابن الحسين السجاد، ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم. وعندما نراه يقول في الرواية المتقدمة هو لنا، إنما يقصد الهاشميين دون غيرهم.

ومنها: ما أخرجه أبو داوود، ورواه أحمد في مسنده، عن الإمام علي عليه السلام قال: «اجتمعت أنا والعباس وفاطمة، وزيد بن حارثة عند

(١) يراجع جواهر الكلام للشيخ محمد حسن ١٦/ ١٠٤ وما بعدها.

(٢) راجع البحر الزخار لابن المرتضى ٣/ ٢٢٤ وما بعدها.

(٣) تفسير القرطبي ٨/ ١٢ وما بعدها.

(٤) وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة للشيخ الحر العاملي ٦/ ٣٦٢.

النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن توليني حقنا من هذا الخمس في كتاب الله تعالى، فأقسمه في حياتك، كيلا ينازعني أحد بعدك فافعل. قال: ففعل ذلك، فقسَّمتُه حياة رسول الله ﷺ»[1].

تعقيب وتوضيح:

والمتأمل لهذا الحديث، يجد التركيز من الإمام عليه السلام أمام النبي ﷺ على كلمة «حقنا»، الدالة صراحة على أن الخمس، إنما هو لعلي وأهل بيته من الهاشميين خاصة.

وعبارة «كيلا ينازعني أحد بعدك» أصرح في الدلالة على ما ذكرت.

ولعله عليه السلام كان يشعر بأنه بعد وفاة النبي ﷺ، كان في الناس من غير الهاشميين، من يطمح بشره، إلى الاستيلاء على هذا الحق، وهكذا كان.

ثانياً: إنه من الثابت عند فقهاء الإسلام، أن الله سبحانه، حرَّم على رسوله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام الصدقات، وهي أموال الزكاة. ومن الواضح، أن المقصود بأهل بيته: علي وفاطمة وأولادهما بنص حديث الكساء[2]، وغيره من الأحاديث الصحيحة.

ومن الثابت عندهم أيضاً، أنه سبحانه، إنما عوضهم عن ذلك بالخمس، فيكون الخمس لهم، ومن انتسب إليهم خاصة.

---

(١) راجع إضافة إلى مسندي أحمد وأبي داوود كتاب جواهر الأخبار والآثار المطبوع بهامش البحر الزخار لابن المرتضى ٣/ ٢٢٤ ـ ونيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٧٤.

(٢) يراجع الصواعق المحرقة لابن حجر العسقلاني الباب/ ١١ ـ الفصل الأول.

ثالثاً: إن هنا قدراً متيقناً من ذوي القربى، هو الهاشميون، وزائداً مشكوكاً وهو من عداهم من المطلبيين، بمعنى أنه لم يختلف اثنان من علماء الإسلام، على كون الهاشميين هم موضوع استحقاق الخمس. في حين اختلفوا فيمن عداهم، والقاعدة المجمع عليها هنا بينهم، هو الأخذ بالقدر المتيقن دون المشكوك.

موقف وتعليق

وقد ذهب أبو بكر وعمر، بعد وفاة النبي ﷺ، إلى حرمان قرابة رسول الله ﷺ من سهمهم الذي جعله الله بنص الكتاب الحكيم. وتابعهما على ذلك كثير من فقهاء السنة. مع إجماع المسلمين، على أن النبي ﷺ، توفي وهو على ما شرعه الله سبحانه، من إيصاله السهم إلى قرابته. «ولم يعهد بتغيير ذلك إلى أحد»[١].

ونحن لن نورد هنا، إلا ما أورده بعض فقهاء الحنابلة، وغيرهم، تعليقاً على هذا الموقف من الخليفتين ومن تابعهما من فقهاء أهل السنّة كأبي حنيفة وغيره.

يقول في المغني والشرح الكبير[٢]: «وما قاله أبو حنيفة، فمخالف لظاهر الآية. فإن الله تعالى، سمّى لرسوله وقرابته شيئاً، وجعل لهما في الخمس حقاً، كما سمّى للثلاثة الأصناف الباقية. فمن خالف ذلك، فقد خالف نصَّ الكتاب.

وأما حمل أبي بكر وعمر (رض) على سهم ذي القربى في سبيل

---

(١) يراجع النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين صفحة ٢٦.

(٢) راجع المغني والشرح الكبير عليه لابن قدامة ٧/ ٣٠١ ـ ٣٠٢. كما يراجع البحر الزخار لابن المرتضى ٣/ ٢٢٤ وما بعدها وجواهر الكلام للشيخ محمد حسن النجفي ١٦/ ٨٧.

الله، فقد ذُكِرَ لأحمد فسكت وحرَّك رأسه، ولم يذهب إليه. ورأى أن قول ابن عباس ومن وافقه، أولى، لموافقته لكتاب الله، وسنّة رسول الله ﷺ. فإن ابن عباس لما سُئِل عن سهم ذي القربى فقال: إنا كنا نزعم أنه لنا، فأبى ذلك علينا قومنا، ولعله أراد بقوله: فأبى ذلك علينا قومنا، فعل أبي بكر وعمر (رض)، في حملهما عليه في سبيل الله، ومن تبعهما على ذلك. ومتى اختلف الصحابة، وكان قول بعضهم يوافق الكتاب والسنّة، كان أولى. وقول ابن عباس موافق للكتاب والسنّة».

المراد باليتامى

واليتيم لغة، هو كل طفل فقد أباه خاصة.

ولا يقال، لمن فقد أمه من بني الإنسان أو غيره يتيم، بل يقال له: عجيّ. حيث يربّى بتغذيته بلبن غيرها.

كما يقال لفاقد أبويه معاً: لطيم.

ولم يرد اصطلاح خاص للمتشرعة في اليتيم، ولذا فالمراد به عندهم معناه اللغوي ليس إلا.

وعلى هذا، فالمراد باليتامى في الآية الكريمة ـ وبلحاظ ما تقدم من بحوث ـ خصوص أطفال بني هاشم، ممن فقدوا آباءهم، الذين انتسبوا من طرفهم إلى هاشم جد النبي ﷺ.

المراد بالمساكين

والمسكين لغةً، هو «المحتاج الذي من شأنه أن تسكنه الحاجة عما ينهض به الغنى»[١].

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ٤/٥٤٣.

الفرق بين الفقير والمسكين

وقد يفرق بين الفقير والمسكين، بأن الفقير في اصطلاح الفقهاء، هو «من لا يملك قوت سنته لنفسه وعائلته، بالفعل أو بالقوة»[١].

في حين أن المسكين أسوأ حالًا من الفقير، كمن لا يملك قوته اليومي[٢].

ولا بد من التنبيه[٣]، على أن هذا الفرق، إنما يجعل الفقير والمسكين صنفين في باب الزكاة. أما في الخمس فهما صنف واحد.

وبناء عليه، فالمراد بالمساكين ـ جمع مسكين ـ في الآية الكريمة ـ وبلحاظ ما تقدم من بحوث أيضاً ـ خصوص ذوي الحاجة والمسكنة من بني هاشم.

المراد بأبناء السبيل

وابن السبيل[٤]، هو المسافر الذي نفدت نفقته، أو تلفت راحلته ولا يتمكن معه من الرجوع إلى بلده، وإن كان غنياً فيه.

وإنما قيل له ابن سبيل، لأن السبيل أخرجه إلى هذا المستقر، كما أخرجه أبوه إلى مستقره[٥].

---

(١) المسائل المنتخبة للإمام الخوئي، ص١٧٣.

(٢) نفس المصدر.

(٣) راجع المغني والشرح الكبير عليه لابن قدامة ٧/ ٣١٣ وجواهر الكلام للشيخ محمد حسن ١٥/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

(٤) المسائل المنتخبة للإمام الخوئي، ص١٧٥.

(٥) راجع مجمع البيان للشيخ الطبرسي ٤/ ٥٣٤.

وعليه، فالمراد بأبناء السبيل الوارد بصيغة المفرد في الآية الكريمة، خصوص المسافرين، الذين لا يملكون في بلد السفر، ما يمكّنهم من رجوعهم إلى بلدهم الأصلي، من زادٍ وراحلة ونفقة، وكانوا ينتسبون إلى هاشم جد النبي ﷺ بنسب صحيح.

وقفة أخيرة

ولا بد من التنبيه هنا أخيراً، على أن هذه الأصناف الأخيرة من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، إنما يعطون من الخمس بمقدار ما يرفع فقرهم وما زاد يرد إلى وليّ الأمر يتصرف فيه فيما يعود على الأمة الإسلامية بالخير والنفع بحسب ما يراه مناسباً.

* * *

حكم الأخماس الأربعة الباقية

كان هذا الكلام كله في حكم خمس الغنائم مطلقاً، فما هو حكم الأربعة أخماس الباقية من غنائم دار الحرب؟

الظاهر أن حكم الأربعة أخماس الباقية، مجمع عليه بين فقهاء المسلمين وهو أنها ملك للغانمين[1]. وإن وجد بينهم اختلاف طفيف في كيفية تقسيمها عليهم.

فبينما نراهم اتفقوا[2]، على أن الراجل في المعركة من المسلمين، يأخذ سهماً واحداً من الغنيمة، نجدهم قد اختلفوا في حصة الفارس من المقاتلين في الغنيمة.

---

(١) راجع البحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٣٦ والمغني والشرح الكبير لابن قدامة ٧/ ٣١٢ وشرائع الإسلام للحلي ١/ ٣٢٠ وبدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٢٦.

(٢) المغني لابن قدامة ٧/ ٣١٢ وبدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٢٦ وشرائع الإسلام للحلي ١/ ٣٢٤ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٣٦.

فذهب الحنابلة[١]، والشافعي وأبو يوسف ومحمد من الأحناف[٢]، والناصر ويحيى وغيرهما من الزيدية[٣]، والمالكية[٤]، إلى أن الفارس يسهم له ثلاثة أسهم، سهم له، وسهمان لفرسه.

في حين ذهب الإمامية[٥]، وأبو حنيفة[٦]، إلى أنه يسهم له سهمان فقط.

وقد أجمعوا على أنه لا يسهم لغير الخيل من الدواب، وإن حكي قول عن أحمد[٧]، في أن البعير يسهم له سهم، جاء في المغني والشرح الكبير[٨] «واختار أبو الخطاب أنه ـ أي البعير ـ لا يسهم له، وهو قول أكثر الفقهاء، قال ابن المنذر: أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن من غزا على بعير فله سهم راجل. كذلك قال الحسن، ومكحول، والثوري، والشافعي، وأصحاب الرأي».

وجاء في البحر الزخار للزيدية «ولا يسهم لغير الخيل إجماعاً»[٩].

وجاء في شرائع الإسلام للإمامية «ولا يسهم للإبل والبغال والحمير»[١٠].

---

(١) المغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ٧/ ٣١٢.
(٢) بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٢٦.
(٣) البحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٣٧.
(٤) راجع رسالة ابن أبي زيد القيرواني وحاشية كفاية الطالب عليه ٢/ ٩ وما بعدها.
(٥) راجع شرائع الإسلام للحلي ١/ ٣٢٤.
(٦) راجع كشاف القناع ٣/ ٨٨ وبدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٢٦.
(٧) لابن قدامة الحنبلي ١٠/ ٤٤٨.
(٨) نفس المصدر.
(٩) لابن المرتضى ٦/ ٤٣٧.
(١٠) للعلامة الحلي ١/ ٣٢٤.

وجاء في كفاية الطالب للمالكية «واحترز بالفرس عن البعير والبغل والحمار فإنه لا يسهم لها»[١].

كما ذهب الفقهاء[٢] في القول الأقوى، إلى أنه لا يسهم للخيل، إذا كانت هرمةً أو ضعيفة لا تقوى بصاحبها على القتال. ولا للصغير الذي لا يصلح للركوب.

وأكثر الفقهاء[٣]، على أنه لا يسهم للمقاتل على أكثر من فرسين، وإن كان عنده عشرة أفراس. وذلك لأن حاجته ـ على الأكثر ـ إنما تُسَدُّ بالفرس الثاني دون ما زاد.

وهنالك اختلافات طفيفة أخرى بين الفقهاء في هذا الموضوع، تراجع في مطولات الفقه.

تفريعات:

الأول: ذهب الفقهاء[٤]، إلى أنه لا يجوز لأحد من الغانمين التصرف في شيء من الغنائم قبل القسمة والاختصاص، إلا ما يضطرون إلى تناوله كالطعام وعلف الدابة.

---

(١) لعلي أبي الحسن الشاذلي ٢/٩.

(٢) راجع شرائع الإسلام للحلي ١/٣٢٤ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/٤٣٨ والمغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ١٠/٤٤٧ وكشاف القناع ٣/٨٢ وحاشية العدوي على رسالة القيرواني ٢/٩.

(٣) يراجع بدائع الصنائع للكاساني ٧/١٢٦ وشرائع الإسلام للحلي ١/٣٢٤ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/٤٣٨ والمغني والشرح الكبير لابن قدامة المقدسي ١٠/٤٤٧.

(٤) راجع شرائع الإسلام للمحقق الحلي ١/٣٢٠. وبدائع الصنائع للكاساني ٧/١٢٣ ـ ١٢٤ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٢٩.

الثاني: ذهب بعض الفقهاء[١]، إلى أن ما لا يصح تملكه للمسلم كالخمر والخنزير، لا يدخل في الغنيمة، بل ينبغي إتلافه.

الثالث: ذهب كثير من الفقهاء[٢]، إلى أنه لا يسهم للنساء والعبيد، والكفار الذين قاتلوا بإذن الإمام إلى جانب المسلمين، بل يرضخ لهم، والرضخ هو العطاء الذي لا يبلغ سهم من يُعطاه لو كان مستحقاً للسهم.

الرابع: ذهب فقهاء الإمامية[٣]، إلى أن الطفل حتى ولو لم يحتمل قتالًا يسهم له، بل ذهبوا إلى وجوب الإسهام له لو ولد بعد الحيازة للغنائم وقبل قسمتها.

الخامس: ذهب بعض الفقهاء[٤]، إلى عدم جواز تقسيم الإمام الغنائم في دار الحرب بل لا بد من تأخيرها إلى دار الإسلام. وأما من قال بالجواز، فبعضهم[٥] جوّزه على كراهية. بينما البعض الآخر[٦] رأى الكراهية في عدم قسمتها في دار الحرب إلا لعذر، وهذا الأخير في نظري هو الرأي الصحيح لاعتضاده بفعل النبي ﷺ في أكثر حروبه وغزواته كما وردت به الأخبار[٧].

---

(١) راجع شرائع الإسلام للحلي ١/ ٣٢١ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٢٩.
(٢) البحر الزخار ٦/٤٣٦، وشرائع الإسلام ١/ ٣٢٤ وحاشية الصعيدي على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ٢/ ١٠.
(٣) شرائع الإسلام للحلي ١/ ٣٢٤.
(٤) بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٢١ والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٣٨.
(٥) البحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٣٨.
(٦) شرائع الإسلام للمحقق الحلي ١/ ٣٢٥.
(٧) راجع جواهر الأخبار والآثار المطبوع بهامش البحر الزخار لمحمد بن يحيى الصعدي ٦/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩ كما يراجع سنن البيهقي ٩/ ٥٦ ـ ٥٧.

السادس: كان الكلام المتقدم بالنسبة لوجوب إخراج خمس الغنائم مقتصراً على ما ينقل من ذهب وفضة وأمتعة.

فما هو الحكم بالنسبة لشيئين آخرين:

١ ـ النساء والأطفال وما تابعهم من عبيد... والرجال.

٢ ـ ما لا ينقل كالأرض والدور والعقارات.

أما بالنسبة للنساء والذراري وعبيدهم فقد ذهب الفقهاء، إلى أنهم يُسترقون، وهم ملك للغانمين خاصة بعد إخراج الخمس[١].

وأما بالنسبة للرجال ففصّلوا بين ما إذا كانت الحرب قائمة وبين انتهائها فلو أُخذ الرجال أسرى والحرب قائمة يتعين عليهم القتل ما لم يسلموا[٢]. والإمام مخيَّر فيه بين اثنتين: ضرب أعناقهم. أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتركهم ينزفون.

وأما إذا أُخذوا بعد تقضيّ الحرب، لم يقتلوا، وكان الإمام مخيراً فيهم بين المنّ والفداء والاسترقاق. وهذا الحكم لا يسقط في حقهم حتى ولو أسلموا[٣].

وإن زاد بعض الفقهاء أيضاً[٤] خيار قتل الإمام لهم في هذه الحال إذا رأى ذلك.

وأما بالنسبة للعقارات والأرضين، فقد وقع الخلاف فيها بين الفقهاء:

---

(١) يراجع شرائع الإسلام للحلي ١/ ٣٢٢ والمغني لابن قدامة ١٠/ ٤٠٠ وما بعدها، والبحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤١٣.

(٢) شرائع الإسلام للحلي ١/ ٣١٧.

(٣) نفس المصدر والمغني لابن قدامة ١٠/ ٤٠٠ وما بعدها.

(٤) المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٤٠٠ وما بعدها.

فالإمامية يرون أنها للمسلمين قاطبة، ولا تختص بالغانمين، وذلك بعد إخراج خمسها، في قول الكثير منهم[١].

وقد تمسك هؤلاء على ما ذهبوا إليه من كون هذه الأرض للمسلمين قاطبة، بالروايات الدالة على وجوب إخراج خمس الغنيمة وتقسيم الباقي على الغانمين، حيث استفادوا من قرينة وجوب تقسيم الباقي على الغانمين، إن مورد هذه الروايات هو الغنائم المنقولة فقط.

كما تمسكوا على ما ذهبوا إليه من وجوب إخراج خمس هذه الأرض المفتوحة، بأدلة خمس الغنيمة الشاملة بإطلاقاتها لغير المنقول من الغنائم أيضاً.

وإن كان بعض فقهاء الإمامية، ذهبوا إلى عدم وجوب الخمس في الأراضي المفتوحة، مع قولهم بملكية المسلمين قاطبة لها.

ولعل هؤلاء قد استدلوا على ما ذهبوا إليه، بتقديم إطلاقات أدلة ملكية المسلمين للأرض المفتوحة، المقتضية لنفي الخمس فيها، على إطلاقات أدلة خمس الغنيمة، باعتبار أن أدلة الملكية، أخص من أدلة خمس الغنيمة، فتقدم عليها بالتخصيص.

أو باعتبار وقوع التعارض بين إطلاقي الدليلين وتساقطهما عند ذلك، فيرجع بعد تساقطهما إلى الدليل الفوقاني المقتضي لنفي وجوب الخمس.

---

(١) شرائع الإسلام للحلي ١/ ٣٢٢.

وفي كلا الشقين مناقشات وتأمل(١).

وإلى ما ذهب إليه الإمامية، ذهب فقهاء الزيدية أيضاً(٢).

وأما أبو حنيفة وأصحابه، فقد ذهبوا إلى القول بأن الإمام مخير بين أن يقسمها بين الغانمين بعد إخراج خمسها، وبين أن يتركها في يد أهلها بالخراج وجعلهم ذمة إن كانوا بمحل الذمة بأن كانوا من أهل الكتاب أو من مشركي العجم ووضع الجزية على رؤوسهم والخراج على أراضيهم(٣).

وقد نقل صاحب البحر الزخار(٤) عن أبي حنيفة وأصحابه رأياً آخر وهو أن الإمام مُخيَّر بين أن يقسمها، أو يوقفها على المسلمين، أو يجعلها خراجية، أو يزعج أهلها ويسكنها آخرين على خراج. مع نقله عدم وجوب إخراج الخمس منها...؟

بينما ذهب عمر ومعاذ وابن المبارك والليث إلى أن النظر فيها للإمام إن شاء قسمها، أو وقفها على المسلمين فقط(٥).

وأما مالك، فقد جعل لها وجهاً واحداً ليس إلا، وهو أنها بمجرد الفتح، تصير وقفاً على المسلمين من غير واقف(٦).

---

(١) راجع هذه المناقشات التي أوردها بعمق ودقة السيد محمد باقر الصدر في القسم الثاني من كتابه (اقتصادنا) صفحة ٦٥٠ وما بعدها، مع رأيه في المسألة وهو عدم وجوب تخميس الأرض المفتوحة.

(٢) البحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٤٠.

(٣) بدائع الصنائع للكاساني ٧/١١٨.

(٤) البحر الزخار لابن المرتضى ٦/ ٤٤٠.

(٥) نفس المصدر.

(٦) نفس المصدر.

دور الخمس في حياة الأمة

تمهيد

الحقيقة، إننا لا نريد ببحث موقع الخمس من الوجهة الإسلامية، على الصعيدين النفسي والاجتماعي، وكذلك الاقتصادي، أن ندّعي، أنّ هذا البحث سوف يبلور عظمة نظرية الإسلام وعمقها في هذه المجالات، وشمولها واستيعابها.

ذلك أن هدفاً كهذا، يقتضينا أن ننظر نظرةً عامةً وشاملة، إلى جميع جوانب هذه النظرية، حتى تجيء الصورة واضحة، وبالتالي يكون الحكم صادقاً صحيحاً.

ولكن مع ذلك، لا نرى مانعاً ـ بعد التنبيه على ما نبهنا عليه ـ من أن نشير ولو إشارة موجزة، إلى ما يمكن أن يؤديه الخمس، من دور مهم من النواحي النفسية والاجتماعية والاقتصادية، في المجتمع الإسلامي، فيما لو اعتُمدت الصيغة التي اخترناها من خلال بحوثنا المتقدمة، حول الآية المشرِّعة له في كتاب الله، والتي توسِّع في دائرته، إلى ما يعمّ أموراً كثيرة غير غنائم دار الحرب.

دور الخمس على الصعيدين النفسي والاجتماعي للأمة

والخمس، وإن كان في حد ذاته مما تغلب عليه صفة المال، إلا أنه في الشريعة الإسلامية، عبادة من العبادات التي يشترط فيها قصد التقرب بها إلى الله سبحانه، كالصلاة والصوم وغيرهما من العبادات.

وهذا في الحقيقة، يؤكد نظرة الإسلام الشمولية. وأنه دين يستوعبُ ـ حتى في تلك النواحي التي قد يبدو منها خصوصية ربط

العبد بربه ـ شؤون الناس الدنيوية، وما فيه من سعادة الإنسان واستقراره في الحياة على صعيد الفرد والجماعة.

كما يؤكد، على أن الإسلام في جانبه الاجتماعي، لا ينفصل أبداً عنه في جانبه الاعتقادي، الذي يبلور مفاهيمه، وفقاً لمبدئه الأصيل في تنمية عواطف الإنسان ومشاعره النبيلة، ودفعها في الاتجاه المحتاج إليها لتغيير واقع فاسد قائم، أو تدعيم واقع سليم متحقق بشكل موضوعي.

ففي مقامنا ـ مثلًا ـ الخمس، عندما يرتبط في صدر الآية الكريمة بالله ورسوله ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ وفي ذيلها ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، يتحول إلى معتقد ينبثق منه مفهوم العطاء الخيّر لله، والبذل في سبيله، فتتفجّر عند الإنسان المؤمن، مشاعر السخاء، وعواطف الحب في الله بالنسبة لإخوانه في الدين والعقيدة. فينفق مما جعله الله مستخلفاً فيه، عن نفس راضية وخاطر طيب، مقروناً بذله ذاك، بنظرة التعظيم والإجلال لما يبذل ولمن يبذل له.

وبهذا يتضح مدى الدور الكبير والمهم، الذي يؤديه الخمس كفريضة، على صعيد الأفراد والجماعات.

فعلى صعيد الأفراد الباذلين بهذه النفسية، وبهذا التصوّر، سوف يتخلّصون من عقدة الشحّ، ومرض البخل، اللذين قد يحوّلان صاحبهما إلى كانز للذهب والفضة في خزائنه، من دون إحساس منه بما يعانيه أخوه الإنسان من حرمان وشقاء.

وربما تحول هذا الكنز، إلى نوع من الصّنمية بالنسبة إليه،

يتوجه إليها بالعبادة والتقديس بمعنى من المعاني، حيث يدفعانه إلى الشرك الخفي.

هذا، إضافة إلى ما سوف يشعر به هؤلاء الباذلون، من لذة امتثالهم لحكم الله في الأرض، وإحساسهم المدعَّم بالواقع العملي، بأنهم عناصر فاعلة في بيئتهم، ولبنات أساسية ونافعة، بالنسبة للبنية الاجتماعية التي يعيشون ضمنها.

وأما على صعيد الأفراد والجماعات المبذول لها، فإنها بدورها سوف يجعلها هذا البذل المجرد من المّن، والأذى، تشعر بأنها ليست مخلوقات مسحوقة، وطبقة دون، وإنما هي عناصر إنسانية لها الحق في أن تحيا وتعيش في مستوى إنسانيتها المكرَّمة والمعظمّة. وأنها بدورها تشكّل لبنات ـ جنباً إلى جنب مع العناصر الباذلة ـ في البنية الاجتماعية.

وأنها تدخل في صميم تفكير نظام الإسلام الاجتماعي. وفي صميم الواقع الإنساني المعاش. لا أنها كّم مهمل من هذه الجوانب.

ولا إشكال في أن هذا الإحساس من قِبَلِ هؤلاء الأفراد وهذه الجماعات، سوف يجعلها تنشَدُّ إلى أولئك الناس، الذين أوتوا بَسْطَةً في العيش من الطبقات الثريَّة والمليَّة. وترتبط معها، لا بروابط المصالح المادية الآنيّة فقط، وإنما بروابط الأخوة في الدين، والمشاركة في الإنسانية.

وبالتالي، سوف تسدُّ آذانها عن كل دعوات التفرقة والبغضاء، التي تحاول أن تنفخ نار الحقد في النفوس والقلوب لدى هؤلاء،

مصوّرة لهم، أنهم طبقة مسحوقة محرومة، وأن انسحاقها وحرمانها، ناتجان عن سرقة أولئك المليئين لحقوقها ولقمة عيشها، كما هو الحال بالنسبة لبعض التيارات الفكرية المعاصرة. والتي تقوم أطروحتها على أساس ذلك.

وبهذا تغلق أبواب الفتنة. وتخرس أبواق الحقد الأعمى. ويعيش المجتمع البشري في سلام ووئام، كتلةً متراصَّةً متكاتفة متكافلة. لا يفرّق بينها فكر أو عمل. حيث تغيض الفروق الطبقية الحادة، التي تكون عادة، بؤرة خصبة لنمو الدعوات الهدّامة، والأفكار السوداء الملفوفة بسجف الحقد والكراهية والبغضاء بين بني الإنسان.

دور الخمس على الصعيد الاقتصادي للأمة

وقبل أن ندخل في بحث هذه النقطة بالذات بشكل موجز، لا بد لنا من التذكير، بما سبق وبيَّناه في بحوثنا المتقدمة، من أن الخمس ـ بناءً على الرأي الصحيح والمختار ـ إنما يجب إضافة إلى غنائم دار الحرب في ستة أشياء هي:

ـ المعادن.

ـ الكنوز.

ـ ما يستخرج بالغوص من البحار أو الأنهار الكبيرة.

ـ الأرض التي انتقلت إلى الذمي من مسلم.

ـ الحلال المختلط بالحرام ولا يعرف مقداره ولا صاحبه.

ـ ما يفضل عن مؤونة الإنسان ومصروفاته من الأرباح في نهاية السنة.

ويتضح الدور العظيم، الذي يمكن أن تؤديه فريضة الخمس، للأمة الإسلامية على الصعيد الاقتصادي والإنمائي، ومدى مساهمتها بشكل فعال في تغذية خزينتها، إذا ألقينا نظرة، على الأرباح الضخمة التي تجنيها بعض الدول الإسلامية كأثمان لبعض هذه الأمور الستة لا كلها، بشكل تقريبي.

فمن المعلوم، أن المعادن هي عبارة عن عدة ثروات طبيعية مذخورة في الأرض، ورقعة الأمة الإسلامية جغرافياً تعتبر بحق، منجماً ضخماً لكل نوع من أنواعها، وهي: النفط ـ الغاز ـ الكبريت ـ الذهب ـ الفضة ـ النحاس ـ الحديد ـ الملح ـ الفوسفات، إلى غير ذلك من المعادن.

وكذلك، ما يستخرج بالغوص من أعماق البحار، والذي هو من جملَة موضوعات وجوب الخمس ـ خاصة إذا التفتنا إلى أن جل الدول الإسلامية، إن لم يكن كلها، هي أقطار ساحلية ـ لا يقل أهمية من الناحية الاقتصادية، إن من حيث الكم أو الكيف عما يستخرج من بطن الأرض من معادن. مثل:

اللؤلؤ ـ المرجان ـ الياقوت ـ الإسفنج ـ العنبر وإن أخذ عن وجه الماء، إلى غير ذلك من أنواع.

ونحن لو أخذنا النفط مثلًا، وهو الشريان الحيوي للاقتصاد العالمي، لوجدنا أن الدول الإسلامية النفطية، تنتج أكثر الكمية العالمية منه بمفردها، إذ إن احتياطي البترول في الشرق الأوسط يشكل حوالي ٦٧٪ من مجموع احتياطي العالم كله من هذه المادة. كما تعتبر منطقة الخليج بحيرة النفط العالمية. إذ تنتج وحدها حوالي ٦٠٠ مليون طن تقريباً سنوياً.

ولو عرفنا بالمداخيل التقريبية لبعض هذه الدول، من مادة النفط دون أي شيء آخر، لتبدّت لنا معالم الصورة واضحة جلية.

إذ بلغت إيرادات ثلاث دول إسلامية، لا تعتبر هي الأغزر إنتاجاً نفطياً في المجموعة الإسلامية، هي إيران والكويت وليبيا، في سنة واحدة[1]، مبلغ ستة مليارات وخمسمائة مليون ليرة لبنانية، أي ما يعادل الثلاثة مليارات دولار.

فكيف إذا وضعنا في حسابنا، ما تنتجه السعودية، التي تعتبر أضخم خزان نفط طبيعي في العالم، أو دول الخليج الأخرى، وبقية الدول الإسلامية المنتجة لهذا المعدن!؟

ثم إذا التفتنا إلى ما تخزنه أراضي كل الدول الإسلامية من المعادن الأخرى كالذهب، والحديد، والكبريت، والفوسفات، والملح، حيث تشتمل هذه الدول على جبال ضخمة وأراضٍ شاسعة، تتكون من مئات المليارات من الأمتار المكعبة الغنية بهذه المواد الحيوية.

ولا يغرب عن البال، أن غالبية دول الخليج، وفي طليعتها الكويت، كان المصدر الرئيسي لاقتصادها إلى ما قبل عشرين عاماً، يعتمد على صيد اللؤلؤ، وغيره من أعماق البحار، في رحلات طويلة ومنتظمة.

وإذا كان هذا هو الحال قبل عشرين عاماً، بوسائل بدائية بالنسبة

---

(١) هذه الاحصاءات موضوعة في أوائل السبعينات تقريباً. وقد وردت في الجزء الثاني من المجلد الأول من القضايا المعاصرة عدد تشرين الثاني ١٩٦٩.

لهذه الأقطار، فكم هو ضخم إيراد هذه الصناعة ـ الغوص ـ في هذا الوقت، بعد أن اعتمدت الأساليب الحديثة في الغوص، وجُهِّزت أساطيل بحرية تجارية للقيام بهذه المهمة.

وقِس على هذا بقية الأمور، التي تعتبر موضوعات لوجوب فريضة الخمس.

والحقيقة، أن هذه الفريضة، يمكن أن تكون أداة جبارة في تطوير المجتمع الإسلامي، والقضاء على البطالة فيه، بإيجاد المشروعات الحيوية التنموية الضخمة، إلى جانب القضاء على الفقر والجهل والمرض فيما لو أحسنت جبايتها، وتنظيم استغلالها، مع توزيع مبالغ منها بشكل مدروس، وموضوعي على من يستحق من أبناء الأمة في حدود الصيغة التي بحثناها سابقاً.

عود إلى أجواء الآية

بعد هذه الرحلة الطويلة مع آية الخمس في القرآن، رأينا حكم الغنائم، الذي أُمِر الرسول ﷺ أن يبلِّغه للمسلمين.

خمس منها لله، والرسول والإمام القائم بالأمر بعده ﷺ، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل من قرابة النبي ﷺ يجب عليهم أن يدفعوه لمن عيّنته الآية الكريمة، إن كانوا آمنوا بالله، وما أنزل على عبده محمد يوم بدر، يوم التقى الجمعان، جمع المؤمنين، وجمع المشركين.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

وما أنزل على محمد ﷺ يوم بدر هو القرآن:

وقد قيل: بأن المراد بما أنزله سبحانه يوم بدر: الملائكة. وذلك غير مقبول:

أولاً: لأنه كان ينبغي حينئذٍ أن يعبّر بـ(مَن أنزلنا) إذ هو ما يناسب الملائكة، لا بما أنزلنا كما هو الوارد في الآية.

ثانياً: إن الملائكة لم تنزل فقط على النبي ﷺ، بل نزلت مدداً للمسلمين جميعاً ـ بالتقريب المختار لنا من كونه مدداً قصد به رفع معنويات المسلمين ليس إلا ـ مع أن ظاهر الآية يشير إلى أن الإنزال إنما كان على خصوص النبي ﷺ: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

والتعبير عن يوم بدر بيوم الفرقان، له مغزى كبير. فالفرقان لغةً، كل ما يفرق به بين شيئين، وقد كان يوم بدر فرقاناً بحق.

لقد كانت بدر فرقاناً بين حياتين للمسلمين:

حياة عاشوها قبل بدر، كئيبة ملؤها الأحزان، تنسج خيوطها الآلام، ويسامون فيها ضروب العذاب.

وحياة ابتدأت مع بدر عاد فيها المغلوب المقهور غالباً وقاهراً.

وعادت فيها للمكبوت المحزون المسرّات والأفراح.

ونعم فيها المؤمنون ـ بفضل الله ـ بالطمأنينة والاستقرار.

ولقد كانت بدر فرقاناً بين مقياسين للحياة:

مقياس قبل بدر، كانت تقاس به قيمة الإنسان بمقدار ما يملك، ويظلم ويسف إلى مهابط الحيوان.

ومقياس بعد بدر غدت تقاس به قيمته، بمقدار ما يعطي للحياة والأحياء في مجال القيم الإنسانية ماديّها ومعنويّها. متوخياً من وراء ذلك رضوان الله، ومتقرباً إليه.

ولقد كانت بدر فرقاناً بين مقياسين للنصر والهزيمة:

مقياس لهما، كان لا يضع في الحسبان إلا ما يتراءى للعيان من قوة عَدَدية وعُدَدِيَّة. فجاءت بدر، لتنسف هذا المقياس من أساسه. ولتوضح بما لا يقبل الشك، أن القوة المادية كلها، لا يمكن أن تحقق للإنسان نصراً، أو تلحق به هزيمة، مهما ضعف، إذا كان يتسلّح بالإيمان بالله، ويعتقد بأن النصر بيده يؤتيه من يشاء، ويقاتل في سبيل إعلاءِ كلمته في الأرض.

وأخيراً، لقد كانت بدر فرقاناً بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾. جمع المؤمنين الممثّل للحق. وجمع المشركين الممثل للباطل.

فكان النصر من عند الله، للجماعة الممثلة للحق.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* * *

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

العدوة: بضم العين وكسرها، والضم هو المشهور، هي جانب

الوادي، وحافته، والدنيا: صفة للعدوة، مؤنث الأدنى، من دنا يدنو، وهي في الأصل بمعنى الأقرب.

والقصوى: مؤنث الأقصى من قصا يقصو، وهي بمعنى الأبعد.

والمقصود بالركب: عير أبي سفيان وأصحابه.

وهذه الآية الكريمة، جاءت لتعرض صورة لموقع كلٍ من المسلمين والمشركين، قبل أن تبدأ المناوشات بين هؤلاء وأولئك، مقدمة لمعركة بدر، حيث لم يكن يفصل بين الموقعين، إلا جبل احتل المسلمون جانبه مما يلي المدينة، بينما احتل المشركون جانبه الآخر مما يلي مكة. دون أن يعلم أيّ من الطرفين ما هو مخبأ له في الطرف الآخر.

في حين أن أبا سفيان، اغتنم فرصة انشغال المسلمين بتهيئة أنفسهم لمجابهة عدوهم، واستعداداتهم للقتال، فتحاشى بركبه موقعَهم وانحدر نحو مكة، ليسلَم وتسلَم العير.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

تعجّبٌ وتعليق

عجيب أمر هذا التوافق، وغريب أمر هذا التوقيت؟!

لقد خرج المسلمون من المدينة، لا يبغون قتالًا، بل يريدون الاستيلاء على عير قريش، ضمن خطة من ورائها شنّ حرب اقتصادية على العدو لإضعاف مركزه.

بل كرهوا القتال وجادلوا فيه، عندما أمروا به.

وقريش كان باستطاعتها أن ترجع من دون قتال. بعد أن تحقَّق لها الهدف الذي خرجت من أجله، ونجت عيرها وتجارتها.

ولكن الله سبحانه اختار للمسلمين ما لم يختاروه. ووضعهم في مركز لم يرغب كثير منهم أن يكونوا فيه. حتى أنهم لو تواعدوا على أن يجتمعوا للقاء قريش لأَخلفوا وعدهم، بعد أن يطلّعوا على قوة عدوهم، وضعفهم هم.

في حين، أنهم اجتمعوا الآن، من دون تواعد على الاجتماع، وذلك بتقدير منه سبحانه وتسبيب، ليقضي الله ما كان قد قدرَّه، من دحر الباطل واستئصاله، واظهار الحق وإعلاء كلمته.

فكانت معركة بدر. وكان ما أراده سبحانه.

يقول عمير بن إسحاق: «أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه. فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقت السُّقاة ونَهَدَ الناس بعضهم لبعض»[١].

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

كل ذلك لتتم الحجة على مَن مات كافراً فيعاقب باستحقاق.

ولتتم الحجة على مَن بقي حياً من الكافرين فيثوب إلى رشده. ويرجع عن غيّه، وكفره وحربه لله ورسوله والمؤمنين.

---

(١) تاريخ الطبري ١٣/٥٦٧.

في نفس الوقت، الذي تتم الحجة فيه على مَن ماتَ مؤمناً فيثاب وتتم الحجة فيه على من بقي حياً من المؤمنين، فيثبت إيمانه. ويتعمق، ويعلم أن الله سميع عليم.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

* * *

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم جاءت هاتان الآيتان الكريمتان، لتبيّنا كيف أن الله سبحانه، قد أرى لنبيّه ﷺ المشركين في منامه قلّةً، حيث حدَّث أصحابه بما رأى، مما بثَّ في نفوسهم الحماس واستشعروا معه الثقة والطمأنينة، بعدما كانوا يستشعرونه من خوف وضعف وارتباك.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾.

لطف إلهي:

وهذا ـ في الحقيقة ـ إن دل على شيء، فإنما يدل على ذلك اللطف الإلَهي بالمؤمنين، إذ لو رأى نبيّه في منامه المشركين، على ما كانوا عليه من عدد وعدَّة، ثم حدَّث أصحابه بما رأى لانعكست النتيجة، ولزاد شعورهم بالضعف والخوف، مما سوف يؤدي حتماً إلى الهزيمة والفشل. بعد أن يعيق هذا الشعور، بعض المسلمين عن

أداء واجبهم في مجابهة الأعداء، مع ما في ذلك من عرقلة تحركات باقي المسلمين وشلّهم عن القتال.

بل قد يؤدي ذلك إلى الانقسام والتنازع بينهم، حيث سوف يحاول البعض من ضِعاف النفوس، أن يثنوا الآخرين عن مجابهة المشركين:

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

والمقصود بذات الصدور: القلوب التي تكون في الصدور.

تساؤل وجواب

وهنا، قد يتساءل البعض، كيف يمكن أن يُرِيَ الله سبحانه، نبيَّه المشركين قليلًا، مع أنهم كثير في الواقع، مع علمه بكثرتهم؟

بل رُوِيَ أنه كان قد أخبر أصحابه بأنهم ألف أو يزيدون...

ويتضح جواب هذا التساؤل، إذا وضعنا في حسابنا أن المقياس ليس هو الكثرة العدَدِيَّة والعُدَدِيَّة. فإن المشركين وإن كانوا في الواقع كثيري العدة والعدد، إلا أنهم لم يكونوا بكثرتهم تلك يحاربون المسلمين الذين يقلّون عنهم بشكل كبير.

بل كانوا في الحقيقة يحاربون الله، ولذلك سوف لن يكون لكثرتهم تلك، إلا أثر قليل، هذا إذا لم يكن لهم أثر على الإطلاق.

فالنبي ﷺ، قد رأى بعين بصيرته لا بصره، قلةَ ما سوف ينتج عن تلك الكثرة المحسوسة من أثر، فأخبر أصحابه، فتحمسوا وتشجّعوا، وذهب عنهم ضعفهم الذي كانوا يستشعرون.

لطف إلهي آخر:

ولم يقتصر لطف الله بعباده المؤمنين، أن أرى نبيّه ﷺ المشركين قليلًا، بل تعداه إلى إراءته المسلمين بالعين الباصرة قلة أيضاً عند التقائهم في القتال:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

فقد روي عن ابن مسعود أنه قال: رأيناهم قليلًا حتى قلت لمن كان إلى جانبي: أتراهم سبعين رجلًا؟ فقال لي: هم نحو المائة. فلما أسرنا رجلًا منهم سألناه كم كانوا؟ فقال: ألفاً.

وقد يكون منشأ رؤية المسلمين لهم بهذه القلة بعيونهم، وجود مانع مادي منع من رؤية جزء من جيش المشركين، كغبار كثيف، أو نشز من الأرض أو ما شابه.

ويمكن أن يكون منشؤه صرف أبصارهم كلّية عن رؤية جزء من عدوهم، وهو ليس على الله ببعيد، الله القادر على أن يحول بين المرء وقلبه.

رأي وتعليق

وقد قيل، بأن تقليل المشركين في أعين المسلمين، لم يكن تقليلًا حسياً مادياً، وإنما كان تقليلًا معنوياً، بمعنى أن الله سبحانه أراكم ـ أيها المسلمون ـ المشركين عند التقائكم بهم قليلًا (بما أودع في قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصره لكم. وتثبيتكم بملائكته ومن احتقارهم والاستهانة بهم).

فالتقليل هنا ـ على هذا ـ ليس تقليل عدد وعُدَد بل تقليل شأن وأثر مبعثه وعي المؤمنين لحقيقة هؤلاء الأعداء، وخسة الغرض الذي

يحاربون من أجله، ألا وهو إعلاء كلمة الطاغوت، وضآلة تفكيرهم وصغار عقولهم وهم يحاربون الله بجبروته وعظمته.

مع إدراك المؤمنين أيضاً لحقيقة دورهم، وأنهم إنما يحاربون لإعلاء كلمة الله في الأرض. وإن الله معهم.

كل ذلك يدفعهم إلى استصغار شأن أعدائهم والاستهانة بهم. وهو معنى رؤيتهم لهم قلة.

ولكن هذا المعنى لا يتناسب مع ظاهر الآية الكريمة. حيث ذكرت أن رؤية المسلمين للمشركين قلة. إنما كانت رؤية بواسطة عيونهم.

﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾

التي هي حواس إبصارهم. ولا ينافي هذا، ما سبق وذكرناه في رؤية النبي ﷺ المشركين قلة، وذلك لاختلاف الرؤيتين: رؤية البصيرة هناك باعتبار حصولها في منامه ﷺ. ورؤية البصر هنا.

مع لطف إلهي جديد

وفي قبال رؤية المسلمين للمشركين قلة، رؤية المشركين للمسلمين قلة كذلك.

﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾.

ولذا روي عن أبي جهل قوله يومئذٍ: إنما أصحاب محمد أكلة جزور. «كأنه يقول: نتغدّاهم ونتعشاهم في يوم واحد، وكانوا يأكلون في كل يوم جزوراً»[1] والجزور: الناقة.

(١) تفسير المنار ١٠/٢٣.

وإذا كان في تقليل المشركين في عيون المسلمين، لطف منه سبحانه بالمؤمنين، ليرفع من معنوياتهم، ويبثَّ في قلوبهم الوجلة السكينة، وبالتالي يُقْدمون على قتال العدو، فإن في تقليل المسلمين في أعين المشركين لطفاً آخر، يقصد منه إغراء المشركين بقتال المسلمين، لتدورَ الدائرة عليهم، ويتحطم غرورهم وكبرياؤهم، وتطوى صفحة مظلمة من صفحات تاريخ الإنسان:

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

ولا راد لقضاء الله وقدره، فهو المبدأ وإليه المنتهى...

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

نُقْلَةٌ بين آيتين

وقد وردت في سورة آل عمران، في معرض وصف معركة بدر آية، ربما يتوهم أنها تتنافى مع هذه الآية في سورة الأنفال.

حيث إن هذه الآية هنا، تنصّ على أن الله سبحانه قللَّ المسلمين في أعين المشركين:

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾.

بينما الآية الأخرى، في سورة آل عمران تنص على عكس ذلك وهذه الآية هي:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾[1].

---

(١) الآية: ١٣.

بناءً على أن الضمير في ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ يرجع إلى الفئة المؤمنة. أي إن الفئة الكافرة ترى الفئة المؤمنة ضعفي عددها.

ولكن هذا التوهم يرتفع بمجرد أن نضع في حسابنا أن التنافي لا يتم، إلا إذا اتحد الموقف الذي تتحدث عنه الآيتان وذلك مما لا دليل عليه. إذ قد يكون تقليل المسلمين في أعين المشركين، سابقاً زماناً على بدء القتال، وذلك لإغرائهم بقتال المسلمين، في حين أن تكثير المسلمين في أعينهم إنما يكون بعد نشوب المعركة واحتدامها، لتثبيط همم المشركين وإلقاء الخوف في قلوبهم فيفشلوا ويمنوا بالهزيمة.

فكل من تقليل المسلمين وتكثيرهم في أعين المشركين، كان لحكمة في فترتين زمنيتين مختلفتين.

وإذا اختلف الزمان فلا تنافي.

درس وعبرة

بعد هذا العرض، نود أن نقف قليلًا لنرى، ماذا يمكن أن نستفيده، من محتوى هذه الآيات بشكل عام على ضوء ما نفهمه من المنطلقات الجوهرية لهذا الدين الحنيف. وما هي دلالة قضاء الله سبحانه في كل ما تضمنته من تفصيلات.

وما هي دلالة ذلك التوقيت الدقيق لتحرّك الفريقين في اتجاهين متقابلين. والذي أدى إلى احتلال كل منهما جانباً من جانبي نفس الوادي.

وما هي دلالة إراءة الله سبحانه نبيّه المشركين قلةً.

وما هي دلالة تصرفه تعالى بأبصار الفريقين بشكلين مُتعاكسين،

بأبصار المسلمين حتى رأوا المشركين قلة، وبأبصار المشركين حتى رأوا المسلمين كذلك قبل ابتداء القتال، وكثرةً بعد احتدامه.

والذي نستخلصه من كل ذلك، أمر يستحق الانتباه، لأنه من المقومات الأساسية في التصور الإسلامي، ألا وهو الإيجابية.

إيجابية الله سبحانه، التي تدخل على أساس منها فقضى بكل ما عرضته الآيات الكريمة من أحداث ومواقف، وبالتالي ليكون ما قضاه دون غيره.

الإيجابية التي تبيّن بجلاء، أن الله في الإسلام، ليس رباً سلبياً لا يهّمه من شؤون الخلق والعالم شيء كما تُصوره بعض العقائد، وليس رباً طاغياً حاقداً على خلقه، يتربص بهم دائماً الدوائر. وإنما هو إله حان عطوف، يرعى الكون والإنسان والحياة، ويدير شؤونها كلها بحكمة بالغة، ودقةٍ متناهية. يسمع أنّة المظلوم ويجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، ويقبل التوبة عن عباده، ولا يرضى أن تمتهن كرامة هذا المخلوق بحال.

وهذه الإيجابية لا تقتصر على معركة بدر وحدها. وإنما برزت جليَّةً في كل موقف حرج من مواقف المسلمين، حيث كان سبحانه يتدخل في اللحظة المناسبة، ليقرر النتيجة التي تضيف صفحة جديدة مشرقةً إلى صفحات هذه الدعوة وهذا الدين.

ولتُسجِّل موقفاً جديداً من مواقف الخزي للفئة الكافرة بالله والقيم الإنسانية، مع ما يتمخض عنه هذا الموقف من هزيمة، واندحار.

برزت هذه الإيجابية، في الصغير الصغير من الأمور.

ويكفينا مثالًا على ذلك، ما ورد في سورة المجادلة(١):

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

كما برزت في العظيم الخطير من الأمور المصيرية في حياة البشرية.

يكفينا مثالًا على ذلك، ما حكاه القرآن الكريم من قصة موسى عليه السلام(٢):

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا

---

(١) الآيات: ١ ـ ٧.

(٢) سورة القصص، الآيات: ٣ ـ ١٣.

يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

بهذه الإيجابية، كانت القدرة الإلهية تقضي في كل شأن من شؤون الحياة والإنسان، صغر ذلك الشأن أو كبر.

وإلى هذه الإيجابية نفسها، تشير أحداث بدر، التي حكت لنا طرفاً منها الآيات الكريمة المتقدمة.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

النداء الإلهي ودلالاته

حفل القرآن الكريم بالنداءات الإلهية، وتنوّعت تلك النداءات، من حيث الألسنة ومن حيث المنادى.

فقد نودي فيه الأشخاص، بأسمائهم تارة:

﴿يَا عِيسَىٰ ﴿١١٦﴾﴾[1] ﴿يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾﴾[2] ﴿يَا دَاوُودُ ﴿٢٦﴾﴾[3] ﴿يَا يَحْيَىٰ ﴿١٢﴾﴾[4] وبأوصافهم أخرى:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.
(٢) سورة طه، الآية: ١١.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٤) سورة مريم، الآية: ١٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ①﴾[١] ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ④١﴾[٢].

كما نوديت الجماعات والطوائف والشعوب فيه:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ④٠﴾[٣] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ⑥٥﴾[٤].

ووُجِّه النداء أيضاً في القرآن إلى الناس جميعاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ①٥﴾[٥].

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ③١﴾[٦].

ثم جاءت هذه الآيات الكريمة بنداء موجه إلى جماعة المؤمنين. وقد تضمن هذا النداء إلى الجماعة المؤمنة عدة نصائح وتوجيهات وأوامر، كفيلة فيما لو عمل المؤمنون بها، والتزموا بمؤداها أن توصلهم إلى النجاح والفلاح.

الأمر الأول: وأول هذه الأوامر الأمر بالثبات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾.

والصمود في ساحة المعركة، والثبات في وجه العدو، هو الدعامة القوية التي لا تكشف فقط عن البطولة والشجاعة، والتفاني في سبيل الذود عما يعتقده الإنسان ويعتنقه، بل هو الطريق الذي يؤدي دائماً إلى النصر المؤزر، أو الموت بعزة وإباء.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٥.
(٥) سورة فاطر، الآية: ١٥.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

الثبات في المجابهات الفكرية

والآية الكريمة، وإن كانت بمناسبة نزولها بعد معركة بدر، تأمر المسلمين بالثبات والصمود في وجه العدو في الحرب والقتال، إلا أننا يمكننا أن نسرّي الحكم، وهو وجوب الثبات أمام العدو، حتى ولو كانت المعركة معركة فكرية، من خلال توسعنا في مفهوم الفئة إلى ما يعم الفئة العدوّة المقاتلة للمسلمين، في ساحات الفكر والعقيدة أيضاً.

وعليه، فلو كانت هنالك مجموعة تحمل قيماً فكرية تناقض الإسلام في قيمه لوجب التصدّي لها.

ولوجب الثبات في وجهها والصمود أمامها، لمقارعة الحجة بالحجة، والدليل بالدليل والبرهان، حتى آخر لحظة. وذلك لكشف زيف ما تعتنق وفساد ما تعتقد.

شاهد من تاريخ الإسلام

ولعل في قصة المباهلة بين النبي ﷺ ونصارى نجران، أكبر دليل على ضرورة الثبات في أية مجابهة فكرية بين الداعية إلى الله وأعداء الله. حتى ولو أدّى ذلك إلى تحكيم الله بشكل مظاهرة معلنةٍ لينزل عذابه السريع في الدنيا، بل في نفس اللحظة بالظالمين الضالين:

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

وعند الوصول إلى مثل هذا الموقف، يكون الإنسان قد حقق قمة الصمود والثبات على المبدأ، وعندها يتقهقر الخصم، ويصيبه العيّ والفشل، ويتحقق النصر لكلمة الله في الأرض. وهكذا كان.

وما أحوج المسلمين في هذا العصر، الذي كثر فيه المضلّلوُن والمضلَّلُون، إلى تبنيّ هذا المبدأ العظيم، مبدأ الثبات أمام الهجمات الظالمة والمتلاحقة على الإسلام وقيمه الفكرية، لكشف زيفها وبطلانها، خاصة وأننا في الإسلام، نملك الأصالة والحجة والبرهان والحقانية الكفيلة كلها بأن تظهر دين الله على الدين كله ولو كره الكافرون.

ولكن تحقيق هذا المبدأ، يحتاج من المسلمين أنفسهم أن يطّلعوا أولًا على ما حواه هذا الدين، من قيم فكرية معمّقة ومشرقة فيسلحوا أنفسهم بها أمام مدّعي العلم والفهم والثقافة. وإلا كانوا كساعٍ إلى الهيجاء بغير سلاح.

الثبات في المعارك الحربية

والثبات في المعارك الحربية، ليس بأقل أهمية من الثبات في المعارك الفكرية، فلكل دوره في تحقيق النصر. وكلاهما أمر لا يمكن الاستغناء عنه.

ولذلك نجد الإسلام قد حثّ أتباعه على الثبات في مواجهة العدو. الثبات هكذا بإطلاقه من دون تقييد بنوع خاص من المعارك:

﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾.

وبلحاظ ما للثبات من دخالة أكيدة في قطف ثماره وهي النصر

المؤزّر، نرى الإسلام وقد شرع تشريعاً لا يمكن مع الحدب على تطبيقه من قبل المسلمين، إلا وأن تكون الغلبة لهم على عدوهم في أية مجابهة بينهم وبينه.

هذا التشريع، هو حرمة الفرار من الزحف.

بل أكثر من هذا، جعل الإسلام الفرار من الزحف، من الكبائر التي توعَّد الله صاحبها عليها النار، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[1].

وتأكيداً لعنصر الثبات في المواقع الحربية من قبل الإسلام نرى أنه قد حكم بعدم جواز ترك قتال المشركين والكافرين إلّا بأحد أمور. لو تأملناها ملياً لوجدنا أن كل واحدة منها تؤدي إلى ضمان هذا العنصر المهم من عناصر النصر وهذه الأمور هي:

أولاً: أن يطلب الكافر الأمان من المسلم فيؤمنه، بشرط أن تكون في ذلك مصلحة للمسلمين. كأن يُطمع بدخوله في الإسلام عندما يختلط بأهله. أو يمكن الاستفادة منه في كشف عورات الكافرين ونقاط الضعف عندهم بحكم معرفته بها. أو يكون عيناً للمسلمين على أعدائهم.

الثاني: التسليم والرضا بحكم النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام.

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

الثالث: الدخول في الإسلام.

الرابع: أن يدفع الكفار الجزية للمسلمين إن كانوا كتابيين ويلتزموا بأحكام الذمة.

الخامس: عقد الهدنة مع الكفار مدة معينة أقصاها عشر سنين بشرط أن يكون فيها مصلحة للإسلام والمسلمين مادياً ومعنوياً.

الأمر الثاني: وثاني هذه الأوامر الإلهية الإكثار من ذكر الله.

ولا ريب في أن ذكر الله في أي وقت، مما له أكبر الأثر في حفز الهمم وشحذ العزائم.

ذلك أن الذاكر لله، يشعر بأنه مرتبط بتلك القوة العظمى في الكون، والتي لا يغلبها شيء، ولا تقوى قوة مهما عظمت على أن تقف في وجهها، فيطمئن قلبه، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

ولكن الأمر بالإكثار من ذكر الله ساعة لقاء العدو بالخصوص مما يمكن أن يكون له أثر آخر يتعدّى حدود الإنسان الذاكر ليشمل العدو نفسه.

ذلك أن جيش الإيمان عند ترديده لذكر الله سبحانه، وزمجرته باسمه تعالى، ورفع الأصوات عالياً حتى لتكون كهزيم الرعد سائلة منه النصر، وطالبةً الغوث وشدَّ الازر، إن هذه الأصوات سوف توقع الارتباك في جيش العدو، وتخلخل صفوفه، وتبلبل رؤيته وبالتالي سوف يكون مصيره الهزيمة والدمار.

وهذا واقع ملموس، في تلك الحروب التي خاضها المسلمون

ضد أعداء الله على امتداد الزمان والمكان، حتى لا يخلو عصرنا الحاضر منه، من خلال بعض المعارك التي عشناها بين جيوش المسلمين وجيوش أعدائهم، في كشمير والجولان وسيناء.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الأمر الثالث: وثالث هذه الأوامر إطاعة الله ورسوله.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

وما دامت الآيات الكريمة، في مقام التوجيهات الإلهية لجماعة المؤمنين، ليأخذوا بأسباب النصر، ويعملوا بها فينالوه، كان لا بد من ذكر إطاعة الله ورسوله؛ ذلك أن إطاعتهم هذه لله ولرسوله، لها مدلولات ضخمة، وآثار كبرى...

إن إطاعة المؤمنين لله ورسوله قبل بدء المعركة، وأثناءها، وبعدها، تعني استسلامهم لأوامر الله ونواهيه، من خلال رسول الله ﷺ، وذلك يستبطن في حقيقته، ضرورة الالتفاف بشكل جوهري؛ حول قيادة واحدة، بمشاعر واحدة، تتحكّم فيها شريعة الله وأحكامه.

وبذلك فقط، يمكن أن يتحصّن المؤمنون ضد التفرّق والتشتت وبالتالي الضعف والدمار.

وذلك شيء طبيعي...

إن نبذ شريعة الله وأحكامه، معناه اتباع الأهواء والنزعات الفردية، مع ما يستتبعه من توزّع القيادة وتعدّدها، فتقع الفوضى، ويستبدّ الوهن، وتفتك الانقسامات. ولعله إلى هذا يشير قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾.

وذهاب الريح، كناية عن تفتت القوة وتلاشيها، إذ إن الريح تطلق ويراد بها العزّ والدولة. قال عبيد بن الأبرص:

كما حميناك يوم النَّعفِ من شطبٍ والفضل للقوم من ريح ومن عدد[1]

وذكر الراغب الأصبهاني «أن الريح في الآية بمعنى الغلبة، استعارة، كأن من شأن الريح أن تحرك ما هبّت عليه، وتقلعه وتذهب به، والغلبة على العدو، يفعل به ما تفعله الريح بالشيء كالتراب فاستعيرت لها...»[2].

جولة مع الماضي:

نعم... إن عدم إطاعة الله فيما شرع، ورسوله فيما بلّغ يستبطن خطراً أيما خطر، يتجسّد في تحكيم الأهواء والنزعات، وتقديم كل شخص مصلحته الفردية، وخضوعه لعالم الضرورات في لحظة من لحظات الضعف البشري، عيناً كما حصل لهم في معركة أُحد كما يحدثنا الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾[3].

الأمر الرابع: ورابع هذه الأوامر الإلهية: الأمر بالصبر...

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٤٨.

(٢) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ٩/ ٩٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

﴿وَاصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

والصبر، هو قمة الصمود في مواجهة الصعاب والشدائد. وباعتبار أن كل الخطوات المتقدمة، والتي تضمنتها الأوامر الإلهية، إنما ترتكز على قاعدة جوهرية صلبة هي الصبر، فقد توّجت تلك الأوامر بالأمر به. وبالتالي، لا يمكن تحقيق أي وجه من وجوه الجهاد الصادق الحق، من قبل أي إنسان يدّعي الإيمان إلا بالصبر، ومن هنا جعل النبي ﷺ الصبر نصف الإيمان عندما سئل عنه، والنصف الثاني هو السماحة.

والصبر كما يكون على بلاء الله، لا بد وأن يكون عند نعمه.

والصبر على البلاء ليس معناه في الإسلام التخاذل والاستكانة والضعف، كيف والإسلام يذم أولئك النفر من الناس، الذين يرتضون البقاء في الذل، ولا يحاولون تغيير واقعهم الفاسد إلى أفضل... حيث يقول سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[1].

وإنما موضع الصبر في الإسلام، هو تلك القضايا والمواقف التي نراها كلما بذل الإنسان جهده لحلها وتذليلها، يعجز ويغلب، حتى يستنفد كل ما لديه من طاقة في هذا المجال. وعندئذٍ يكون قد أبرأ ذمته مما هو مطلوب منه وعندئذٍ يسلّم أمره إلى الله ويصبر،

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

لإدراكه بأن حلها بيده، وقد جاء دوره سبحانه، ليرفع الغمّة، ويدفع البلاء.

وعلى هذا المنحى من الفهم، تُحملُ كلمة سيد الشهداء عليه السلام إبّان نهضته المباركة «فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق. ومن ردّ عليّ هذا اصبر حتى يحكم الله بيني وبين القوم بالحق».

وأما الصبر عند النعمة، فمعناه أن يحسن الإنسان المُنعمُ عليه من قبل الله سبحانه، استغلال تلك النعمة في الوجوه التي يكون لله فيها رضى.

ولا أقلّ من عدم استغلالها فيما يكون معصية لله المنعِم، وموجباً لسُخطه وجلبِ نقمته.

ولا إشكال في أن من أوضح الواجبات التي تترتب على الإنسان المنعَم عليه، هو شكر المنعِم. فإن ذلك مما يحكم به العقل، وتقضي به السيرة العقلائية في كل زمان ومكان...

وشكر نعم الله قولًا وعملًا، مما لا إشكال ولا ريب في أنه يكون موجباً لتواتر النعم منه سبحانه. كما أن كفرانها يكون موجباً لمحقها ورفعها. ولذلك يقول سبحانه:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾[1].

وبهذا المعنى، ورد الحديث عن أهل بيت العصمة عليهم السلام:

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

«إن للنعم أوابد كأوابد الطير فقيّدوها بالشكر».

وفي كلا الحالين، حال الصبر على النعمة، وحال الصبر على الفتنة والنقمة، يكون الإنسان الصابر شديد الاتصال بالله، يضعه نصب عينيه ليشكره على نعمه، أو ليستعينه في دفع أو رفع نقمه. ولا ريب في أن الله تعالى، المطلع على سريرة مثل هذا المخلوق، العالم بصدقه في صبره في الحالين، سوف لن يخيب ظن عبده به، إذ لا بخل بساحته. ولذا فإنه سوف يكون عند حسن ظن ذلك العبد به، فلن يتركه أو يتخلّى عنه. بل هو معه لا بمقارنة، في كل خلجة وفي كل نفس، وفي كل لحظة، بل في كل خاطرة...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

* * *

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

نهي بعد سلسلة أوامر

بعد أن انتهت سلسلة الأوامر الإلهية الموجَّهة إلى جماعة المؤمنين، والمُوجِّهة لهم نحو ما فيه نصرهم، وعزتهم، ومنعتهم، انعطفت الآيات التالية، إلى توجيه أنظارهم، نحو ما لا يجوز لهم أن يقعوا فيه، مما يكون سبباً في هلاكهم، ويجرّهم إلى خزي في

الدنيا، وعذاب في الآخرة. كما كان الأمر بالنسبة لأعدائهم وأعداء الله. . .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم﴾.

شتّان ما بين هجرة وهجرة!. . .

هنالك أنواع من هجرة فرد أو جماعة من ديارهم إلى ديار أخرى، ومن أرض إلى أرض، ومن بلاد إلى بلاد.

والمفرد لهذه الأنواع كلها والمصنِّف، إنما هو الغرض الذي من أجله حصلت تلك الهجرة، أو تحصل. ويمكن تصنيف هذه الهجرات في نوعين رئيسين:

الهجرة إلى الله ورسوله

وأعظم الهجرات وأكرم، هي تلك التي تكون إلى الله ورسوله. ومن الواضح، أن الهجرة إليهما، إنما هي بلحاظ ما يرمزان إليه، من قيم الخير المطلق، والكمال اللامحدود. وإلا فمن البديهي عدم محدودية الله سبحانه في مكان بعينه، ليكون التوجه إلى ذلك المكان هجرة في ذاته.

ومن هنا، كان الانتقال إلى أي مكان في الأرض لطلب العلم هجرة في حد ذاته، وما ذاك، إلا لأنه يقرِّب حامله العامل بمضمونه إلى ربه، ويجعله أكثر خشية منه وخوفاً. ولذا يقول عز شأنه:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾(١).

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

وبطريق أولى، فإن هجرة الإنسان بدينه من الظالمين، خوفاً من أن يفتنوه، أو يعيدوه في ملة الكفر بعد أن شرح الله صدره للإيمان، ولكي يمارس شعائره بضمير مرتاح ونفس مطمئنة دون خوف أو تقية، هي هجرة إلى الله، بل جهاد أيما جهاد، إذ تكشف عن إخلاص وانقطاع إلى الله سبحانه لا يدانيه شيء...

وليس من المتعين علينا بهذا الصدد، أن نفهم الهجرة هنا، بمعناها الاصطلاحي. بل يمكن أن نعمم مفهوم الهجرة، إلى ما يشمل أي شكل من أشكال الانفصال بين الإنسان المؤمن، وبين المجتمع المنحرف الذي يعيش فيه.

ولذا يمكن أن تصدق الهجرة حتى على مجرد اعتزال الإنسان للبيئة الكافرة، حتى ولو لم يضرب في الأرض مبتعداً عنها.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن العديد من الهجرات ـ بهذا المفهوم ـ التي قام بها أشخاص يمثلون كل الأصناف التي يتكوّن منها المجتمع البشري، انطلاقاً من القمة وانتهاءً بالقاعدة على امتداد التاريخ...

فقد حكى سبحانه عن هجرة إبراهيم عند اعتزاله لقومه الكافرين:

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾[1].

وعن موسى عندما هاجر من مصر إلى مدين:

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٨.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾[1].

وعن صالح:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

وعن أهل الكهف:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾[3].

وعن عيسى:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾[4].

وكذلك عن مريم، وزكريا، ونوح، ولوط، وهود وغيرهم...

الهجرة المضادة

وهناك نوع آخر من الهجرة، هجرة يكون منشؤوها انحراف الفطرة البشرية عن الطريق السّوي، وتغلّفها بأقذار المادية، وتمرغها بأوساخ الحياة الدنيا.

هجرة مضادة، لأنها هجرة إلى الكفر والإلحاد. وهجرة إلى الشيطان والطاغوت...

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٩.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٦.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

مقياس واضح

إذن. . . يوجد مقياس واضح، بين الهجرة التي أرادها الله سبحانه، وحثّ عليها، وبين الهجرة التي نهى عنها وحذر منها. . .

ذلك المقياس هو . . . الله. .

فكل هجرة تكون إلى الله، بمعنى أن يكون الهدف منها أمراً ينسجم مع كلمة الله وإعلائها في الأرض، وترمي إلى الدفاع عن دينه، وحماية شريعته، تكون هي الجهاد، وتكون هي العطاء. . .

في حين، أن أية هجرة تكون لتحقيق هدف يعاند الخط الإلهي، وليست في صالح المجتمع العابد في الأرض، ولا في مصلحة الإنسانية الصالحة، فهي هجرة مضادة، وتكون هجرة إلى محاربة الله والصدّ عن سبيله. . .

ولعل قول رسول الله ﷺ يوضح هذا المقياس:

«أيمّا رجل هاجر إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. وأيمّا رجل هاجر لدنيا يطلبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه. . .».

عوْدٌ إلى أجواء الآيات

ويأتي النهي الصريح من الله سبحانه للمؤمنين، عن أن يكونوا في خروجهم الذي تتحدث عنه سورة الأنفال، وهو الخروج إلى بدر، أو في أي خروج لهم في مستقبل الزمان، بعقلية وروحية خروج المشركين إلى بدر، ونفرهم لملاقاة المسلمين في تلك الوقعة.

عقلية الجاهلية المسفّة، بكل ما ترمز إليه من صلف، وكبرياء

أجوفين، يغلّفهما البطر، ويحدوهما الرياء، ويحمل رايتهما الشيطان بما ينتقش عليها من ألوان الإغراء والوعود الكاذبة، التي تحجب الرؤية الواقعية للأشياء، حيث تجرف الإنسان بعيداً عما رُسم له من حدود، وأوتي من إمكانات. . .

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾.

والمقصود بالذين خرجوا من ديارهم، والذين نهي المؤمنون عن التمثّل بهم في منطلقات خروجهم ودوافعه ومواصفاته، المشركون الذين هبوا بقيادة أبي جهل، ليدافعوا عن العير التي تحمل تجارتهم وأموالهم، عندما بلغهم خبر خروج المسلمين من يثرب للاستيلاء عليها. . .

مصبّ النهي الإلهي

ومن الواضح، أن مصبّ النهي الإلهي للمؤمنين في المقام، إنما هو بلحاظ الدوافع والأهداف التي كانت تدفع وتجذب أولئك العتاة المشركين في خروجهم المذكور.

وهذه الدوافع والأهداف هي بنص الآية الكريمة ثلاثة:

البطر، والرياء، والصد عن سبيل الله.

﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وهذه الدوافع والأهداف، كلها في نظر الإسلام، أمراض نفسية، وجرائم خلقية، لها آثارها الموضوعية الفاسدة، لا على صعيد صاحبها فقط، وإنما على صعيد المجتمع الإنساني ككل.

لقد أراد الإسلام أن يوجد المجتمع العابد في الأرض. ولا يُعقل أن يوجد مثل هذا المجتمع، إلا عندما يتربّى فيه الفرد والجماعة تربية نفسية وخلقية، تسمو به عن الانحطاط والتمرغ في حمأة الرذيلة، والتلّوث بالصفات القبيحة المنفرة. والابتعاد عن محامد الأفعال ومكارم الخلال.

البطر مرض نفسي

والبطر لغة عبارة عن الأشر والحيرة والدهش من قلة احتمال النعمة، والطغيان بها، وقلة القيام بحقها، وصرفها إلى غير وجهها.

وقد ذكر البطر بهذا المعنى في القرآن المجيد، في مقام ذم أولئك الذين لم يصبروا على نعم الله الكثيرة، فلم يرعوها حق رعايتها فيقول سبحانه:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾[١].

وبطر الحق: تكبّر عنه ولم يقبله، ولا يراه حقاً.

وبطر الشيء: كرهه من غير أن يستحق الكراهة.

هذه هي الوجوه التي يفسّر بها معنى البطر. وهي كلها إن كشفت عن شيء، فإنما تكشف عن أن الإنسان البطر، هو مخلوق غير سوي التكوين النفسي، يعاني العقد والانحرافات. ويحسّ في أعماقه بالاتضاع الذي يحاول أن يعوّض عنه بالتعالي على الحق وأهله، وتنكّب طريقه، ومعاداة أتباعه.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٨.

والبطر بجميع وجوهه، قد تجسّد في سلوك أبي جهل وزمرته الحاقدة في بدر. . .

يعكس ذلك ما ينص عليه القرطبي[1] حيث يقول: «وكانوا ـ يعني المشركين ـ قد خرجوا بالقيان والمغنيّات والمعازف. فلما وردوا الجحفة، بعث خُفاف الكناني ـ وكان صديقاً لأبي جهل ـ بهدايا إليه مع ابن له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال. وإن شئت أمددتك بنفسي مع من خفّ من قومي. . .».

ثم يكمل القرطبي، مصوراً ذلك التعالي الفارغ، والغرور الأجوف، والصلف الأحمق، والتجبر الأخرق الذي يطفح به جواب أبي جهل على عرض صديقه خُفاف فيقول: «إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة. والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً، فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان. . .».

والله سبحانه، في مقام تنبيه المؤمنين إلى شرور هذا المرض النفسي، البطر، ينهاهم من أن يقعوا في مخاطره التي من أوضحها البُعد عن الله، واستيجاب غضبه ونقمته. بل عليهم في المقابل أن يدركوا مدى نعم الله عليهم. ويتذكروا باستمرار كيف كانوا، وإلى ماذا صاروا بفضل تلك النعم المتواترة. ثم يعرفوا مصدرها فيؤدوا حقها، بشكرها على الوجه المطلوب، ليكون ذلك الشكر سبباً للمزيد من النعم كما وعد رب العزة.

---

(١) تفسير القرطبي ٨، ص٢٥.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١].

الرئاء: لغة في الرياء، وسُهّلت الهمزة إلى الياء لسلاسة اللفظ. وهو مصدر راءى.

الرئاء أو الرياء: عبارة عن «فعل لا تدخل فيه النية الخالصة، ولا يحيط به الإخلاص».

أو هو «ترك الإخلاص في العمل، بملاحظة غير الله فيه. وهو فعل الشيء لإرادة الغير»... والفرق بينه وبين السمعة، أن الرياء يكون في الفعل، والسمعة تكون في القول...

وقد يطلق على تظاهر الإنسان بخلاف ما يبطن[٢].

ومنه قول الشاعر التهاميّ:

ثوب الرياء يشفّ عما تحته   فإذا التحفت به فإنك عار

وقد ورد بالمعنيين في كتاب الله تعالى:

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[٣].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[٥].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٢) راجع محيط المحيط للبستاني مادة رأي.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٤) سورة الماعون، الآيتان: ٦ ـ ٧.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣٨.

مطابقة الحكم للموضوع

والوجه في انطباق هذا المرض النفسي على المقام الذي تتحدث عنه الآية الكريمة، هنا في هذه السورة هو أن أبا جهل وزمرته، عندما خرجوا بهذا الشكل المسرحي الأجوف، بقيانهم ومعازفهم وأبّهتهم، إنما خرجوا للسمعة والمباهاة، وليحاربوا الحق والإيمان بأسلحة الطغيان والشيطان، دون أن يكون في حسابهم ذرة تفكير.

وتعكس ذلك كله، كلمة رأس الشرك أبي جهل، فيما يروي القرطبي عندما قال عند خروجه: «فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابُنا أبد الدهر. . .»[١].

الصدّ عن سبيل الله

الصدّ لغة المنع والصرف والدفع.

والسبيل لغة هو الطريق.

وقد أضيف في الآية الكريمة هنا إلى لفظ الجلالة.

ومما لا إشكال فيه، أن الله سبحانه، لمّا لم يكن جسماً، استحال عليه التحيّز في مكان. ولذا ليس المراد بسبيله، المعنى الحسّي للسبيل، بل كان المراد به كل ما يؤدي إلى القرب منه، ونيل رحمته ورضوانه من أعمال الخير والبرّ، والتزام جادة الحق والعدل. . . وذلك بامتثال أوامره، والانزجار عند زواجره.

---

(١) تفسير القرطبي ٨/ ٢٥.

ولقد كانت كل هذه القيم متجسّدة في رسول الله ﷺ، من خلال ما يُبلغه من رسالة السماء، التي أنزلت إليه فاعتنقها من كان معه من المؤمنين، الذين خرجوا إلى بدر امتثالاً لأمره، ليدافعوا عن تلك القيم ضد عتاة قريش، بقيادة شيطانهم الأكبر أبي جهل. الذين لم يكن همهم ـ حسب تصوّرهم الأخرق ـ إلا القضاء على الإسلام الحنيف، بكل ما يرمز إليه، من خلال القضاء على قوته الوليدة المتمثلة في جيش الإيمان ببدر.

ويصوّر هذه العقلية أوضح تصوير الكلمة التي أوردناها آنفاً ـ فيما يروي القرطبي، والتي صدرت عن أبي جهل عند خروجه إلى بدر «والله لا نرجع عن قتل محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان.. الخ»[1].

ولكن المشركين، بكل صلفهم وغرورهم، وريائهم وبطرهم، وبكل شراستهم في محاربة الله ورسوله والمؤمنين، لن يكون مصيرهم إلا الخزي والذل والهزيمة في الدنيا، والويل والثبور في الدرْك الأسفل من النار في الآخرة.

ومردّ ذلك، إلى أنهم مهما عظمت قوتهم، واشتد بأسهم، واتسعت رقعة امتدادهم المادي والمعنوي، فإن الله من ورائهم يسمع ويرى...

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

ومن المعلوم، أن الله سبحانه، عندما يحيط بالكافرين، ذواتهم وأعمالهم، فإن في ذلك هلاكهم لا محالة.

---

(١) تفسير القرطبي ٨/ ٢٥.

كما أن فيه فساد أعمالهم وفشلها. وعليه يُنزّل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١] وأشباهه.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

موقع الشيطان من واقع المشركين؟!

الشيطان في اللغة[٢] مأخوذ من شاط الشيء يشيط شيطاً وشياطة وشيطوطةً، احترق.

وعلى هذا تكون نونه زائدة، ووزنه: فعلان. ومعناه الهالك.

وقيل: هو من شطن، فتكون نونه أصلية، ووزنه فيْعال. ومعناه: البعيد عن الرحمة.

وكلا التفسيرين، ينطبق على هذا الكائن.

فيمكن أن يكون مأخوذاً من معنى الاحتراق، بلحاظ أنه مخلوق من النار، باعتبار أنه من الجن، بنص الآية الكريمة:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[٣].

والجن، مخلوق من النار بنص القرآن العظيم:

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[٤].

كما لا إشكال في أن هذا الكائن، مقصيّ عن رحمة الله، عندما تمرّد فطُرد، تلاحقه اللعنة، كما أخبر رب العزة سبحانه:

---

(١) الآية: ١٩.

(٢) راجع محيط المحيط للبستاني مادة (شاط).

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٢٧.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾[١].

وإبليس ـ مفرد أباليس وأبالسة ـ الذي ورد ذكره في عدة مواضع في القرآن، هو علم جنس للشيطان، الذي يطلق على إبليس وغيره.

وقيل، بأنه مأخوذ من أَبْلَسَ بمعنى: يَئِسَ وتَحَيّر.

«ونحن، لم نر كائناً من جنس خاص يسمّى شيطاناً، ولكن الوحي أخبر عنه، والعقل لا ينفيه، فوجب التصديق...»[٢].

وقد حدثنا القرآن الكريم، عن بعض خصائص هذا الكائن، ومجالات عمله، ويستفاد من مجموع ما ورد، أنه مخلوق منحرف، شرير، يحاول دائباً أن ينشر الضلال والفساد والافساد في الأرض، ولذا فهو متمحض للشر وفي الشر، ولذا يقول سبحانه عنه:

﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[٣].

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠﴾[٤].

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾[٥].

والخلاصة أنه لا يمكن أن يأتي منه إلا الرذيلة والشر، ولا يعقل أبداً أن يكون مصدر خير ورفعة لهذا المخلوق الإنساني. ولذا نجد الله سبحانه، يحذره منه، ومن أن يتّبع خطواته، مبيناً له أنه عدو منذ

---

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٤ ـ ٣٥.
(٢) شرح الصحيفة السجادية للشيخ محمد جواد مغنية ص١٦٤.
(٣) سورة النور، الآية: ٢١.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

غضب الله عليه، وأقصاه عن رحمته، وإلى يوم الوقت المعلوم عنده جلّت حكمته. قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[١].

وقال سبحانه مخاطباً أبا البشر آدم وزوجه:

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾[٢].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾[٣].

وسائل شيطانية

والوسائل التي يستخدمها في سبيل الوصول إلى هدفه الأكبر ذاك، عبارة عن التزيين والغش والاحتيال، والوسوسة والتثبيط والإغواء والإغراء، واتيان الإنسان من الطريق الأوفق بمزاجه، والأقرب إلى تصوراته وأهوائه.

وتحدثنا هذه الآية الكريمة، عن الأسلوب الذي اتبعه الشيطان مع مشركي قريش عند خروجهم إلى بدر لملاقاة جيش الإيمان بقيادة رسول الله ﷺ ومحاربته.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

فأسلوب التزيين إذن، هو الذي استعمله الشيطان مع هؤلاء القوم. أي تحسين ما ينوونه من أعمال، وذلك من جهتين:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٦.

الأولى: إنهم يطمحون إلى تدمير الإسلام، بالقضاء على حَمَلَتِه الذين وردوا إلى بدر، وفي طليعتهم الداعية الأول رسول الله ﷺ. وقد حسَّن الشيطان لهم ذلك، بجعلهم يتوهمون أنهم بمقدورهم تحقيق هذا الحلم القديم بثوب جديد، وأسلوب جديد. وقد وافق هذا التحسين الشيطاني، هوى في نفوسهم الشريرة، فاندفعوا نحو تحقيقه دون تقدير ولا تدبير...

الثانية: إن المشركين، بحكم انقطاعهم عن الله، وإخراجه عن دائرة تفكيرهم السقيم، وحصرهم أنفسهم ضمن دائرة الجسد، وتمرغهم بعالم الضرورات، كان لا بد وأن تحكمهم العقَدُ والأمراض النفسية الخطيرة، التي تحول بينهم وبين الرؤية الواضحة، والنظرة الصالحة البعيدة، وذلك كالرياء والبطر والحقد، والنظرة المصلحية الضيقة.

وبسبب تعاميهم عن الحق، وإغلاق عقولهم دونه، صح أن يطلق على الصفات الخسيسة التي اتصفوا بها، والأمراض الخطيرة التي عشعشت في أعماق نفوسهم، فباتت تفعل فيهم فعلها المدمّر، إنها أعمالهم دون غيرهم.

وكان دور الشيطان الرجيم، أنه راح يحسّن لهم هذه الصفات الذميمة، بتصوير أنها خير لهم، ويصدهم بذلك عن الخير الحقيقي، الذي جاءت به رسالة السماء، والمتمثل في الإيمان بما يستتبعه من التحلي بالقناعة والإخلاص لله قولًا وعملًا، والتواضع والواقعية، وكفِّ الأذى عن خلق الله... فأتاهم بذلك من الزاوية التي تستهوي نفوسهم الضعيفة.

ومن هذه الزاوية بالذات، راح يضرب على وتر حسّاس عند العرب، حيث نفخ فيهم روح الحمية الجاهلية، وتعهد بأن يكون لهم مجيراً ضد أعدائهم، ونحن نعلم بما للجوار من نظرة قداسة في نظرهم. وإلى هذا أشار سبحانه بقوله:

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ﴾.

والمقصود بالناس، رسول الله ﷺ وأصحابه.

وجار لكم: يعني مجير لكم، أحفظكم وأدفع عنكم، وأغيثكم. «تقول العرب: هو في جواري، أي في عهدي وأماني...»[1].

تعهُّد شيطاني حار... ولكن؟!

هكذا كان تزيين الشيطان، وتزويقه!!!

وهذه عهوده ومواثيقه...

ولكن... ماذا كانت النتيجة...؟

النتيجة لهذا التزيين والتزويق، ولتلك العهود الشيطانية، معروفة واضحة للإنسان الذي ارتبط بالله، واتبع هداه، فاطّلع على حقيقة الشيطان وأساليبه، ووعى منطلقاته وأهدافه، ودوره الذي اختاره في هذه الحياة... ذلك أن الإنسان المؤمن، يدرك، أن مَنْ خان عهده مع الله وعصاه بتمرّده عليه، فاستوجب بذلك طرده وإقصاءه...

إن مَن كانت حاله خيانة العهد مع الخالق، لا يُعقل أن يكون له عهد مع المخلوق.

---

(١) راجع محيط المحيط للبستاني مادة/ جَوَرَ.

ومن هنا، يدرك الإنسان المؤمن، أن تزيين الشيطان للإنسان، ووسوسته وحبائله، ما هي إلا غرور في غرور، كما أخبر رب العزة سبحانه:

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[1].

وُعودٌ... ووُعودٌ

والفرق واضح بين وعود الشيطان الكاذبة، التي لا تخرج عن دائرة الغرور والتغرير، والأماني الخادعة، وبين الوعود الإلَهية التي لا سبيل إلى تطرّق التشكيك فيها، أو خُلفِها...

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2].

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾[3].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[4].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[5].

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[6].

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[7].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٦١.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤٧.
(٥) سورة مريم، الآية: ٦١.
(٦) سورة الروم، الآية: ٦.
(٧) سورة المزمل، الآية: ١٨.

نكوصٌ وتنصُّل

نعم. . .

نتيجة هذا التزيين والتزويق، والتغرير الشيطاني، نكوص وتراجع، وتبرّؤ وتنصّل. . .

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

والنكوص: الرجوع إلى الوراء ماشياً القهقرى.

هكذا كان حال الشيطان، بعد أن تلاقى الجيشان، جيش الكفر وجيش الإيمان في بدر.

تخاذل وهلع وخوف، بعد جرأة وحماس وإقدام!!

وتنصّل وتبرّؤ من كل عهد ووعد وجوار!!

وكل ذلك من الشيطان ـ بناءً على ما عرضناه قبل قليل ـ شيء طبيعي. بعد أن كان دوره مقتصراً على الإغواء والخداع والتمويه. ووظيفته تنتهي بإيقاع أتباعه ومريديه في المهلكة والتيه. من دون أن تكون لديه القدرة على الإنقاذ، والدفع ودرء الأخطار. وفي تلك اللحظة التي لا يعود ينفع ندم، ولا فطنة ولا حذر. . .

هذا إضافة، إلى أن الشيطان ـ بحكم طبيعته الشيطانية، وانسجاماً مع دوره المذكور ـ مخلوق يستطيع أن يرى ما لا يراه الإنسان ذو الطبيعة المختلفة. ويدرك حقيقة عجزه أمام إرادة الله وبطشه وتدبيره.

ولقد نظر فرأى أمامه رسول الله متضرعاً في خيمته إلى ربه، منعطفاً إليه، متوسلًا بأن ينجز له ما وعده من النصر. ثم نظر فرأى معه رجالًا قد محضوا الإيمان محضاً ومحضهم الإيمان محضاً بهذا الرسول وبما جاء به من عند ربه، حتى خالط مشاش عظامهم، ومجاري أنفاسهم، وومضات عقولهم، فعرف أن هؤلاء ممن أنذره الله سبحانه لحظة اقصائه عن رحمته، بأنه ليس له عليهم سلطان، ولا له إليهم سبيل:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[1].

فأخذته الرعدة، وتملّكه الخوف، وتبرأ مما عمل ويعمل أبو جهل وزمرته، الحاقدة، وتراجع ناكصاً على عَقِبيه، ولسان حاله يقول ما ذكره رب العزة.

والعقب: مؤخر القدم.

للطبري رواية... ولنا رأي

ويروي الطبري[2] رواية عن ابن عباس، يبدو منها أن الشيطان قد تشكّل يوم بدر، في صورة رجل كبير تعرفه قريش، يرافقه جند من الشياطين. وأنه قال ما قاله حسب ما ذكرته الآية الكريمة، مشافهة ومواجهة. وأن نكوصه بعد ذلك، كان بشكل حسيّ ومرئي للمشركين. . .

يقول الطبري: «جاء إبليس يوم بدر، في جند من الشياطين،

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٢) الجزء١٤، ص٧.

معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج. والشيطان في صورة سراقة ابن مالك بن جعشم. فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطفّ المسلمون، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب، فرمى بها في وجوه المشركين، فولّوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع إبليس يده فولّى مدبراً هو وشيعته. فقال الرجل: يا سراقة، تزعم أنك لنا جار؟ قال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب. وذلك حين رأى الملائكة...».

ونحن بملاحظة ما عرضناه سابقاً، حول الخلاف في كيفية اشتراك الملائكة في معركة بدر اشتراكاً فعلياً، أو أنه مجرد حضور رمزي، قُصد من ورائه شد أزر المؤمنين، ورفع معنوياتهم ليس إلا، وترجيحنا لهذا الرأي الثاني مؤيداً بالنص القرآني:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾.

إضافة إلى ما عرضناه هناك أيضاً، من أنه برسالة رسول الله ﷺ قد ختمت فلسفة نصر الله رسالاته بالمعجزات والخوارق، وابتدأت مرحلة جديدة أراد الله فيها لرسالاته، أن تنتصر بالأسباب الطبيعية الموجهة بكلمات الله ونداءاته، وتربية النفوس وتنشئتها على وفق هَدْي قرآنه العظيم، وسنّة رسوله الكريم...

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، يستشعر القارئ لرواية الطبري، أن فيها نوعاً من التكلّف بل التطرف.

فإننا، بعد أن أحطنا بوظيفة الشيطان فيما يعود إلى الإنسان، لا نرى أية حاجة لتمحّل أنه في موقعة بدر، قد تشكّل في صورة رجل معروف لدى المشركين هو سراقة، ومخاطبته لهم مشافهة. بل يكفي ـ انسجاماً مع دوره ـ أن يوسوس لهم، ويزين أعمالهم، ويستثير حيوانيتهم وأهواءهم الضالّة، فيندفعوا نحو تحقيق ما يريد. . .

وما ورد في الآية الكريمة، مما قد يوهم بأنه خاطب به المشركين: ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ إلخ. غير تام. لإمكان أن تكون الآية الكريمة، في مقام حكاية ديدنه وطريقته، عندما يصل إلى تحقيق غرضه بالنسبة إلى مَنْ يضلّهم ويغويهم، في حديثه مع نفسه لا معهم. «ومثل هذا الخطاب، لا يتوقف على سماع المخاطبين له، حتى في خطاب الناس بعضهم لبعض. . .»[1].

ويؤيد هذا ما أشار إليه قوله تعالى:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[2].

إضافة إلى أن الرواية تنصّ على أن النبي ﷺ، عندما رمى وجوه المشركين بقبضة من تراب، ولّوا مدبرين، ولم يبقَ إلا إبليس وجنوده. . . !!

عجيب هذا الأمر. . . !!! ولماذا يبقى. . . ؟

ألأنه ليس مشركاً، فلم يؤثر فيه ذلك التراب. . . ؟

(١) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٢٨/١٠.
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٦.

أو لأنه لا يرى للنبي قيمة ولا يرهب له جانباً...؟

ثم تنص الرواية، على أن جبريل عندما أقبل إلى إبليس رآه، وكأن إبليس لم يستطع أن يرى جبريل إلا عندما أقبل نحوه..!!

والغريب في الأمر، أن الرواية تنص، على أن يد إبليس كانت في يد رجل من المشركين، فانتزعها منه عندما رأى جبريل.

فأين كان هذا الرجل عندما رمى النبي التراب في وجوه المشركين...؟

ولِمَ لَمْ يُوَلِّ مع مَنْ ولىَ منهم...؟

وكيف نجمع بين بقائه ـ كما تدّعي الرواية ـ وبين فرار المشركين دون استثناء ـ بإطلاق الرواية أيضاً.

ثم، أخيراً، هل أن جبريل أشد وطأة على إبليس من رسول الله ﷺ؟

لأجل كل هذه الهنات في رواية الطبري، لا نطمئن إلى الأخذ بها. إضافة إلى عدم احتياجنا في فهم الصورة، إلى ارتكاب مثل هذه التمحّلات التي لا يدعمها عقل ولا نقل.

درس وعبرة

بعد هذه الجولة مع الآية الكريمة، نخرج بدرس واضح، أراد الله سبحانه للمؤمنين جماعات وفرادى، أن يعقلوه. وهو أن الشيطان، بحكم دوره في هذا الكون، ووظيفته في هذه الحياة، يمثل قمة الانحراف عن طريق الله، وبؤرة الشر في هذا العالم. ويُعتبر بحق،

المخلوق المخلص لذلك الدور ولتلك الوظيفة، حتى أن واعظاً قديماً كان يعظ الناس، فيطلب منهم أن يكونوا في الإخلاص لله، مثل إبليس في إخلاصه للطاغوت.

ولعل ذلك الواعظ، كان قد اطلّع على كلمات الإمام زين العابدين علي بن الحسين السجاد عليه السلام في مقام التعوّذ من الشيطان حيث يقول: «اللهم صلّ على محمد وآله، وأمتِعْنا من الهدى بمثل ضلالته» ـ أي إبليس ـ.

ومن هنا، ينبغي للإنسان المؤمن، أن يراقب نفسه باستمرار، لئلا يأتيه الخبيث من حيث لا يشعر. وأن يتمتع بدرجة عالية من الوعي والإدراك، لئلا يقع في مكائده وأحابيله. وأن يكون على الدوام، مستحضراً لله في قلبه وعقله، ملتجئاً إليه في كل حالاته. سائلًا ربه أن يعيذه منه ويكفيه شره.

ولنختتم هنا، بكلمات للإمام السجّاد عليه السلام في دعاء له:

«اللهم إنا نعوذ بك من نزغات الشيطان الرجيم، وكيده ومكائده، ومن الثقة بأمانيه ومواعيده، وغروره ومصائده. وأن يُطمع نفسَه في اضلالنا عن طاعتك. وامتهاننا بمعصيتك. أو أن يحْسُن عندنا ما حَسَّنَ لنا. أو أنْ يَثْقُلَ علينا ما كرَّه لنا».

* * *

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)﴾.

المنافق: اسم فاعل من نَافَقَ. وهو ذلك الإنسان، الذي يبدي الإيمان بلسانه ويبطن الكفر.

أو هو ذلك الإنسان الذي شهد وعمل ولم يعتقد.

والفرق بينه وبين الفاسق، أن هذا الأخير مَنْ شهد واعتقد ولم يعمل.

وهذه الزمرة المنحرفة، المنافقون، نظراً لخطورتها على الإيمان وأهله، بلحاظ خفاء أمرها، باعتبار اظهارها الإسلام وابطانها الكفر، كانت تشكّل الرتل الخاسر في صفوف المسلمين، حيث راحت ـ بعدما يئست من هدم الإسلام والقضاء عليه مواجهة ـ تحاول تدميره من الداخل. وذلك بنشر الأراجيف والأباطيل، وبثّ الإشاعات والأكاذيب، بقصد خلخلة الجبهة الداخلية للمسلمين، ونشر صور التشكيك في عقائد المسلمين، وتشويهها بقصد إيجاد نوع من البلبلة الفكرية في عقولهم.

انطلاقاً من موقع الخطورة، الذي يحتله هؤلاء المنافقون في البنية الإسلامية، وردت الآيات الكريمة، في مواضع شتى من كتاب الله، تحذّر المسلمين منهم. وتكشف جوانب من لؤمهم وحقدهم. وتلقي الضوء على أساليبهم الخبيثة وطرائقهم الدنيئة. وقرن ذكرهم بذكر المشركين والفاسقين. وحذرهم من التمادي في غيّهم، وأنه سوف يكشف أستارهم، وينقض ما أبرموا، ويردّ كيدهم إلى نحورهم، قال سبحانه:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ

وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢)﴾[2].

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)﴾[3].

ولقد ذاق رسول الله ﷺ والمسلمون من هذا الرتل، رتل المنافقين الأمرّين، في بداية الدعوة المباركة، خاصة في المدينة، التي كان يرأسهم فيها عبد الله بن أبي سلول.

وجاءت هذه الآية الكريمة، لتذكّر رسول الله ﷺ والمؤمنين، بما كان عليه حال هؤلاء المنافقين، الذين تواجدوا ببدر قُبيل المعركة، فحاولوا عندما رأوا قلة المسلمين عدداً وعُدة، وكثرة المشركين العددية، وقوتهم العُددية، أن يشكّكوا في وعد الله للمؤمنين بالنصر، وأخذوا يصوّرون الأمر على أنه مجرد تغرير وخداع. بل لا

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٢) سورة الحشر، الآيتان: ١١ ـ ١٢.
(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٦٧ ـ ٦٨.

يعدو أن يكون عملية نحر جماعية قام بها من أخرجهم من ديارهم، وهو رسول الله ﷺ . . .

وقد تابعهم في ذلك بعض ضعاف النفوس والإيمان ممن لا خلاقَ لهم، ولا إخلاص عندهم من المسلمين، تلك الفئة التي حاولت عرقلة مسيرة الإيمان في أولها ـ كما سبق وبيّنا في مطلع هذه السورة ـ فراحت تجادل رسول الله ﷺ في جدوى الخروج ومنطقيته.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴿٦﴾﴾.

هؤلاء المنافقون ومتابعوهم من ضعاف الإيمان، هم الذين عناهم الله في هذه الآية:

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾.

ويحتمل أن يكون المراد من الذين في قلوبهم مرض، المنافقين أنفسهم، وسيقت الواو هنا، لتأكيد الصفة لهم، وبيان أنها لا يعقل انفكاكها عنهم، بلحاظ كون النفاق من شؤون القلب لا غير، كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴿٧٧﴾﴾[١].

وقد روى الطبري[٢]، أن المقصود بذلك، فئة من قريش،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٧.

(٢) تفسير الطبري ١٤، ص١٣ وراجع أيضاً مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٥٠.

أسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم، وهم: قيس بن الوليد بن المغيرة. وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة. والحارث بن زمّعة. وعلي بن أمية ابن خلف. والعاص بن منبّه بن الحجاج. وكان هؤلاء قد خرجوا مع قريش من مكة. . .

ومهما يكن من أمر هؤلاء المنافقين، فإنهم إنما قالوا مقالتهم تلك، منبعثين فيها من واقعهم العقيدي المنحرف عن طريق الله، المؤطر بأطر أهوائهم وأوهامهم وأباطيلهم، المجبول بالطين والتراب، المختلط برائحة الوحل. فمن الطبيعي إذن، أن يسيئوا الظن بالله وبرسوله، هذا الظن السيئ، الذي يعتبر سمة أهل الكفر والانحراف على امتداد تاريخ رسالات السماء:

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾[2].

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾[3].

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[4].

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[5].

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾[6].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٢.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الفتح، الآية: ١٢.
(٤) سورة الحشر، الآية: ٢.
(٥) سورة القصص، الآية: ٣٩.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٣٥.

هذا إذن باستمرار، واقع أهل الكفر والانحراف، يقيسون الأمور بمقاييسهم الفاسدة، وينظرون إليها من الزاوية التي ترسمها عقولهم السقيمة، وأفكارهم العوجاء. . .

أما المؤمنون، أما أهل البصيرة في الدين، فإنهم ينظرون بعين الله، ويخترقون بنظرتهم تلك الحجب، ويحطمون حواجز الحس، بإطلاقهم العنان لعقولهم، آبين أن تكبّلها عادات بيئة، أو مواضعات بشر. ذلك كله من جراء ارتباطهم بخالقهم، الذي يدركون من خلال آثار عظمته، مدى إحاطة قدرته، وعظيم جبروته. ويوقنون بأنه معهم أينما كانوا، وكيفما كانوا. وأنه يرعاهم ويسدّد خطاهم ما داموا في طريقه سائرين، ولأوامره مطيعين، فيسلّمون أمرهم إليه، ويتوكلون عليه.

وكيف لا، وهو العزيز المنيع الذي لا يذل من التجأ إلى كنفه. الحكيم الذي لا يضلّ من اتبع هداه. . . وكان سبحانه عند حُسن ظن عبيده المؤمنين، فكانت لهم الجنة، وكان لهم النصر.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

* * *

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

بعد أن عرض الله سبحانه في الآيات السابقة، موقف المشركين من رسول الله ﷺ والمؤمنين في بدر، وكيف أنهم اتبعوا خطوات

الشيطان، فكان ذلك سبباً في خزيهم الدنيوي بعد أن قُتل صناديدهم، ودُمّرت قوتهم، وفُضحوا بين العرب.

بعد هذا كله، أراد سبحانه، أن يلفت أنظار المؤمنين، إلى أن الانتقام الإلهي منهم، وما لحق بهم من عار وخزي، لن يقتصر على ما حصل لهم في الدنيا. بل إن ذلك الانتقام وهذا الخزي، سوف يلاحقانهم حين قبض أرواحهم من قبل الملائكة، وحتى بعد قبضها، إلى أن يردُوا النار التي أعدَّت للكافرين. وهو ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

إن الآية الكريمة، تنص على أن الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، عندما يريدون قبض أرواح الكافرين مطلقاً، إنما يفعلون ذلك مترافقاً مع نوع من التعامل المستبطن للإهانة والتحقير. وذلك بضرب وجوههم وأدبارهم.

والأدبار: جمع دُبُر، وهو نقيض القُبُل، ومعناه الظَّهر أيضاً.

وإنما خُصَّ الضرب بالوجه والظهر، أو الاستِ على قول، لأنه يكون أشد تحقيراً وتوهيناً من ضرب غيرهما.

وتقابل هذه الصورة المزرية لقبض أرواح الكفار، صورة جميلة لقبض أرواح المؤمنين من قِبَل الملائكة. فيها لطف، وفيها رقة، وفيها رأفة ورحمة.

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٦.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾(١).

فما أبعد الشقة بين هذه الصورة المؤطرة بالتكريم، وبين تلك الصورة المحبوكة بألوان التحقير والتوهين.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾.

وقيل ـ وربما كان الأقرب بمقتضى مناسبات الحكم والموضوع ـ إن موضع الفعل المحكي عن الملائكة بالنسبة للكفار، إنما يكون يوم القيامة. إذ إن الضرب بهذا الشكل جذباً ودفعاً، إنما هو من شؤون السوق ومقتضياته، الذي يحدثنا القرآن الكريم، أنه من الصور المتكررة والمألوفة يوم الجزاء، يقول سبحانه:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾(٢).

وعليه، يكون المقصود بعذاب الحريق، العذاب بواسطة الإحراق في نار جهنم.

وإنما كان كل ذلك التحقير، وتلك الإهانات عند قبض

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الزمر، الآيتان: ٧١ ـ ٧٢.

الأرواح، وعند السَّوق إلى جهنم. كما كان هذا العذاب الشديد والعقاب الغليظ، نتيجة حتمية لتكذيب الكافرين برسالات السماء. وصدّهم عن سبيل الهدى، وطريق الخير والرشاد، ومحاربتهم الله ورسُله والمؤمنين، سواء بالفعل أو القول. بلا فرق بين أن يكون الفعل المأتي به بالأيدي أو بالأرجل، أو بأي عضو آخر من أعضاء أجسادهم:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وإنما نسب ما يقوم به الكفار من محادّةٍ لله ولرسله ورسالاته إلى خصوص الأيدي، تغليباً، إذ إن أكثر ما يصدر عن الإنسان من أفعال حسّية، إنما تتم بواسطتها.

ولا يظنَّن ظانّ، كافراً كان أو غيره، أن في هذا الجزاء الإلهي القاسي، حيفاً أو ظلماً. لأن الله سبحانه هو العادل المطلق، الذي لا يجور على مخلوقاته في حكم. وإنما هو حصاد ما زرعوا، ونتاج ما بذروا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

* * *

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

تمهيد

بعد أن بيّن الله سبحانه في الآيات المتقدمة، جانباً من عناد مشركي قريش للحق، وكفرهم به، ومحاربتهم بكل الوسائل المادية والمعنوية لأهله، مع بيانه عاقبة عنادهم ذاك، وكفرهم ومحاربتهم، وكيف أنها كانت عاقبة مهينة قاسية.

بعد كل ذلك، أراد سبحانه أن ينبّه جماعة المؤمنين، في كل زمان ومكان، إلى القواسم المشتركة بين الأمم في كل عصر. ويبيّن أن هنالك مقدمات متشابهة تسعى إلى ترتيبها والتصرّف على وفقها، كل قوى الكفر والانحراف في الأرض، على اختلاف مواطنها ومواطئها ومشاربها.

وبالتالي، فإن لكل مقدمات نتائج تترتب عليها، بل يستحيل أن تنفك عنها.

وكما المقدمات هي هي، فالنتائج لا بد وأن تكون هي هي أيضاً.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾.

وقد ذكر سبحانه هنا، نموذجاً من القوى المنحرفة عن طريق الله... آل فرعون...

والدأْب: بتسكين الألف، وتحريكه بالفتح (دأب) مصدر دَأَبَ يَدْأَبُ بمعنى العادة والشأن. ومنه قول امرئ القيس:

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والكاف في ـ كدأب ـ بمعنى مثل...

يخبرنا الله سبحانه في هذه الآية، أن العادة والشأن لدى مشركي قريش، بالنسبة إلى رسالة السماء التي جاء بها محمد ﷺ رسول الله، ومن آمن بها، عيناً مثل شأن آل فرعون ومن تابعهم في مسيرتهم المنحرفة من بني إسرائيل بالنسبة لموسى وبقية أنبيائهم من قبل ومن بعد.

وعيناً مثل شأن بقية الأمم على امتداد التاريخ، من أنبيائها قبل بني إسرائيل وبعدهم.

أية أمة من الأمم الغابرة، اطّلعت على حالها، تجد أنها ـ باستثناء قلة منها ـ كذبت نبيّها الذي بعث لهدايتها وإرشادها إلى سعادتها في الدارين:

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾[3].

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾[4].

---

(١) سورة هود، الآية: ٣٢.
(٢) سورة هود، الآية: ٥٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٦٢.
(٤) سورة هود، الآية: ٩١.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦﴾[١].

هكذا إذن، كان جواب الأمم السابقة لرسلها، تكذيب وتسفيه لهم، ورفض لرسالات الله وكفر بها...

وهكذا أيضاً، كان حال فرعون ومَلَئِه بالنسبة لموسى عليه السلام ورسالته التي بُعث بها من عند ربه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧﴾[٢].

مشركو قريش... وآل فرعون... مواطن تشابه والتقاء

ولعل اختيار فرعون ومَلَئِه هنا كنموذج، كان لوجود قواسم مشتركة، بين كفر هؤلاء وكفر قريش.

وأساليب طغيان فرعون، مع أساليب طغيان طغاة قوم رسول الله ﷺ.

فمثلًا، رسول الله محمد ﷺ كان قد ولد وترعرع وشب وعاش بين ظهراني قومه إلى أن بلغ الأربعين، وهم طيلة تلك المدة يواكبون مسيرة حياته فيجدون فيه الصادق المصدّق، الأمين المقدم، والسيد المهاب الوقور، أخلاقه لا يدانيه فيها أحد منهم، ورجاحة عقله تشع على قومه نوراً وحكمة واتزاناً، ومع ذلك كذبوه عندما أمر بتبليغ رسالة ربه...

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٦.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٩٦ ـ ٩٧.

وموسى ـ أيضاً ـ كان قد ولد وترعرع وشب وعاش فترة من عمره ليست بالقصيرة بين ظهراني بني إسرائيل، بل في بيت آل فرعون بالذات، عندما التقطوه بعد أن خافت أمه عليه من بطشهم فألقته في التابوت باليم، ولمحوا فيه من خلال معايشته لهم دلائل النجابة وعلائم النباهة والشجاعة والإقدام، ومواقف نصرة المظلوم ودفع الظالم، ومع ذلك كذبوه عندما أمر بتبليغ رسالة ربه. . .

ورسول الله محمد ﷺ حاول عتاة قريش أن يجرّبوا معه أسلوب الإغراء بالجاه والمال والسلطان على أن يقلع عن دعوته، ويخون أمانته فرفض بحزم وجزم.

وفرعون ومَلَؤه حاولوا نفس الأسلوب مع موسى مذكرين إياه بأياديهم عليه عندما تولوا عملية تربيته وتعليمه إلى أن شبَّ عن الطوق، فرفض أيضاً بحزم وجزم.

عُتاة قريش استعملوا كل أساليب البطش والتنكيل، مع منْ تابعوا رسول الله ﷺ واعتنقوا الدين الجديد الذي جاء به من عند الله، ظناً منهم بأن ذلك سوف يؤثر في المسيرة الإلهية، ويمنع الناس من أن يدخلوا في الإسلام. . . فخاب ظنهم وفشلت خطتهم. . .

وفرعون ومَلَؤه استعملوا نفس الأساليب، من قتل وتنكيل ببني إسرائيل، حيث كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ليكنّ إماءً في بيوت آل فرعون، فكان ذلك حافزاً عظيماً لموسى عليه السلام على مواصلة الدرب، والعزم على الاندفاع برسالة السماء إلى الأمام، واضعاً نصب عينيه تخليص شعبه من هذا البلاء العظيم، بعد تدمير فرعون وسلطانه، وجعل زمام المبادرة بيد مستضعفي قومه. . .

مشركو قريش، دبّروا مؤامرة لقتل النبي ﷺ، تقوم على أساس أن تشترك فيها كل أفخاذ قريش، عدا بني هاشم، ليتوزع دمه في القبائل فيأمنون من الأخذ بالثأر، فباؤوا بفشل ذريع، عندما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفداه أمير المؤمنين علي عليه السلام بمبيته على فراشه والتحف ببردته، فظنه القوم أنه هو.

وفرعون ومَلَؤه ائتموا بموسى ليقتلوه وكما خرج محمد ﷺ من مكة مهاجراً إلى يثرب، كذلك موسى عليه السلام خرج من المدينة خائفاً يترقب. . .

وعتاة قريش حاربوا الإسلام في شخص رسول الله ﷺ عندما اتهموه بالجنون والكذب والسحر، وكذا فرعون ومَلَؤه جابهوا موسى عليه السلام بنفس هذه الاتهامات.

وأخيراً، كما جرّد فرعون جيشه للحاق بموسى ومن آمن معه فأغرقهم الله في اليم، جزاءً وفاقاً لكل ما ارتكبوه في حق رسالة الله وحملتها، كذلك جرّد عتاة قريش جيشهم بقيادة أبي جهل إلى بدر، ليحاربوا رسول الله ﷺ والمؤمنين، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأذلّهم وأخزاهم، وكسر شوكتهم، وكانت يد الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وهذه سنّةُ الله في كل الأمم التي كفرت بأنعم الله وكذبت رسله، وهو عقاب عادل على ظلمهم، وكلٌ كانوا ظالمين، وردع الظلم مهما كان قاسياً فهو عين الصواب والعدل.

وهذا الردع القاسي من قبل الله سبحانه، إنما كان بعد إمهال

الكافرين، علّهم يراجعون حساباتهم ويتراجعون عن كفرهم، علّهم يدركون النعمة التي أنعم الله بها عليهم، عندما أرسل إليهم أنبياءه ليعلّموهم، ويزكّوهم، ويهدوهم طريق الحق، ويعرّفوهم سنن الرشد.

وهو سبحانه، لم يغير نعمته هذه، بنقمة هي الخزي في الدنيا، والعذاب في الآخرة، إلا بعد أن يغيّروا ما ينبغي أن يكونوا عليه من شكران تلك النعمة، مع ما تستبطنه من نعم، وتجرّه من خيرات.

وهو سبحانه، عندما ينزل نقمته، إنما ينزلها بعد أن يتمادى هؤلاء في غيّهم وعنادهم، وهو عليم بحالهم المنحرفة تلك، سميع لما يردّدونه ولو في سرهم، إذ هو أقرب إليهم من حبل الوريد.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

وبنفس المنطق هذا، وكما جرت سُنَّة الله وطريقته، على أن لا يبدّل النعمة بنقمة، حتى يصل الكافرون بتلك النعمة إلى حدود اللارجوع.

كذلك جرت سنّة الله على أن يبدّل النقمة بنعمة، فيما لو تراجع المنحرفون عن انحرافهم، ورجعوا إليه تائبين منيبين، وبدّلوا كفرانهم بشكران، وكفرهم بإيمان، وانحرافهم باستقامة، كما حصل بالنسبة لكثير من الأمم السالفة...

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[1].

(١) سورة يونس، الآية: ٩٨.

وسُنّةُ الله هذه في الخلق، يوضحها ويشير إليها قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

فإن كان التغيير إلى السيئ والشر رفع النعمة وأبدلها بنقمة.

وإن كان التغيير إلى الحسن والخير رفع النقمة وأبدلها بنعمة.

فالقاعدة أبداً، شكر إلهي بشكر، وغضب إلهي بكفر.

* * *

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

بعد أن بيّن الله سبحانه سُنّته في الذين كفروا على امتداد الزمان والمكان، وأنها تقوم على أساس القاعدة القائلة: شكر بشكر ونعمة، وكفر بعقاب ونقمة... وبعد أن ذكّر المؤمنين بأبرز مثل للكفر والطغيان في التاريخ، فرعون ومَلَئه، ومن سبقهم من الكافرين برسالات السماء.

بعد هذا كله، أراد أن يذكّر المؤمنين، بما سبق أن بيَّنه سبحانه في أوائل هذه السورة، من مقياس لإنسانية الإنسان، الذي على أساس منه يُفرق بينه وبين سائر أنواع الحيوان، هذا المقياس ليس للأرض وأهل الأرض، وما تواصفوا عليه من قيم التراب نصيب... وأنه مقياس سماوي، مقياس إلهي، هو عبارة عن مدى فاعلية عقل هذا

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

المخلوق، وتجاوبه مع نداء الفطرة، وانقياده للعقل المطلق. وأنه بمقدار تلك الفاعلية، وذلك التجاوب وهذا الانقياد، يستطيع الإنسان أن يعمّق معنى الإنسانية فيه، ويحلّق في آفاق السعادة في الدنيا والآخرة. وأنه بمقدار ما يشلّ عقله عن العمل، ويصمّ أذنيه عن نداء السماء والفطرة، ويتمرد ـ نتيجة تحكمّ غرائزه وشهواته في حياته ـ على إرادة الخالق الحكيم، القادر المدبّر، يسفّ إلى أسفل، إلى مرابض الحيوان، ومنازل البهائم بل أكثر من هذا، إلى مصافٍ هو أدنى مرتبة من منزلة الحيوان والبهائم، ذلك أنه يكون قد دمرّ عالم الإنسان، وأضاع كنزاً اختاره له خالقه، فكان ذلك سبباً في طغيانه على البيئة الاجتماعية ككل، وغدا مصدراً ثرّاً للعدوان وجلب الشرور والأضرار لبني جلدته في حين بقي الحيوان الأعجم في مساره الذي وضعه الله فيه، يؤدي دوره المرسوم، والذي غالباً ما يكون في وارد جلب الخيرات، والنفع للإنسان المتصرف فيه، والمالك لزمامه.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ۝٥٥﴾.

فلاحظ تعبير «عند الله» الذي يُشعر بمقياسية السماء هنا، التي أشرنا إليها قبل قليل.

ولاحظ تعبير ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الذي يُشعر بالديمومة للكفر واستمراريته، وذلك أمر طبيعي ملازم لكونهم شر الدواب: جمع دابة وهي كل ما يدبّ على الأرض من ذوات الأربع، نتيجة شلّهم عقولهم عن التفكير والتدبير، الذي سطرناه آنفاً. . .

وهذه قاعدة عامة لا استثناء فيها بالنسبة للكافرين. . .

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم أراد سبحانه، أن يشير إلى مصداقية هذه القاعدة، في فئة محددة، يعرفها المؤمنون حقَّ المعرفة، لأنهم عاشوا التجربة معها عن قريب.

وهذه الفئة ـ حسب بعض الروايات عن مجاهد[1] ـ بنو قريظة، «فإنهم كانوا قد عاهدوا النبي ﷺ على أن لا يضرّوا به، ولا يمالئوا عليه عدواً، ثم مالئوا عليه الأحزاب يوم الخندق، وأعانوهم عليه بالسلاح، وعاهدوا مرة بعد أخرى، فنقضوا...».

فهذا النموذج الكافر ـ بنو قريظة ـ عندما غدروا في المرة الأولى، بنقضهم العهد، فأخزاهم الله سبحانه وخذلهم، لم يتعظوا ولم يعتبروا، ولم يتعلموا درساً، ولم تنفعهم التجربة، فدأبوا على النقض، دون أن يحاذروا غضب الله ويتقوا عقابه، فتواتر عليهم الخزي والبلاء، لماذا....؟.

لأن حيوانيتهم أعمتهم، وأصمت آذانهم، وشلّت عقولهم، فغامت عندهم الرؤية، وتنكّبوا صراط الحق، فكانت النتيجة أن دمرّ الله عليهم وأهلكهم.

العهود والمواثيق في الإسلام

والعهْدُ، من عهد يعهدُ: الميثاق، والذمة، والأمان. «ومنه قيل للحربي يدخل بالأمان: ذو عهد»[2].

---

(١) تفسير مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٥٢.
(٢) محيط المحيط للبستاني مادة/ عَهِدَ.

وهو في الاصطلاح الشرعي: «ميثاق وتعاقد على شروط معينة، تراعى فيها مصلحة الإسلام والمسلمين، يبرمه وليُّ الأمر، مع فئة مّا من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أو المشركين، إلى أمد محدد، يصبح بعدها المسلمون في حلّ منه. كما أنهم يصبحون في حلّ منه، إذا خرج الكفار والمشركون على بند من بنوده».

كما يمكن للمسلم، أن يعقد عهداً مع مسلم آخر، أو يعاهد الله سبحانه على شيء فيه رضوان وقربة إليه تعالى...

وقد أوْلى الإسلام كل العهود والمواثيق عناية عظمى. وحث على الوفاء بها. وعدم خُلفها أو نقضها أو خيانتها. وذم أولئك الذين لا يقيمون لعهودهم ومواثيقهم حرمةً أو وزناً. قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[1].

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾[2].

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[3].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[4].

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾[١].

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾[٢].

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾[٤].

عود إلى التوجيهات الإلهية

هؤلاء الذين يكشف نقضهم المتكرر للعهود والمواثيق، عن روح الخيانة والغدر المتأصل فيهم، ماذا ينبغي أن يكون الموقف منهم. . . ؟.

لقد رسم الإسلام خطة مواجهتهم، وكيفية التعامل معهم، وأمر النبي ﷺ والمؤمنين أن يطبّقوا هذه الخطة. . .

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وثقفه يثقفه ثقفاً[٥]: صادفه أو أخذه، أو ظفر به أو أدركه، وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً أو عملًا، فهو يتضمن معنى الغلبة، ولذلك استُعمل فيها. قال الشاعر:

فإما تثقفوني فاقتلوني   فإنْ أَثْقَفْ فليس تَرَون مالي

يأمر الله سبحانه المؤمنين في هذه الآية، أن يطّبقوا مبدءاً حربياً

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٦.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٨.
(٥) راجع محيط المحيط للبستاني مادة/ ثَقِفَ.

معروفاً، هو استعمال الشدة والغلظة مع العدو. بحيث يكون ذلك سبباً لبثّ الرعب والهلع في قلوب بقية الأعداء، ممن يساندونه ويساعدونه، ويمدّونه بالعتاد والرجال.

وهذا الرعب، وذلك الهلع سوف يساعدان إلى حدٍ كبير، على تفريق جموع أولئك الأعداء، وتمزيق صفوفهم. وهو معنى التشريد الوارد في الآية الكريمة.

الهدف من هذا الانتقام؟

فمثل هذه القسوة في الحرب، والغلظة في التعامل مع الأعداء، لم يأمر الإسلام بها أتباعه، لمجرد الانتقام، والتشهيّ بمناظر الدم والدمار، كيف، والإسلام هو دين الرحمة والرأفة حتى مع أعدائه في ساحة القتال، وفي ساعة الانتصار.

وإنما الهدف من ذلك كله، هو استعمال أسلوب الردع والصدمة، بعد أن لم تنفع مع هؤلاء الموعظة والحكمة، ولم يوقظهم تتالي الهزائم كلما تمادّوا في نقض العهود والمواثيق، فكأنهم قد أدمنوا على الغفلة، والضلال. والمدمن على شيء لن يجدي معه سوى أسلوب واحد، وهو أسلوب العلاج بصدمة تهزّ كيانه، وتعيده إلى ما ينبغي أن يكون عليه من رؤية واضحة لواقعه المعاش...

هذه الغلظة وتلك القسوة في التعامل، إنما قُصد منهما إرجاعهم إلى صوابهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

* * *

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

هذه الآية الكريمة، تضمنت التوجيه الثاني من التوجيهات الإلهية، حول الخطة في التعامل مع هؤلاء الأعداء..

ويستبطن هذا التوجيه الإلهي، أمراً إلى جماعة المؤمنين متمثلة في شخص النبي ﷺ، بأخذ زمام المبادرة عند توقّع أية خيانة من قبل الأعداء، وذلك بتوجيه الضربة الأولى إليهم. وهو الذي يُفهم من معنى النبّذ. أي «إذا هادنت قوماً فعلمت منهم النقض بالعهد، فلا توقع بهم سابقاً، إلى النقض حتى تُعلمهم أنك نقضت العهد، فتكونوا في علم النقض مستويين، ثم أوقع بهم»[١].

ولا ريب في أن هذا التصرف، سوف يربك صفوفهم، ويوقع البلبلة والهرج فيهم، ويحبط بالتالي خططهم العدوانية.

ولكن، لا بد في هذا النبذ، من أن يكون بناءً على رؤية واضحة، لا غموض فيه، ولا ظلم، ولا التواء، وهو المراد بقوله ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾.

وفي هذا ما فيه، من إشارة إلى ضرورة التحلي باستمرار، بأعلى درجات الحيطة والحذر، في التعامل مع عدو غادر خائن، لا يقيم للعهود والمواثيق أية حرمة أو ذمة. ومن كان هذا حاله، فهو منبوذ من قبل الله، ومن قبل المؤمنين، ممقوت بسبب الخسّة التي جُبل عليها:

---

(١) راجع محيط المحيط للبستاني. مادة/ نَبَذَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

ولا ريب في أن الضربة الأولى، والصاعقة المباغتة، من قِبَل المؤمنين لهؤلاء الكافرين، أعداء الله والإنسان، سوف يكشف لهم ولكل ذي مسكة بوضوح، أن ما يحوكونه في الخفاء من مكر، متوهمين أنهم قد أحكموا خططهم، وضمنوا دحر الحق وأهله، ـ سوف يكشف بوضوح ـ أن ما حبكوه وأحكموه، إنما هو وهم وسخف وخيال. ذلك أن الله سبحانه محيط به وبهم، مطلّع على سرائرهم، قادر على حلّ ما أبرموا، وإفشال ما مكروا:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟﴾.

فحساباتهم خاطئة، وسبقهم لم يكن سبقاً إلا في نظرهم السقيم، وتفكيرهم المحدود، المؤطر بإطار الحقد الأعمى، ومقاييس الأرض والطين والتراب.

أما في مقاييس السماء، وفي نظر الله العظيم القادر، فهم أضعف ما يكون، وأحقر ما يكون...

أما في مقاييس الإيمان، فهم المقصّرون.

وفي مقاييس الحق... ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

أي لا يُضْعفون الله ذرة أو أصغر، ولا يغلبونه، بل مآلهم القتل والهزيمة في الدنيا، وعذاب الهُون في الآخرة...

* * *

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم انتقلت الآيات الكريمة، من خلال هذه الآية، لتضع قاعدة أساسية لما ينبغي أن يكون عليه حال الأمة المسلمة، في مواجهة أعدائها، في حالتي الحرب والسلام فكان هذا التوجيه الثالث، الذي سيق بصيغة الجزم، والعزم والأمر.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

فهذا الأمر إذن، انصبَّ على وجوب أن تهيئ الأمة نفسها، بشكل مستمر وفاعل، لا تراخي فيه ولا استرخاء، بكل ما تتطلبه لا المرحلة الحاضرة فقط، بل في كل المراحل، وتحت كل الظروف الموضوعية المحيطة بها من مستلزمات التصدي والصمود... ووسائل القوة والمنعة...

والذي يتأمل في هذه الآية المباركة، يستكشف حقيقة جوهرية مرنة، تتسّع حتى لا تضيق عن استيعاب أي شأن من شؤون القوة، وتضيق حتى لا تترك مجالًا لقبول أي شكل من أشكال الضعف والوهن والوهم...

﴿مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

ومن الواضح أن ما يدخل تحت حيّز الاستطاعة، يستدعي استنفار كل ما يمكن أن يتوفر من طاقة، سواء كانت مادية أو معنوية، وجعلها تصب كلها في اتجاه واحد، هو اتجاه العدو، سواء كان عدواً عسكرياً، أو عدواً اقتصادياً أو عدواً فكرياً. فالعدو، كل عدو، فيه كل مواقع القوى هذه، فلا بد وأن يكون الأمر بالإعداد، بمقتضى مناسبات الحكم والموضوع (كما يقول الأصوليون)، متوجهاً إلى بناء

مواقع القوى التي من المفروض فيها أن تقابل مواقع قواه، ولكن على مستوى أكبر، ووتيرة أعلى...

ومن هذا المنظور، نرى ألّا يقتصر فهمنا للاعداد ولا للقوة، على مجرد النواحي العسكرية وآلة الحرب المتبادلة...وإنما يجب أن نتوسع في فهمنا لمدلولي هذين التعبيرين، ليشمل كل ما له دخل في وجود الأمة، وتدعيم هذا الوجود سلباً أو إيجاباً.

ومن هنا، يمكن أن يكون الأمر بالاعداد منصباً على تهيئة الأمة علمياً واقتصادياً وفكرياً بنفس المستوى الذي ينصب فيه تهيئتها عسكرياً...

ومنطق الإسلام ـ انطلاقاً من فهم الدور الذي أراد الله له تأديته في الأرض ـ لا يرى في القوة العسكرية إلا أداة يلجأ إليها، عندما يُعييه منطق الكلمة الهادئة الهادفة ولم تكن القوة العسكرية، كما لم يكن منطق الحرب، هو السلاح الأول أبداً، بل الأخير في كل المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ ضد أولياء الطاغوت.

ومن هنا، يمكننا أن نفهم، كيف أن الإسلام استطاع أن يدمر أعظم حضارتين في التاريخ، هما حضارة الفُرس، وحضارة الروم في فترة وجيزة.

إنه لم يدمرهما بقوته العسكرية، بل بتحدّيه الحضاري، الذي يعتمد سلاح الفكر والعقل، وقيم الأخلاق، ومبادئ الإيمان كأسس تقوم عليها كل البنى الفوقية للحضارة الإنسانية المرتبطة بالسماء...

وعلى ضوء ما ذكرناه، نفهم لماذا عطف الله سبحانه في الآية

نفسها، أمراً هو من أظهر مصاديق القوة العسكرية، وهو رباط الخيل: جمع رُبُط، والذي يصدق على خمس فما فوق، أنه من قبيل عطف الخاص على العام، ليشير إلى ما ذكرناه، من الشمولية والاستيعاب في مدلول القوة لكل ما بيّناه. وليشير، إلى أن القوة العسكرية ليست إلا جزءاً من تلك القوة المطلوبة الإيجاد، بكل صورة ممكنة...

قوة هادفة

وليست القوة المطلوبة هنا، لمجرد حب الانتقام، وإشباع شهوة القتل وسفك الدماء، فإن في ذلك نقضاً لغرض السماء، من ارسال الأنبياء وبعث الرسل، كما أن فيه انتقاضاً لرحمة الله ولطفه بهذا المخلوق، وإنما هي وسيلة لغاية سامية، وهدف إنساني عظيم.

وسيلة لردع المعتدي، وتحطيم تلك الأصنام، التي تقف بين الإنسان وبين تطلّعه إلى حياة إنسانية كريمة، تتمثل في كلمة السماء، وهَدْي الأنبياء، ونور الإسلام:

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

عدو الله وعدو الإنسانية...

سواء كان ذلك العدو ظاهراً معروفاً للمسلمين، أو باطناً مستوراً عنهم، ولكنهُ منكشف أمام الله سبحانه، المطّلع على الخفايا:

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

وقد تأتي (دون) بمعنى وراء.

وعليه يكون المراد بَمْن دون العدو الظاهر المنكشف للمسلمين،

مَنْ وراءهم من القوى، أو العقول المحرّكة لهم، الذين يعملون في الخفاء، فيمدّون العدو الظاهر، بالرأي والمال، والسلاح والرجال. . .

وقد تأتي (دون) لتستعمل في الدلالة على الرتبة. فيكون المعنى: إن هنالك عدواً لكم، أخسّ وأحقر من العدو المنكشف أمامكم، يتميز بشدة المكر، واتساع الحيلة، وتأصّل الحقد فيه، وهو لهذه الصفات التي يشتمل عليها، يعمل في السر، ليكون أشدّ فتكاً، وأقدر على الإتيان من حيث لا تشعرون.

ثم ينبّه الله سبحانه جماعة المؤمنين، إلى حقيقة واضحة، تحكم تعاملهم مع الله وتعامله معهم. هذه الحقيقة تنصّ على أن كل ما يبذلون من طاقات مادية ومعنوية، في مقام الإعداد لقوة أنفسهم ومنعتها، ليس فيه أدنى خسارة، بل هو مكتوب لهم معوّض عليهم. سواء قوّم هذا المبذول بمقياس الأرض والمادة والأرقام الحسابية، فإنه سبحانه كفيل بتوفيتهم لما بذلوه بشكل أَوْفَى في دار الدنيا، وذلك بلحاظ ما سوف يترتب على قوتهم، وإرهابهم لعدوهم وإرعابهم له، من تحرّر اقتصادي وفكري وسياسي واجتماعي، مما يستلزم بالتالي بناء قوتهم الذاتية في جميع هذه النواحي. واتساع رقعة سيطرتهم، لا على مواردهم الطبيعية وثرواتهم فقط، بل اتساع رقعة سيطرتهم المادية والحضارية، على رقعة تتعدى حدودهم الجغرافية الضيقة. . .

إضافة إلى ما يترتب على ذلك، من رضوان الله ورحمته في الآخرة، حيث يُجزون ما بذلوه بجنة عرضها السماوات والأرض. . .

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾.

وفي هذه التوفية ما فيها، من العدل الذي لا يشوبه ظلم لا في الدنيا ولا في الآخرة:

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

* * *

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

ثم يأتي هذا التوجيه الإلهي لجماعة المؤمنين، بعد أن هيأوا أنفسهم لكل احتمال في مواجهة الأعداء. وحصّنوا أنفسهم مادياً، ببناء قواهم العسكرية، وغيرها. ليُبيِّن بوضوح، أن الهدف من إعداد القوة المؤمنة بهذه الصورة، لم يكن لمجرد القهر وسفك الدماء، وإنما هو ردع قوى الانحراف عن أن تخوض في دماء المستضعفين في الأرض، وتفتنهم عن دين الله.

إن الهدف، هو الوصول إلى السلام، والأمن، والطمأنينة. وإرساء دعائم هذا السلام، على أرضية صلبة، لا تقوى جحافل الكفر على زلزلتها وتهشيمها...

لقد استبطن هذا التوجيه الإلهي، ضرورة الاستجابة إلى السلام، إن فكّر العدو فيه. وإن كان تفكيرهم ذاك، نتيجة خوفهم مما أُعِدَّ من قوة وحشد، عدداً وعُدة، في الجانب المؤمن.

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

وجنح إليه، يجنُح ويجنِحُ جُنُوحاً: مال.

وعليه، فيكون معنى الآية الكريمة، أن يا رسول الله إنْ مالَ

الكفار بعد أن رأوا ما أعددتم من قوة مادية ومعنوية، لتدافعوا عن الحق، أو تهاجموا الباطل المتمثل فيهم، فمل أنت ومن معك إليه أيضاً. ولا تغلق أمامهم نافذة شخصوا بأبصارهم إليها. فقد يكونون صادقين، فتوفر على المؤمنين وعلى الإنسانية، مزيداً من الآلام، والدموع، والدماء. وتوكّل في توجّهك هذا إلى السلم، على ربك الذي يسمع ما لا تستطيع سماعه، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

* * *

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

ولكن. . .

إن الاعداد والاستعداد مهما بلغا لدى جماعة المؤمنين، فإن ذلك لا يمنع احتمال أن يكون ميل الكافرين للسلام، مجرد خديعة واحتيال. . .

فلربما يريدون كسب الوقت لإعداد خططهم المنحرفة.

أو لإيهام المؤمنين بأنهم قد صرفوا النظر عن التصدي العسكري، لثبوت عدم جدواه، في مقابل القوة المبنيّة على أسُسٍ متينة وقوية. وذلك بهدف استحداث قوى جديدة لديهم. واستنفار طاقات عندهم لم تستنفر بعد. ومع ورود هذا الاحتمال، كيف يمكن ميل المسلمين إلى السلم والمهادنة. . .؟!

هنا، تأتي الآية الكريمة لتنبّه إلى ورود مثل هذا الاحتمال. ولكنها تقرّر مع ذلك حقيقة عاشها المؤمنون، ويعيشونها كل لحظة. وهي أن الله حافظ لهم، محيط بأعدائهم، مطّلع على خبايا نفوسهم، ووساوس صدورهم... وهو سبحانه بالتالي، قادر على أن يتدخّل في أية لحظة، ليُفسد خططهم، ويدمّر عليهم، ويرد كيدهم إلى نحورهم...

فما على المؤمنين، إلا أن يفعلوا ما يجب عليهم فعله، من الاستعداد والحيطة والحذر، والباقي على الله. فالنصر بيده، يؤيد به أولياءه. الذين يجعلونه نصب أعينهم، في كل ما يعملون:

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾.

وحَسْب[1]: مصدر حسب يحسبُ. يستوي فيه الواحد والتثنية والجمع. كما في قولهم: رجل عدل، ومعنى حسْب: كافي.

ولا ريب، في أن العبد عندما يرتبط بالله، وينقطع إليه متوكلًا عليه، بعد أن يستنفد كل طاقة في انجاز فعلٍ ما أو عمل، فإنه سبحانه يكفيه مؤونته، إذ يكون بذلك قد ارتبط بأعظم قوة في الوجود، بل يكون قد ارتبط بمصدر كل قوة في هذا الكون...

ثم تلتفت الآية الكريمة، لتنبّه النبي ﷺ، إلى ما كان عليه من وحدة في طريق الحق، وضعف في مواجهة الباطل. يتيماً فقيراً معدماً، فأيّده بنصر من عنده، وجمع حوله عصبة من ذوي الشدة والبأس والمراس، أصبحوا ـ بفضل من الله وتوفيق وتسديد ـ على

---

(١) راجع محيط المحيط للبستاني مادة/ حَسَبَ.

اختلاف نزعاتهم ومشاربهم، وميولهم وطبقاتهم، بنية واحدة متراصّة، وخطاً واحداً لاحباً لا عوج فيه، هو طريق الله، تجمعه راية واحدة، هي راية لا إله إلا الله، محمد رسول الله...

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولا بأس في الإشارة هنا، إلى أن الله سبحانه ـ شأنه في ما يعود على الإنسان والإنسانية من الخير والمصالح ـ لا يفيض النصر إلا بعد أن يكون الإنسان نفسه قد هيأ له أسبابه، وبذل مجهوداً في حدود إمكاناته في السعي نحوه. فهذا شرط أساس من شروط الفيض الإلهي بالنسبة لأي شيء، وهذا منسجم مع سنّة الله في خلقه، بعد أن أُغلقت أبواب عيش هذا المخلوق بالمعجزات، ووُكِلت ـ إضافة إلى الفيض الإلهي الذي يُعبَّر عنه في مصطلح الفلاسفة بالفاعلية ما منه الوجود ـ إلى الأسباب الطبيعية، التي هي من شؤون الإنسان، والمعبر عنها في نفس المصطلح، بالفاعلية ما به الوجود.

ويشير إلى هذا ويومي إليه، تعبير الآية الكريمة:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالتأييد، مأخوذ في مفهومه لغةً، التقوية ليس إلّا، والتقوية هذه إنما تصح لأساس موجود، يحتاج إلى دعم واسناد...

نكتة اخيرة

وهنا نكتة أخيرة، ربما تكون الآية التي نحن بصددها مستبطنة لها. وسياق الآيات السابقة، بصدد عرض ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في مواجهة الباطل والطاغوت...

هذه النكتة، قد تكون هي الميزة التي تتميز بها الجماعة المؤمنة عن غيرها من الجماعات، وهي وحدة القلوب، ووحدة الأفكار والمفاهيم.

إن جماعة تربط ما بين أفرادها، وحدة العقيدة والصورة والاطار والهدف، حتى لتصبح بذلك قلباً واحداً، ويداً واحدة، لا يعقل لقوة في الأرض أن تهزمها، أو تنال منها، فيد الله مع الجماعة. وما ذلّت أمة في التاريخ وتمزقت، إلا بعد أن عصفت بها الفرقة، وتعددت فيها الرايات، وتكثّرت بينها الأحزاب والتجمعات ومراكز القوى.

ولعل الاستعمار الكافر، أدرك هذه الحقيقة، فعمل على خلقها في العالم الإسلامي، حتى نمت وتجذّرت، فصارت هذه الأمة إلى ما نراها عليه اليوم، من ضعف وانحلال وتشتّت...

فالأمة الإسلامية التي خلقتها إرادة الله، ووحّدت بين قلوب أبنائها المتنافرة رسالة السماء، لن تعود إلى ما كانت عليه من عزة ورفعة ومنعة، إلا إذا عادت إلى موقعها مستظلة راية التوحيد التي جمعت شتاتها في أول أمرها. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

* * *

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

بعد هذه الجولة الطويلة من التوجيهات الإلهية لجماعة المؤمنين، والتي تضمنتها الآيات المتقدمة، حول ما ينبغي أن يكون عليه حالهم في مواجهة أعدائهم حرباً أو سلماً، تأتي نداءات إلهية موجهة إلى المؤمنين أيضاً، من خلال رسول الله ﷺ تنصب على ما ينبغي على النبي كقائد، أن يفعله اتجاه أتباعه أثناء المعارك.

وفي هذا الإطار، تأتي الآية الأولى، لتؤكد ما تضمنته الآية السابقة عليها من كفاية الله سبحانه لعبده، الذي هو رسول الله ﷺ، ومن بعدُ كل مؤمن جسّد عبوديته لله في أفعاله وتصرفاته، ومن هنا كانت كفاية الله لرسوله في مواجهته للمشركين بتأييده وتسديده ولطفه، الذي أنتج التفاف المؤمنين حوله كأنهم بنيان مرصوص، هذا الالتفاف، الذي يعكس حقيقة تلاحم الجبهة الداخلية للمسلمين، وتمحورها حول قيادتها المتمثلة بالنبي ﷺ، وفي ذلك ما فيه من قوة، ومنعة، تنعكسان على تحركهم دفاعاً وهجوماً، وفي جميع الأحوال. . .

وقد تأتي (من) في محل رفع على أنها مبتدأ محذوف الخبر فيكون التقدير:

«ومن اتَّبعك من المؤمنين حسبهم الله»[١].

واقعية وعقلانية

ثم تعود الآية التالية لهذه الآية، لتلفت نظر رسول الله ﷺ إلى دوره كقائد مسؤول عن أمة، ولتنبّهه وجميع من معه، في الحاضر

(١) ذهب إلى هذا القول الحسن راجع مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٧.

ومستقبلًا، بأن كفاية الله له بتأييده بنصره وبجماعة المؤمنين، لا تعني بحال من الأحوال، أن ينفض يده من أية مسؤولية، معتمداً على هذا التأييد وتلك الجماعة، ومنتظراً معجزات السماء، فإن في ذلك خروجاً على سنته سبحانه في النصر والهزيمة، بعد أن أرادهما، كما يفهم من مجموع الوقائع والأحداث في تاريخ هذه الدعوة المباركة، وكما يفهم من الإطار الفكري العام لهذا الدين، بالأسباب المتعارفة لا بالخوارق والمعجزات.

بل إن هذا التأييد، وتلك الكفاية، إنما يجديان ويوجدان، متى تحقق شرطهما، وهو قابلية المحل لتحمّل مثل هذا النصر الذي يترجم عند حصوله، لا بالثناء الفارغ والعظمة الجوفاء، بل باتساع رقعة المسؤولية الإنسانية على امتداد الزمان والمكان. ولن توجد مثل هذه القابلية في المحل إلا إذا تحوّل المسلمون إلى بنية محاربة، قادرة على التصدي لكل صور الانحراف والطغيان في الأرض، وتجذّرت فيهم روح التضحية والعطاء من دون شح، ولذا فإن النبي كقائد، عليه أن يتولى عملية التحويل هذه والتجذير تلك بإبقاء الروح المعطاءة متأججة في نفوسهم وعقولهم، وذلك بتحريضهم الدائم على القتال في سبيل الحق وخوض المعارك على جميع الأصعدة ضد قوى الباطل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾.

وحرّضه يُحرّضه: حثّه وأحماه عليه. ومنه قوله تعالى:

﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ٨٤.

ولا إشكال في أن لهذا التحريض، علاقة بقلة المسلمين العددية أمام كثرة أعدائهم، هذه القلة، التي قد تكون سبباً في استشعارهم شيئاً من الضعف، وذلك أمر طبيعي ومعقول، والذي يشعر بهذا قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

واحد من المؤمنين لكل عشرة من الكافرين؟!!.

ويؤيده أن الآية نزلت بالبيداء، في غزوة بدر قبل القتال(١).

والتحريض هنا للوجوب، فهو أمر؛ وانبعاث المسلمين عن هذا الأمر واجب أيضاً، ويدل عليه قوله تعالى فيما بعد:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾.

فإن التخفيف لا يكون إلا بعد التكليف(٢).

ولهذا يبطل ما اختاره الطبري(٣) في تفسيره من أن هذا الشيء لم يكن أمراً عزمه الله على المؤمنين ولا أوجبه.

وقد مارس النبي ﷺ مثل هذا التحريض، ففي بدر وقبل ابتداء المعركة، بعد أن صف أصحابه، وتقابل الفريقان، قال ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. فقال عمير بن الحمام: عرضها

---

(١) مجمع ٤/ ٥٥٧.
(٢) راجع مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٥٧ وقد ذهب الإمام الخوئي من الإمامية إلى أن الأمر هنا استحبابي راجع البيان، ص٣٧٦.
(٣) الطبري ١٤/ ٥٣.

السماوات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقال: بخَ بخَ. فقال ﷺ: ما يحملك على أن تقول بَخٍ بَخٍ؟ قال: رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنك من أهلها. فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل»[(١)].

ويمكن أن يكون للتحريض صور غير بيان ما يترتب على الجهاد من الاستشهاد الذي يؤدي إلى الجنة. فقد يكون ببيان ما وُعِدوا من النصر والظفر بأعدائهم مع ما يترتب على ذلك النصر، من غنائم الحرب على اختلافها... من منقول وغير منقول.

ولكن كيف يغلب الواحد من المسلمين عشرة من المشركين؟!

نعم إن ذلك ممكن، ولكنه يتطلب وجود أمرين في المقاتل المسلم، نبهت عليهما الآية الكريمة تصريحاً وتلميحاً:

الأول: ما صرحت به الآية وهو الصبر على القتال في ساحة الحرب.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

ولا إشكال ولا ريب، في أن الصبر، عندما يتوفر في نفس من النفوس، يستطيع صاحبها اجتراح المعجزات في حدود إمكاناته. ومن المعلوم أن الصبر لا يتناول في آثاره القتال من حيث خشونته وشراسته فقط، بل يجعل صاحبه مُوطِّناً النفس على الاستمرارية فيه،

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٤.

ومواصلته، ما دام قادراً على ذلك، وعنصر الزمن مهما امتد مؤثّر فعّال في نتيجة أية معركة من المعارك الحربية.

وقد ربّى الإسلام من خلال كثير من تشريعاته العبادية وغيرها، الإنسان المسلم على هذه الخصلة، ولذا عندما نجده هنا يحث المؤمنين عليها، ويُنَبّههم إلى خطورتها، فإنه لا يُحمّلهم فوق ما يطيقون.

الثاني: ما لمحّت الآية الكريمة إلى افتقاد الكفار له، وهو الفهم لطبيعة الحرب، وأهدافها ومنطلقاتها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

والفقه في اللغة الفهم... ويستشعر من ذلك أن من المفروض في المقاتل المؤمن بحكم ارتباطه بالله سبحانه، وإدراكه لحقيقة الإسلام ومراميه السامية، وفهمه لطبيعة دوره في هذه الحياة بالنسبة لنفسه ولمجتمعه البشري، من المفروض في مثل هذا المقاتل أنه يفهم بالتالي، لم كانت هذه الحرب، وما هي الغايات التي ترمي إليها، ومن الواضح أنها ليست غايات توسّعية أو انتقامية أو استعمارية، وإنما هي لأجل تحرير الإنسان من عبوديته لطواغيت الأرض وجبابرتها، وتعبيده بدلًا من ذلك لرب الأرض والسماء، وخالق الكون والإنسان، ومعنى ذلك تمكينه من لعب دوره في الحياة، من بناء المجتمع العابد في الأرض، ذلك المجتمع، الذي تحكمه شريعة الله لا شريعة الغاب ـ وترفرف عليه السعادة الحقيقية في ظل أحكام السماء العادلة.

ومما لا ريب فيه، أن عدم إدراك الكافر لكل هذه المعاني، يجعله سجين رغبته ونزوته ونظرته المصلحية الفردية، وتحرّكه في إطار تلك النظرة، التي عندما يشعر أثناء المعركة، أو قبل ابتدائها، أنها لن تتوفر له من خلال القتال، فإنه سرعان ما ينسحب أو يتخاذل.

أضف إلى ذلك، أن هذا الإنسان المحدود، سوق يقيس قوة جيش الإيمان بمنظاره هو، منظار العدد والعُدّة من دون أن يدخل في حسابه عنصر الإيمان، وما يستتبعه من توطين صاحبه النفس على البذل حتى الموت، وما يستبطنه ذلك من عزم على الاستمرارية في المعركة بقوة وصبر وجلد، وعندئذٍ سوف يفاجأ جيش الكفر بعنصر في المعركة جديد، يقلب كل تصوراته عن سير القتال، ويُربك كل مخططاته التي رسمها في حدود تفكيره. ونتيجة ذلك: الهزيمة والخذلان...

* * *

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

الخلاف حول ناسخية الآية

ذهب جلّ العلماء، إلى أن هذه الآية، ناسخة للحكم في الآية السابقة عليها، من لزوم ثبات الواحد من المؤمنين لعشرة من الكافرين. لأنها نزلت بعدها متضمنة لحكم وجوب ثبات الواحد من المسلمين لاثنين من الكافرين. ويشترط في الناسخ أن يكون لاحقاً في النزول للمنسوخ.

وقد خالف في دعوى النسخ هذه الإمام الخوئي[١] من الإمامية لأن القول بالنسخ «يتوقف على إثبات الفصل بين الآيتين نزولًا، وإثبات أن الآية الثانية نزلت بعد مجيء زمان العمل بالآية الأولى، وذلك لئلا يلزم النسخ قبل حضور وقت الحاجة، ومعنى ذلك أن يكون التشريع الأول لغواً، ولا يستطيع القائل بالنسخ إثبات ذلك، إلا أن يتمسك بخبر الواحد» والنسخ بخبر الواحد غير ثابت. . .

كما خالف في دعوة النسخ هذه، أبو مسلم الأصفهاني[٢].

وعلى دعوى النسخ، فقد اختلف المفسرون، هل كان في معركة واحدة، وهي بدر، كما يذهب إليه البعض[٣].

أو أنه نزل بعد فترة من بدر، «فالتغليظ كان على أهل بدر، ثم جاءت الرخصة» كما ذهب إليه الحسن وغيره[٤].

إمكان النسخ

وليس النسخ مستهجناً، لأنه لا يتنافى مع علم الله سبحانه المطلق. فنحن نعلم، أن الأحكام الإلهية إنما تشرع، وفقاً لما تقتضيها من المصالح والمفاسد، التي يعلمها تعالى. والتي لا نستطيع بحكم محدوديتنا في الزمان والمكان، أن نحيط بها وندركها. . .

وعلى هذا، فالحكمة هنا على دعوى النسخ، كانت تقتضي في علمه، تشريع الحكم الأول الذي يستبطن شدة وحمازة. وهذه الحكمة معلومة له سبحانه، مقدَّرة بأجلٍ ووقتٍ محددين عنده.

---

(١) البيان في تفسير القرآن للإمام الخوئي، ص٣٧٥.

(٢) فيما ينقل عنه الرازي بنقل القاسمي في محاسن التأويل، ج٨، ص٣٠٣٤.

(٣) راجع لباب التأويل في معاني التنزيل للبغدادي المعروف بالخازن، ج٣، ص٤٠.

(٤) راجع مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٤/ ٥٥٧.

ثم، بعد أن تحققت الحكمة واستنفد الأجل المحدد لهذا الحكم، اقتضت الحكمة أن يرفع ليثبت غيره، وهو الحكم الجديد، الذي تضمنته الآية اللاحقة. ولا ريب أن هذا الرفع كالوضع، هو من شؤونه سبحانه، كما أخبر في كتابه العزيز:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾(٢).

ومن هنا، قعَّد العلماء القاعدة المعروفة: «الرفع لمن بيده الوضع».

حكمة وأسلوب

ولا بأس في الإلفات إلى شيء، ربما كان حكمة كامنة وراء هذا الموقف الإلهي، حكمة كامنة وراء تشريع وجوب تصدّي الواحد من المسلمين لعشرة من الكافرين، قبل أن ينسخ، بناءً على تمامية دعواه...

وهذه الحكمة تتلخص، في أن ذلك يدفع المسلم (وهو في بداية طريق صدامي طويل ضد الكفر والانحراف) إلى أن يخوض تجارب قاسية، تحطم في أعماقه حاجز الخوف. وتبُثُّ فيه روح الشجاعة والإقدام ولا إشكال في أن جبن الإنسان إنما يتعمق في نفسه نتيجة تهيبّه الدخول في مواقف صدامية قد تعرض له في حياته، وتكون حصيلة هذا التهيّب المتكرر، نفسية متخاذلة، منهارة، تستسلم للضغوط وترضى بسياسة الأمر الواقع...

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

في حين، أن حصيلة تكرار خوض المواقف الصعبة والصدامية، هو تعوُّدُ الإنسان على هذا النمط من الأفعال، وردود الأفعال بحيث تصبح معه الشجاعة ملكة فعالة، ودافعة تمنعه من الخور والضعف والجبن، أمام الباطل، وتخلق منه شخصية مقاتلة، ومؤمناً مستعداً لبذل روحه إلى جانب الحق وقيم الخير.

ومن هنا ندرك السر، في ضعف الأمة في عصورها المتأخرة، وهزائمها المتلاحقة، حتى أمام أقليات عنصرية، من المفروض فيها أن تكون أولى بالهزيمة والضعف.

إنّ السر هو تقاعس الأمة عن الجهاد، نتيجة تهيبّها من اتخاذ المواقف الصدامية، التي قد تجعلها مضطرة إلى التخلي عن حياة فيها من الترف والدعة، أكثر مما فيها من العزة والكرامة والإباء. وقد ولّد هذا الشعور، في نفوس أبناء الأمة بشكل عام، روحاً انهزامية متخاذلة، بعيدة كل البعد، عن الحكمة السامية التي رمى الله سبحانه إليها، من وراء هذا التشريع في سورة الأنفال... وفي غيرها من السور القرآنية.

ثم تتوّج الآية الكريمة، هذا الحكم، بالتذكير بما للصبر من دور فعّال في النصر. وأن الصابر الصادق، مسدد من الله، ومؤيد بتأييده ولذا فلا خوف عليه...

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

* * *

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

أسرى جمع أسير. وقد يجمع على أسارى.

والأسر: هو (الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له)[1]. والمأسور هو المشدود بالسير من الجلد، ثم أصبح يطلق على كل من أخذ في الحرب من الأعداء.

والإثخان: من الثخن، وهو الغلظ والكثافة. والمراد بالإثخان في الأرض هنا (تغليظ الحال[2] بكثرة القتل).

والعرض: هو ما يعرض على الشيء فيكون عرضة للزوال عنه، ومفارقته له، في مقابل الجوهر. ومن هنا سمي متاع الدنيا عرضاً، لقلة بقائه، وسرعة زواله وتلاشيه...

سبب نزول الآيات

وقد ذكر في سبب نزول هذه الآيات[3] أنه بعد انجلاء المعركة ببدر عن هزيمة منكرة للمشركين حيث قتل منهم سبعون وأسر مثل هذا العدد في حين كان قتلى المسلمين تسعة رجال على رواية وأحد عشر رجلًا على رواية أخرى من دون أن يؤسر منهم أحد. فجمع

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٨.

(٢) نفس المصدر.

(٣) يراجع تفسير مجمع البيان للطبرسي المجلد ٤، ص٥٥٩، كما يراجع في سبب النزول ولكن بنصوص مختلفة تفسير الطبري ج١٤، ص٦١ وتفسير ابن كثير ٢/٣٢٥.

المسلمون الأسارى وساقوهم، فلما قتل النبي ﷺ منهم «النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله، قتلنا سبعين، وهم قومك وأسرتك أتجذّ أصلهم؟ فخذ يا رسول الله منهم الفداء، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش. فلما طلبوا إليه وسألوه نزلت الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ الخ، وما بعدها فأطلق لهم وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم وأقلّه ألف درهم».

غفلة وتانيب وتذكير

إنها لحظة من لحظات الضعف البشري، التي قد تعتري بعض بني الإنسان، بين فترة وأخرى، فتنسيه دوره الذي هيّئ له، وتصرفه عما ينبغي أن يكون عليه من ارتفاع وطموح وتحليق، وعيش في المستقبل على ضوء المعطيات التي من المفروض فيه أن يملكها من خلال القيم والمبادئ التي زوّدته بها تعاليم السماء، لتتركه يتخبط في عالم الطين والأرض والتراب على ضوء أهوائه ورغباته التي تتقوقع في إطار عالم الضرورات... فيتصرف على ضوئها، ويتحرك وفق ضغوطها...

وهذا هو عيناً ما حصل لدى بعض المسلمين بعد انجلاء غبار المعركة في بدر، عن هزيمة ساحقة لجيش الباطل، وانتصار مؤزر لجيش الإيمان بقيادة رسول الله ﷺ...

لقد استهوى هذا البعض حطام الدنيا من مال وغنائم، فجعلهم ـ لا شعورياً ـ يعيشون لحظاتهم تلك منقطعين عن سنوات ماضٍ حافل بالآلام والمحن بسبب اتباعهم طريق الهدى والإيمان، وغير مدركين

أن وقعة بدر بداية مرحلة من المفترض أن تكون أشرس وأشد في مقابل قوى الكفر والطغيان وصولًا إلى الهدف النهائي الذي رسمه لهم الإسلام من إعلاء كلمة الله في الأرض مروراً بتحرير الإنسان من كل العبوديات لغير الله، تلك العبوديات التي تدفعه أبداً عن الاتصال بالله والاهتداء بنور هداه.

لقد تشبث هذا البعض بعرض زائل، غافلين عن الجوهر الذي يبقى ويستمر...

استبدلوا الأدنى بالذي هو خير...

فضّلوا الاحتفاظ بالغنائم وأخذ الفداء، على الاحتفاظ بالأسرى تعزيزاً لشوكة الحق وإمعاناً في إذلال الباطل المتمثل فيهم من خلال جرهم مكبلين بالقيود والأغلال... ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

وعندما نقول بأن البعض من المسلمين ببدر هم الذين تورطوا في مثل هذا الهبوط وذلك الانهزام النفسي، لننبه إلى أن الكثرة الكاثرة منهم بقيت على صفاء الرؤية ووضوح الهدف وسلامة القصد، غير عابئة بغنائم أو فداء ومتاع، ولذا نراها سارعت إلى الطلب إلى رسول الله ﷺ أن ينزل أشد النكال والعقاب بهؤلاء الأسرى، من دونما شفقة أو رأفة...

يجسد حقيقة موقف هذه الكثرة الواعية من المسلمين كلمة سعد ابن معاذ لرسول الله ﷺ عندما رأى كراهته أخذ الفداء قبل نزول الآيات المباركة حتى بانت تلك الكراهية في وجهه الشريف، قال: «يا

رسول الله، هذا أول حرب لقينا فيه المشركين والإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال»[١].

ولكن ضعف هذا البعض في بدر لا يؤثر مقدار ذرة في قوة الله وغلبته لأنه هو «العزيز» . . . وبالتالي غلبة كل من يلوذ بتلك القوة وهذه الغلبة.

وإن ضعف هذا البعض الذي أدى به إلى اختيار الطريق الخاطئ واتباع الهوى حيث غوى، لن يؤثر مقدار ذرة في تنفيذ إرادة الله بوضع الأمور في مجراها الصحيح، لأنه هو «الحكيم» الذي لا يضلّ ولا يُضلّ فيه.

ما سبق وما لحق

ولقد كان ما كان، وحصل ما حصل، فماذا كان الموقف الإلهي، إزاء الموقف البشري هذا؟.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

لولا مركبة من «لو» و«لا» وهي حرف امتناع لوجود، «تدخل على جملتين اسمية وفعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى»[٢].

والفاء في (فيما) للسببية.

ولكن ما المراد بالكتاب الذي سبق في الآية الكريمة؟.

لقد اختلفت كلمات العلماء في المراد به على أقوال[٣]: قول

---

(١) راجع تفسير الطبرسي مجلد ٤/ ٥٥٩ وتفسير القرطبي ج٨/ ٤٧ والخازن ٣/ ٤٠.

(٢) محيط المحيط للبستاني مادة: لَوَلَ.

(٣) راجع مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩ والقرطبي ج٨، ص٥٠ والطبري ١٤/ ٦٤.

بأن المراد بالكتاب القرآن، حيث إن إيمانهم به وتصديقهم له استوجب الغفران لهم وقد اختاره الجبائي.

وقول لابن عباس وهو إنه: «لولا أن الله حكم لكم بإباحة الغنائم والفداء في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ لمسّكم فيما استحللتم قبل الإباحة عذاب عظيم فإن الغنائم لم تحل لأحد قبلكم».

وقول نقل عن ابن جريح مؤداه أنه: «لولا ما مضى من حكم الله أن لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لم يبيّن لكم أن لا تأخذوا الفداء لعذّبكم بأخذ الفداء».

ومهما يكن اختلاف الأقوال في معنى الكتاب الذي سبق، وإن لم يبعد أن تصلح مجتمعة لتوضيح المراد بشكل عام، فإنه يمكن أن يكون الكتاب مأخوذاً من الكتب وهو عندما ينسب إلى الله سبحانه إنما يراد به الحكم والقضاء، وهما من معاني الكتاب لغة[١].

وقد كان هذا الحكم الإلهي وذلك القضاء الرباني موجبين لدفع العذاب العظيم عنهم بسبب ما ارتكبوه في قضية أخذ الفداء من أسرى المشركين ببدر... مندفعين بعيداً عن الهدف من خروجهم إليها تحت ضغط تعلقهم بالدنيا وعرضها الزائل الحقير...

وقد يكون لوجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم مدخلية في دفع العذاب عنهم، لما سبق وقضى سبحانه بأن يكون محمد رحمة للبشرية كلها كما بيّن في موقف آخر تقدم أوائل هذه السورة وهو قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾[٢].

---

(١) راجع مادة كتب من محيط المحيط للبستاني.

(٢) الآية: ٣٣.

بعد هذا التحذير المستبطن توبيخاً ورد الحكم الإلهي بإباحة ما أخذوه من الفداء، لا لأنه أصبح أمراً واقعاً كما قد يتوهم، وإنما هو اللطف الإلهي الذي كان يشملهم بشكل عام في كل موقف منذ اللحظة الأولى لتحركهم من المدينة، وهو عينه اللطف الإلهي الذي انتزع منهم ملكية الغنائم عندما اختلفوا حولها وتنازعوا عليها إيقاظاً لهم من غفلتهم عن الهدف الذي خرجوا من أجله إلى بدر وإنقاذاً لهم من أنفسهم التي ضعفت أمام هواها، وتربية إلهية لهم ترفعهم إلى آفاق الإنسانية العابدة المرتبطة بالله، وتترفع بهم عن الرضوخ لعالم الضرورات وتزكيهم ليتمحضوا لله ويخلصوا عملهم من أجل رضوانه وإعلاء كلمته. . .

وهو أيضاً عينه اللطف الإلهي ـ بعد أن تحققت الحكمة ـ الذي أعاد إليهم ملكية هذه الغنائم بعد إخراج خمسها، كما مرّ ذلك مفصلًا عند تعرضنا لآية الخمس[1] من هذه السورة.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

«والفرق بين الحلال والمباح أن الحلال من حل العقد في التحريم والمباح من التوسعة في الفعل، وإن اجتمعا في الحل»[2].

والطيب: المستلذ. و«حلالًا طيباً» منصوب على الحال. . .

والفاء في «فكلوا» للجزاء. أي: لقد أحللت لكم الفداء فكلوا منه.

---

(١) الآية: ٤١.

(٢) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٨.

ولكن هذا اللطف الإلهي الذي شملكم الآن وفيما سبق، ينبغي أن يكون بالنسبة لكم حافزاً على الالتزام بأوامر الله ونواهيه، ومذكراً لكم باستمرار بأنه سبحانه هو المالك لأموركم، وأنتم المملوكون لإرادته وسلطانه ومن شأن المملوك ألّا يتصرف أي تصرّف في نفسه وفيما يعود إلى غيره إلا وفق ما يرسم له مالكه، وعندما تكونون بهذا المستوى من الارتباط بالله، تتحقق فيكم التقوى، حيث تكون وقاية لكم من الوقوع في معصية ربكم والخروج عن دائرة عبوديتكم له. . .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

واعلموا أن الله سبحانه قد تجاوز عما ارتكبتموه في أمر الفداء من تسرّعكم في الحكم فيه قبل ورود حكم الله فيه، وغفر لكم رحمة منه بكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)﴾.

المقصود بالأسرى هنا الذين طلب الله سبحانه من نبيّه ﷺ أن يبلغهم هذا البلاغ الإلهي، أسرى بدر. «وإنما ذكر الأيدي ـ لمن في أيديكم ـ لأن من كان في وثاقهم فهو بمنزلة من يكون في أيديهم لاستيلائهم عليه»[1].

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٦٠.

وقد تضمن هذا البلاغ السماوي وعداً من بندين:

الأول: تعويض دنيوي من سنخ ما أخذ منهم من فداء ولكنه أوفر وأكثر.

الثاني: تعويض أخروي أعظم وأبقى من هذا العرض الدنيوي الزائل لا يعادل بمال ولا متاع ولا سلطان. ذلك هو رضوان الله عليهم بعدما ارتكبوه في حق الإسلام والمسلمين، ومغفرته لهم مع ما يترتب على ذلك من لوازم في الدنيا والآخرة...

تطييب وترغيب

ومن الواضح أن هذا البلاغ الإلهي، كما في بلاغات إلهية أخرى تكرر ورودها في كتاب الله، استبطن تطييباً لخواطر أولئك الأسرى الذين وجدوا أنفسهم في تلك اللحظات يعانون بحدّة ما ترتب على هزيمتهم الشنعاء ببدر، فهم من ناحية يستشعرون مدى الهوان الذي لحق بهم بعد أن قتل القسم الأكبر من صناديدهم وها هو القسم الآخر يرسف في القيود والأغلال بعد أن كانت غطرستهم وعنجهيتهم تصور لهم أن هذه القيود سوف تكون في هذه اللحظات من نصيب من يمكن أن يبقى من أعدائهم المسلمين على قيد الحياة...!!.

وهم من ناحية أخرى يدركون ضخامة الخسائر التي منوا بها نتيجة هذه الحرب، تلك الخسائر التي ضمت إلى جنب الغنائم التي حازها المسلمون من معسكرهم على اختلاف أنواعها، الفداء، الذي كان مقداره لكل واحد من الأسرى أربعين أوقية من الذهب إلا العباس بن عبد المطلب فقد كان فداؤه ثمانين أوقية[1].

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٥٩.

وهذا التطييب لخواطرهم في تلك اللحظات النفسية الصعبة التي يعيشون يزامنه ترغيب إلهي لهم بالإيمان بالرسالة الجديدة والدخول في طاعة الله ورسوله والانضمام إلى جماعة المؤمنين وهجران ما هم عليه من كفر وعناد ومحاربة للحق وأهله، وذلك من خلال وعده لهم بالتجاوز عنهم وإدخالهم ضمن دائرة رحمته التي وسعت كل شيء وغفرانه ورضوانه.

﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

ولم يكن هذا التطييب وذلك الترغيب اللذين استبطنهما الوعد الإلهي لهم، مجرد شعار خاوٍ وموقف ادعائي مسرحي وإنما كانا حقاً وصدقاً وحقيقة تجسّدت بوضوح في عالم الواقع، يكفينا هنا إيراد نموذج واحد كشاهد على ما ذكرناه من حقانية الوعد الإلهي وصدقه ومن أصدق من الله قيلًا، وهو لا يخلف وعده.

ذلك النموذج الحي، هو أبرز الأسرى ببدر، العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ حيث كان مجموع ما دفعه فداءً يوم بدر مائة وثمانين أوقية من الذهب، ثمانين منها عن نفسه بعد أن أمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يضعفوا الفداء عليه، وثمانين أوقية دفعها فداءً عن ابني أخويه نوفل بن الحارث وعقيل بن أبي طالب إضافة إلى عشرين أوقية كانت معه حين أسر فاعتبرت غنيمة عندما رفض النبي ﷺ أن تحسب من جملة فدائه قائلًا له: «لا، ذاك شيء أعطانا الله منك»[١].

---

(١) راجع القرطبي ج٨، ص٥٢.

العباس بن عبد المطلب هذا، الذي كان أكثر الأسارى خسارة مادية يوم بدر يروى[1] عنه أنه قال: «فأعطاني الله مكانها عشرين عبداً كل منهم يضرب بمال كثير، وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم، وأعطاني زمزم، ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي».

شرط لا بد من تحققه

ولكن تحقيق هذا الوعد الإلهي بشقَّيه، منوط بأن يحقق هؤلاء الأسرى شرطاً ممكن التحقيق بالنسبة إليهم، لأنه مقدور لهم وهذا الشرط هو إيمانهم مع خلوص نيتهم في التوبة والإقلاع عما هم عليه من ضلال، والخروج مما هم فيه من ظلام، والاهتداء إلى مصدر الخير والهدى والنور. . .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾.

وهل من خير أعظم وأكرم من نعمة الهداية والإيمان يعيش الإنسان في رحابه بسلام مع نفسه ومع مجتمعه؟ يأمن ويؤمن ويؤتمن. . . ؟!.

* * *

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

---

(١) راجع مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٦٠ وتفسير القرآن العظيم لأبي الفداء ٢/ ٣٢٨ وتفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ٢/ ٢٣٨.

تحذير وتذكير

الخطاب وإن كان موجهاً هنا إلى النبي ﷺ إلا أن ذلك لا يمنع أن يكون المقصود منه تحذير هؤلاء الأسرى إن هم أرادوا الدخول في الإسلام بنطقهم بالشهادتين من أن يكون موقفهم ذاك مجرد مكر ونفاق وخديعة للرسول وجماعة المؤمنين، وخيانة لهم، وذلك ليس ببعيد عليهم ولا منهم، كيف وقد سبق أن خانوا الله عندما كذّبوا رسوله وحاربوا رسالته وعملوا على طمسها بالتآمر على قتل حامل لوائها وإلجائه إلى هجر بيته والابتعاد عن بلده وأهله وتأليبهم القبائل عليه، وعقدهم المعاهدات مع اليهود، أعداء الله والإنسانية لخنق دعوته.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾.

يحذرهم الله من أن يعودوا لهذا، ويحذر نبيه ﷺ منهم ليعدّ العدة ويأخذ الحيطة، وفي نفس الوقت يذكّرهم بأن النتيجة سوف تنقلب عليهم وبالًا وخزياً ودماراً، كما انقلبت عليهم في خيانتهم الأولى، حيث مكّن المؤمنين من رقابهم، يُقتلون صناديدهم، ويأسرون أبطالهم، ويغنمون نساءهم وأموالهم، ويمرّغون أنوفهم في الذل والهوان والصغار.

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾.

ثم يحذرهم مرة أخرى، إن هم أظهروا كلمة الإسلام وأبطنوا الكفر والشقاق والنفاق، بأن الله مطلع على سرائرهم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾.

ويترتب على علمه بما تنطوي عليه نفوسهم من خيانة أو تصديق حق ما تقتضيه حكمته السامية من تمزيق أو توفيق، فهو «حكيم» يضع الأمور في نصابها.

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

معالم مجتمع جديد

معركة بدر، كما اتضح من خلال كل ما تقدم، كانت فرقاناً بين مرحلتين من مراحل الدعوة الإسلامية المباركة، في ذاتها، وفرقاناً حاسماً في نتيجتها بين مسيرتين، مسيرة مباركة ترعاها ملائكة السماء، ومسيرة منحرفة تواكبها شياطين الأرض والسماء.

وكانت قد سبقت هذه المعركة الفصل، معارك بين العصبة المؤمنة بقيادة رسول الله ﷺ، وأعداء الله ورسوله من أئمة الكفر وأولياء الشيطان في قريش، معارك من سنخ آخر، كانت القوة تستعمل فيها من جانب واحد حيث لم يؤمر المؤمنون بعدُ بقتال.

وإن بطاح مكة وصخورها وأزقتها، لتشهد مدى الصبر على الأذى وتحمّل صنوف الآلام والأحزان، وضخامة التضحيات التي بذلها المؤمنون الأولون كثمن للحفاظ على إيمانهم والدفاع عن

عقيدتهم، حتى توجت تلك التضحيات بمعركة كبرى مع النفس، خرج منها الإيمان منتصراً من خلال انتصار المؤمنين على كل علائق الأرض والطين والتراب، تلك هي معركة الهجرة، في شكلها الأول على مستوى ضيق إلى الحبشة، وفي شكلها الثاني على المستوى الأوسع إلى المدينة....

ولا نكون مبالغين عندما نعبّر عن هذه الهجرة بالمعركة الكبرى، لأنها تستبطن الجهاد الأكبر بالمعنى المتقدم كما ورد عن رسول الله ﷺ...

نعم... إنها معركة كبرى مع النفس... ولا يمكن أن ينتصر فيها إلا مَنْ توثقت علاقته بالله، حتى اضمحل إزاءها كل ما يمكن أن يتصور من علائق الإنسان بغيره...

علاقته بالأرض والوطن...

علاقته بالأهل والولد...

علاقته بالعشيرة والجاه والمنصب...

علاقته بكل شيء... عدا الله؟!!.

هذا ما كانت تعنيه الهجرة بالنسبة للمسلمين الأولين...

ولذا كانت هجرتهم قمة الجهاد... جهاد بالنفس، وجهاد بالمال.

بعد تسنمّهم قمة الإيمان...

ولكن، لم تتمخض الهجرة المباركة عن هذه النتيجة العظيمة

فقط، بل تمخضت عن شيء آخر لا يقل أهمية ولا أثراً في حياة الإسلام والمسلمين، بل الإنسانية جمعاء...

عنيتُ أوّل مجتمع عابد في الأرض... المجتمع المسلم بيثرب...

هذا المجتمع الذي بدأ رسول الله ﷺ بإرساء قواعده منذ الأيام الأولى لوصوله إلى موطنه الجديد... إلى اليوم الذي شاء الله سبحانه أن يتحول فيه المسلمون إلى قوة ضاربة، يُحسب لها ألف حساب... يوم بدر...

لقد كان هذا المجتمع الجديد، قد بدأت تتضح معالمه على جميع الصُعُد، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وغير ذلك...

معالم لم تكن لها سابقة في تاريخ الإنسانية الطويل...

وكان النبي ﷺ يضع بأناة وحكمة، كل معلم من هذه المعالم في مكانه السليم، مسترشداً في ذلك كله توجهيات السماء...

إلى أن تمت الولادة السعيدة لهذا المجتمع الأرضي ذي الأبعاد السماوية والسمات الإسلامية...

ولم يعد ينقص هذا الوليد الجديد لينمو ويترعرع ويشتد عوده ليعم خيره الإنسانية كلها، إلا قوة تدفع عنه كيد أعداء الإنسان والقيم، الذين يتربصون به وبحاملي رايته الدوائر...

وقد شاء الله لهذه القوة أن توجد، وأن تكون معركة بدر أولى مجالات اختبارها كعنصر وقائي، قبالة جراثيم الكفر والطغيان والانحراف.

ضمانات لا بد من توافرها

ومما لا شك فيه، أن مجتمعاً جديداً كهذا، وتجربة رائدة كهذه، لكي ينمو ويتجذّر، وتتفاعل وتؤثر فتؤثَّر، يحتاج إلى كل طاقات أفراده، وكل جهود أبنائه، تتظافر وتتآزر لتصب بقوة وزخم في مجرى واحد، يتّجه صافياً رقراقاً ليصب بالأخرة في عملية النمو والتجذير والتأثير...

وإن مما تقتضيه الحكمة، في مجال عمليات التغيير الاجتماعي، أكبرها فضلّا عن صغيرها وكبيرها، كشرط أساس لنجاحها وشمولها، وديمومة هذا النجاح وذلك الشمول، هو توفر التجانس والانسجام في المقومات والرؤية لدى القائمين على تلك العمليات التغييرية، كما لدى الشريحة البشرية، وهي الأرضية التي تستهدفها عملية التغيير، والحقل الذي تُجرى فيه التجربة الاجتماعية.

عود إلى أجواء الآية

ومن هذا المنطلق بالذات، جاءت الآية الكريمة، لترسم حدود معالم ما ينبغي أن يكون وحده اللحمة التي تربط سدى ذلك المجتمع أفراداً وجماعات، حيث حصرت الولاية على الإطلاق، شاملة لجانبيها الحسي والمعنوي، من القرب والمحبة والنصرة بين العناصر البشرية للمجتمع الجديد في من توفرت فيه عناصر ثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض...

ومن الواضح أن هذه العناصر الثلاثة، إنما لحظ توفرها كمجموع. فلا يكفي ـ على هذا ـ وجود بعضها فقط، كالإيمان مثلًا،

أو كالإيمان والجهاد فقط، بل لا بد من اجتماعها كلها في الشخص لكي يستحق حمل هوية هذا المجتمع الجديد. . . .

ولا يخفى بأن هذه العناصر لم تتوفر وقت نزول الآية إلا في طائفتين من الناس. . .

الطائفة التي هاجرت بعد إيمانها إحدى الهجرتين إلى الحبشة أو يثرب حتى طغى على هذه الطائفة لقب «المهاجرين».

والطائفة التي آمنت بالرسول والرسالة من الأوس والخزرج بالمدينة أطلق عليهم اسم «الأنصار» حتى أصبح اسماً خاصاً بهم غُلِّب فيه جانب الاسمية على جانب الوصفية ولهذا نسب إليه على لفظه فقيل «أنصاري».

أما توفر العناصر الثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالأنفس والأموال في الطائفة الأولى فواضح لا غموض ولا لبس فيه.

وأما توفر الإيمان والجهاد بالأموال والأنفس في الطائفة الثانية فواضح أيضاً، فهم من السابقين الأولين للإسلام عندما جاؤوا إلى مكة وبايعوا رسول الله ﷺ سراً، وعاهدوه على التأييد والنصرة، والذود عنه، وطالبوه بالهجرة إليهم على أن يمنعوه وأصحابه مما يمنعون منه أنفسهم، وعاهدوه على ذلك، ووفوا بما عاهدوا الله عليه، حتى أذن سبحانه بالنصر المؤزر في بدر حيث أبلوا البلاء الحسن. .

من أجل ذلك كله، نزلت الآية الكريمة مبيّنة الدائرة البشرية التي تؤطر حدود المجتمع المسلم الجديد، ولتحصرها ابتداءً في هاتين الطائفتين المنسجمتين والمتطابقتين في المقومات المطلوبة. . .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وهؤلاء هم المهاجرون الأولون من مكة إحدى الهجرتين أو كلتيهما. . .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾.

وآواه إيواءً: أنزله مأوى سكنه ومال إليه. . .

وهذا موقف من جملة مواقف اتخذها الأنصار من المهاجرين عند وصولهم يثرب، حيث أنزلوهم في مساكنهم معززين مكرّمين، وقاسموهم، إضافة إلى بيوتهم، أموالهم وأرزاقهم، حتى شعر المهاجرون حقاً أنهم بين أهليهم وأحبتهم. وأنهم لم ينتقلوا إلى دار غربة، بل إلى دار هي أعز من دارهم التي كانوا قد ولدوا وترعرعوا فيها، وإلى قوم هم أبرّ وأرحم بهم من أرحامهم وقراباتهم. . . وقد ضرب الأنصار بمواقفهم من إخوانهم المهاجرين، أعظم مثل وأصدق للإيثار والتآخي في الله، والتواصي بالخير والمعروف، وصدق الله:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

وأولياء: جمع وليّ من الولاية بالفتح، وقد قيل في معنى ولاية الأنصار والمهاجرين هنا عدة أقوال[1]:

منها: عقد النصرة للموافقة في الديانة، ويكون المعنى على هذا: أن المهاجرين والأنصار، بعضهم أولى ببعض في النصرة، وإن لم يكن بينهم قرابة من أقربائهم من الكفار.

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٦١.

ومنها: إن بعضهم أولى ببعض في التوارث، عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة.

ومنها: إن بعضهم أولى ببعض، في التناصر والتعاون والموالاة في الدين عن الأصم.

ومنها: إن أمان بعضهم نافذ على البعض الآخر، فلو أن واحداً من المسلمين أمّن إنساناً نفذ أمانه على سائر المسلمين.

ومهما يكن من أمر اختلاف هذه الأقوال، فلا يبعد أن الموالاة هنا تتحمل كل هذه المعاني بلا تأوّل أو مبالغة، بما فيها التوارث، لما ورد في سبب نزول هذه الآية الكريمة[١]، وأنها «نزلت في الميراث، فكان المسلمون يتوارثون بالهجرة، فجعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام».

وهذا في نظري، يؤيده منطق الإسلام الحنيف، الذي ينبهنا في أكثر من مقام، على ضرورة تقديم العلاقة مع الله سبحانه على كل العلائق الأخرى، وتلاشي علائق الدم والأرض والطين إزاء علاقة الإنسان بربه وخالقه... وإلا، فهو الفسوق بعينه...

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٢٨ ومجمع البيان ٤/ ٥٦١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

بهذه المقوّمات: الإيمان، والهجرة، والجهاد، حدّدت مواصفات المواطنية في المجتمع الإسلامي الجديد بالمدينة، من دون أن يكون لتوفر بعضها، أو لعنصر الدم والقرابة أية مدخلية في استحقاقها، ولذا جاء الشق الثاني من هذه الآية المباركة واضحاً في تكريس هذه المقوّمات كمجموع، رافضة أن يكون حتى الإيمان وحده دون هجرة من أرض الكفر إلى موئل الإيمان ونصرة لأهله بالمال والنفس كافياً بأي حال:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

وذلك حق. . .

لأن الإيمان، وإن كان في حد ذاته مطلوباً ومرغوباً فيه، إلّا أنه، في ظلال رماح الشرك، وسيوف الظلم، وتسلّط الطغاة، يبقى إيماناً خائفاً متردداً، وهو بذلك يكون إيماناً سلبياً لا يشعّ ولا يعطي ولا يتوهج، في حين يريده الله إيماناً إيجابياً فاعلًا على الساحة، وهو لن يكون كذلك، إلا إذا عبّر عن نفسه بالرفض، الرفض المطلق لكل صور القهر والظلم والتسلط القائمة في مجتمع الأرض، والهجرةُ أوضح صور الرفض الهادف ذاك. . .

ولكن، ليس معنى هذا، ليس معنى نفي الولاية بين المؤمن المهاجر المجاهد، والمؤمن الغير المهاجر إلى رحاب المجتمع الوليد، أن المؤمن الأول عليه أن ينفض يديه من المسؤولية اتجاه المؤمن الآخر، فذلك مرفوض في الإسلام، وإلا فما معنى علاقة الإيمان؟

إن مسؤولية المؤمنين إزاء بعضهم البعض من خلال رابطة الإيمان، قائمة وفاعلة، ولذا فعليهم حتى بالنسبة لمن لم يهاجر منهم وبقي في نطاق المجتمع الكافر أن يهبوا لنصرته إن استنصرهم واستصرخهم فيما لو هُدِّد إيمانه ووجوده من قِبَل الكفار، إلا في حالة واحدة فقط، أن يكون استنصاره لهم على طائفة من الأعداء سبق وأبرم المسلمون معهم عهد مهادنة وميثاق سلام إلى أجل، إذ حينئذٍ يجب العمل بمقتضى بنود هذا العهد، لحرمة نقض العهد في الإسلام حتى بالنسبة للكافر.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾.

فاعلموا أيها المؤمنون، حدود ما رسمه لكم ربكم، واعملوا على المحافظة على حدوده أن تنتهكوها، وأوامره أن تعصوها...

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

* * *

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم جاءت هذه الآية المباركة، لتُلقي أضواءً على بعض مواصفات مجتمع الكفر، بلحاظ ما عليه أفراده من تكاتف وتعاضد فيما بينهم على باطلهم...

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾.

والولاية بين الكافرين هنا ربما تأتي بنفس المعاني التي وردت

بها فيما سبق بين المؤمنين. . . من النصرة، وأولوية بعضهم لبعض فيها وفي الميراث. وكون عقد الكفر أقوى عندهم من علاقة الرحم والقرابة، وذلك كان يبدو واضحاً من خلال ممارساتهم الجائرة الظالمة حتى ضد إخوانهم وأبنائهم وقراباتهم في مكة.

ولتحذّر المسلمين، وهم في بدايات تكوين المجتمع المضاد، من التفتت والتشتت عن حقهم، وضرورة مراعاة أوامر ربهم بتنفيذ تعاليمه، فيما يتعلق بالدين الجديد بشكل عام، والعمل الدؤوب على تطبيق شروط المواطنية المؤمنة في مجتمعهم العابد بدقة وحدّية، وإلا فإن أي تلكّوءٍ في ذلك، بممالأة الكفار، ومداهنتهم، والتودد إليهم، ولو بشكل غير مباشر، سوف يؤدي إلى أمرين خطيرين:

الأول: الفتنة.

ويمكن أن تحدث بصور متعددة أهمها:

ـ أن يقع المؤمنون المتواجدون بين ظهراني الكافرين بمحنة شديدة قد تؤدي بهم إلى الميل نحو الضلال نتيجة شعورهم بضعف إخوانهم بسبب تشتتهم وعجزهم عن مد يد العون إليهم في غربتهم.

ـ كفر المؤمنين المتواجدين بين ظهراني الكافرين نتيجة ضغط هؤلاء عليهم وإكراههم على أن يعودوا إلى ملتهم، ويكون الكفار في هذا الضغط وذلك الإكراه مترسلين نتيجة كون ممالأة المؤمنين لهم قد أعطوهم ـ وإن بصورة غير مباشرة ـ الضوء الأخضر لممارسة ظلمهم ذاك.

الثاني: الفساد الكبير ومعناه ـ كما عن الحسن[1] ـ سفك

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٦٢.

الدماء. وذلك أمر طبيعي، إذ إن ضعف المؤمنين إن هم لم يلتزموا ما أمروا به، وتشتتهم عن الحق، سوف يقابله في الضفة الأخرى قوة الكافرين واجتماعهم على الباطل، وفي ذلك ما فيه من تمادي الكفار في الغيّ، ونيلهم من المؤمنين بالقتل والأسر وإرجاعهم إلى حظيرة الكفر، وفي ذلك ما فيه من تكريس للباطل، بدل دحضه. مع ما يستتبعه من إضعاف لكلمة الله في الأرض بدل إعلائها.

«إلّا تفعلوه» أي[1] ما أمرتم به في الآية الأولى والثانية من التناصر والتعاون والتبُّرؤ من الكفار ولم تعلقوا التوارث بالإيمان والهجرة والجهاد ولم تقطعوه بعدمها ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

* * *

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

هذه الآية الكريمة جاءت لتؤكد الحقيقة الواردة فيما سبق، من أن الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، هي وحدها مجتمعة مقومات المواطنية الصالحة في المجتمع العابد، ملحّة على أن هذه المقومات متوفرة في طائفتي المهاجرين والأنصار دون سواهم، فهم الذين جسّدوا الإيمان في صورة حيّة متحركة فاعلة في الحياة، وهذا هو الإيمان الحق:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/ ٥٦٢.

وإن هؤلاء، كان ﴿لَهُم﴾ الجائزة الكبرى من ربهم وهي ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لهم وتجاوز عنهم بادخالهم في رحمته وإيوائهم إلى ظله ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ لا تشوبه شائبة تنغصه عليهم في الدنيا، حيث فتح عليهم بركات الأرض بما استولوا عليه من أرض الكفار وأموالهم وديارهم، وفي الآخرة، حيث يتناولون من طعام الجنة الذي لا يستحيل في أجوافهم قذارات وفضلات، بل يصير كالمسك ريحاً...

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم تجيء هذه الآية كحلقة أخيرة في استعراض مقومات سلسلة الولاية لتضع اللمسات النهائية في التشريع الإلهي حول ما ينبغي أن تقوم عليه علاقات الأفراد والفئات على اختلافها في المجتمع الإسلامي الجديد، ولتصبح تلك اللمسات من صميم تشريع ثابت يبقى ما بقي الليل والنهار، ولا يطرأ عليه تغيير ولا تبديل، حتى تتبدل السمات والأرض...

نفس المقومات السابقة الإيمان والهجرة والجهاد...

ولكن هذه الآية، فتحت الباب مشرعاً أمام أولئك الناس الذين لم يؤمنوا بعد، والمؤمنين الذين لم يهاجروا بعد، ولم يستحقوا بالتالي شهادة المواطنية الصالحة في المجتمع العابد، ونبهتهم إلى أن زمام المبادرة بأيديهم، فهم يملكون وحدهم حق تقرير مصيرهم نحو هذا الاتجاه أو ذاك، فإن هم اختاروا اتجاه من سبقوهم من المهاجرين والأنصار شملتهم كل شؤون المواطنية الصالحة، ودخلوا في ولاية الله

ورسوله والمؤمنين مع كل ما تستلزمه تلك الولاية من حقوق وواجبات لهم وعليهم إضافة إلى المغفرة الإلهية والرزق الكريم. . .

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾.

والبعدية هنا مطلقة غير مقيدة بزمان معين، ولا مكان معين، تشمل الهجرة الأولى، والهجرة الثانية بعد الحديبية، كما تشمل نزول هذه الآية، وما تلاها، وكل هجرة من دار كفر إلى دار إسلام. . .

نعم، إن السبق إلى الإيمان والهجرة باعتباره امتثالاً لأمر رباني يبقى سبقاً إلى الخير والمعروف، ويبقى السابق إليهما في درجة أعلى وأقرب إلى الله، كما نبه سبحانه إلى ذلك في قوله جلّ شأنه:

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

ثم يبين الله سبحانه أن رابطة الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد في سبيله، هي الركيزة الأساس في العلاقات الإنسانية من وجهة نظر الإسلام، فإذا انضمت إلى هذه العلائق علاقة الدم والرحم، كانت ادعى لترتب آثار تلك الرابطة وأوكد، سواء كانت تلك الآثار معنوية أو مادية بما فيه التوارث.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٠.

(٢) سورة الواقعة، الآيتان: ١٠ ـ ١١.

و«أولو» معناها: أصحاب... والأرحام، جمع رِحْم، ورَحِمْ، وهو العضو من المرأة الذي يكون بيت الولد، وذو الرحم: القرابة، وهو خلاف الأجنبي...

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾.

وقد قيل[١] في سبب نزول هذا الجزء من الآية، إن المسلمين بعدما كانوا يتوارثون بالمعاقدة والهجرة والمؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بين كل اثنين منهم في المدينة وعقدها بين نفسه الشريفة وبين أمير المؤمنين علي عليه السلام وغير ذلك من الأسباب. جاءت هذه الآية لتنسخ هذا الحكم وتجعل ذوي الأرحام بعضهم أحق بميراث بعض من غيرهم بشرط الإيمان إذ لا توارث بين أهل ملتين، كما ورد عن النبي ﷺ.

والمقصود بكتاب الله، حكم الله، عن الزجّاج[٢].

وقيل[٣]: إنه اللوح المحفوظ، كما في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[٤].

وقيل: إنه القرآن.

ثم يذكّر الله سبحانه المؤمنين، بضرورة الصدق في التعامل معه في كل ما أمرهم به، وبيّنه لهم، ظاهراً وباطناً، لأنه المطلع على

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٦٣ وابن كثير ٢/٣٢٨.
(٢) مجمع البيان للطبرسي ٤/٥٦٣.
(٣) نفس المصدر.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

سرائرهم، وخفايا ضمائرهم، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

خاتمة المطاف

وبعد، «فقد حطّم الإسلام كل الاعتبارات التي تقوم حاجزاً، بين بعض البشر وبعضه، ليقيم حاجزاً واحداً في مفرق الطريق... فإما طريق إلى الله، وإما طريق إلى الشيطان، فمن كانوا مع الله متجردين من كل اعتبار آخر، فهم أولياء بعضهم لبعض، ومن كانوا مع الشيطان، فهم أولياء بعضهم لبعض. ومن آمن بالله، ولكنه لم يتجرّد من الأواصر الأخرى التي تشده وتحتجزه، فليس بينه وبين الجماعة الإسلامية ولاية. إنما هو مسلم ينصره المسلمون حين يستنصر بهم في الدين، ـ إلا على قوم بينهم وبين الجماعة الإسلامية عهد ـ، فالإسلام يصون عهوده حتى ينبذها على سواء، ولكن المسلمين لا يحتملون تبعة ولايته، ما لم يهاجر إليهم، ويتجرد من كل آصرة سوى آصرة العقيدة التي تجمعهم».

«لقد كان الإسلام سابقاً بنظامه، وسابقاً باتجاهاته، وما يزال، وإن البشرية لتطلع في الطريق لتتابع خطواته، ولكنها لا تبلغ لأنها لا تسير على النهج، ولا تبدأ من حيث بدأ، فلا ترتفع إلى حيث ارتفع...».

والحمد لله أولّا وآخراً وظاهراً وباطناً.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

* * *

مصادر الكتاب

١ ـ الإرشاد، للشيخ المفيد.

٢ ـ أصول الكافي، للشيخ الكليني.

٣ ـ إعانة الطالبين، للسيد البكري الدمياطي.

٤ ـ اقتصادنا، للإمام محمد باقر الصدر.

٥ ـ البحر الزخّار، لابن المرتضى.

٦ ـ بدائع الصنائع، للكاساني.

٧ ـ البداية والنهاية، لابن رشد.

٨ ـ البيان في تفسير القرآن، للإمام أبي القاسم الخوئي.

٩ ـ تاريخ الطبري، لمحمد بن جرير الطبري.

١٠ ـ تفسير التبيان، للشيخ أبي جعفر الطوسي.

١١ ـ تفسير جامع البيان، لمحمد بن جرير الطبري.

١٢ ـ تفسير الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد القرطبي.

١٣ ـ تفسير الرازي الكبير، للرازي «الفخر».

١٤ ـ تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير.

١٥ ـ تفسير القرآن الكريم، للشيخ محمود شلتوت.

١٦ ـ تفسير مجمع البيان، للشيخ أبي علي الطبرسي.

١٧ ـ تفسير محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي.

١٨ ـ تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا.

١٩ ـ تفسير الميزان، للسيد محمد حسين الطباطبائي.

٢٠ ـ جواهر الأخبار والآثار، لمحمد بن يحيى الصعدي (مطبوع بهامش البحر الزخّار).

٢١ ـ جواهر الكلام، للشيخ محمد حسن النجفي.

٢٢ ـ الدر المختار ورد المحتار عليه، لابن عابدين.

٢٣ ـ الرسالة، لابن أبي زيد القيرواني.

٢٤ ـ سنن البيهقي، للبيهقي.

٢٥ ـ السيرة النبوية، لابن هشام.

٢٦ ـ شرائع الإسلام، للمحقق الحلي.

٢٧ ـ شرح الصحيفة السجادية، لمحمد جواد مغنية.

٢٨ ـ الصواعق المحرقة، لابن حجر العسقلاني.

٢٩ ـ العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد تسيهر.

٣٠ ـ فلسفة التشريع في الإسلام، لصبحي المحمصاني.

٣١ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير.

٣٢ ـ كتاب المنطق، للشيخ محمد رضا المظفر.

٣٣ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للإمام جار الله محمود الزمخشري.

٣٤ ـ كفاية الاصول، للمحقق الخراساني.

٣٥ ـ كفاية الطالب، لعلي بن الحسن الشاذلي.

٣٦ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلي بن محمد البغدادي الخازن.

٣٧ ـ لسان العرب، لابن منظور.

٣٨ ـ مجلة القضايا المعاصرة، الجزء الثاني من المجلد الأول تشرين الثاني/ ١٩٦٩.

٣٩ ـ محيط المحيط، للبستاني.

٤٠ ـ مختصر مختار الصحاح، للرازي (عبد القادر).

٤١ ـ المسائل المنتخبة، للإمام الخوئي.

٤٢ ـ مسند أبي داوود.

٤٣ ـ مسند أحمد.

٤٤ ـ مصادر التشريع فيما لا نص فيه، لعبد الوهاب خلاف.

٤٥ ـ المغني والشرح الكبير، لابن قدامة المقدسي.

٤٦ ـ النص والاجتهاد، للإمام عبد الحسين شرف الدين.

٤٧ ـ نيل الأوطار، للشوكاني.

٤٨ ـ وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة، للشيخ الحر العاملي.

الفهرس

مقدمة ٥
تمهيد ١٣
سبب النزول ١٦
شبهة وردّها ٢٠
تفسير وتوجيه ٢١
دعوى نسخ هذه الآية ومناقشتها ٢٤
الخصلة الأولى ٢٧
توهم ودفع ٢٨
الوجل والاطمئنان من أفعال القلب ٢٩
الخصلة الثانية ٣٠
الخلاف حول ازدياد الإيمان ٣٠
مناقشة ٣١
رأي الشيخ شلتوت في المسألة ومناقشته ٣١
اختيار واستدلال ٣٣
الخصلة الثالثة ٣٥
الخصلة الرابعة ٣٧

إقامة الصلاة ٣٧
الخصلة الخامسة ٣٨
الإنفاق مما رزقهم الله ٣٨
استفادة من النص وتعليق ٤٣
نعمة إمدادهم بالملائكة ٥٠
الرأي المختار ٥١
تعقيب وتنبيه ٥٣
نعمة النعاس ٥٣
حكمة ورحمة ٥٤
نعمة إنزال المطر ٥٦
قصة التطهّر وما ترتب عليه ٥٦
قصة تثبيت أقدام المسلمين والحكمة منها ٥٨
الخلاف حول اشتراك الملائكة في القتال ٥٨
اختيار واستدلال ونقاش ٥٩
مع حكم من أحكام الجهاد ٦٢
الخلاف حول عموم هذا الحكم ورأينا فيه ٦٤
رأي وتفنيد ٦٨
النداء الأول: الأمر بإطاعة الله ورسوله ٧٠
النهي عن التولّي عن الرسول(ص) ٧٠
سبب نزول هذه الآية ٧٢
وجهة نظر ٧٣
النداء الثاني: الأمر بالاستجابة لله وللرسول ٧٣
الإسلام هو الحياة ٧٣

شطرا المسؤولية في الإسلام ٧٧
عود إلى أجواء الآية ٧٨
درس وعبرة ٧٩
تعقيب وتوجيه ٨٠
تنبيه وتذكير ٨١
قلّةُ المسلمين في مكة واستضعافهم ٨١
النصر الأول للإيمان بمكة ٨٢
الإيواء الأول للمؤمنين ٨٣
النصر الثاني للإيمان بالحبشة ٨٤
الإيواء الثاني للمؤمنين ٨٦
النصر الثالث للإيمان ٨٧
سبب نزول هذه الآية ٨٨
النداء الثالث: النهي عن خيانة الله والرسول ٨٩
ما نفهمه من لفظ الأمانات في الآية ٩٠
أعظم الأمانات ٩٠
العقل أمانة ٩٢
النفس أمانة ٩٢
الكون أمانة ٩٣
النداء الرابع: التقوى وأثرها في حياة المؤمنين ٩٥
الجهة الأولى ٩٥
الجهة الثانية ٩٦
الجهة الثالثة ٩٧
سبب نزول هذه الآية ٩٩

مكر الله، ما معناه؟ ١٠٠
كيف يكون الله خير الماكرين؟ ١٠٠
الرأي المختار ١٠١
تمهيد ١٠٢
الحرب الفكرية ١٠٤
ما استهدفته هذه الحرب ١٠٤
الحرب الفكرية واستهدافها لشخص النبي(ص) ١٠٤
وحدة الأسلوب مع اختلاف الزمان والمكان ١٠٥
الحرب الفكرية واستهدافها للعقيدة ١٠٦
النبوة وحملات التشكيك ١٠٦
التوحيد وحملات التشكيك ١٠٨
الحرب الفكرية واستهدافها للقرآن ١٠٨
عود إلى أجواء الآية ١٠٩
درس وعبرة وتنبيه ١١٠
أمطرت ومطرت والفرق بينهما ١١٣
استيضاح وتوضيح ١١٣
سبب نزول هذه الآية ١١٧
الحرب المادية وسبب نزول هاتين الآيتين ١١٨
غاية مقصودة وغرض سامٍ ١٢٠
عرض وتمهيد ١٢٢
جولة مع التأريخ ١٢٢
عود على بدء ١٢٥
أهداف القتال في الإسلام ١٢٦

حكم إلهي وحكمة بالغة ١٣٠
المراد بالغنيمة في اللغة ١٣١
المراد بالغنيمة في الآية الكريمة ١٣٢
خلاف الفقهاء حول خصوص الحكم في الآية وعمومه ١٣٢
رأي جمهور الفقهاء ١٣٢
رأي فقهاء الزيدية ١٣٣
رأي فقهاء الإمامية الاثني عشرية ١٣٣
اختيار واستدلال ١٣٤
الأصناف المستحقة للخمس ١٣٦
تنبيه ١٣٧
القول الثاني ١٣٨
اختيار واستدلال ونقاش ١٣٨
خلاصة البحث ١٤١
المستحقون للخمس ١٤١
ما نفهمه من الآية ١٤٢
المراد بذي القربى ١٤٢
الأقوال في المسألة ١٤٣
اختيار واستدلال ١٤٦
تعليق وتوضيح ١٤٦
تعقيب وتوضيح ١٤٧
موقف وتعليق ١٤٨
المراد باليتامى ١٤٩
المراد بالمساكين ١٤٩

الفرق بين الفقير والمسكين ١٥٠
المراد بأبناء السبيل ١٥٠
وقفة أخيرة ١٥١
حكم الأخماس الأربعة الباقية ١٥١
تفريعات ١٥٣
دور الخمس في حياة الأمة ١٥٨
تمهيد ١٥٨
دور الخمس على الصعيدين النفسي والاجتماعي للأمة ١٥٨
دور الخمس على الصعيد الاقتصادي للأمة ١٦١
عود إلى أجواء الآية ١٦٤
تعجّبٌ وتعليق ١٦٧
لطف إلهي ١٦٩
تساؤل وجواب ١٧٠
لطف إلهي آخر ١٧١
رأي وتعليق ١٧١
مع لطف إلهي جديد ١٧٢
نُقْلَةٌ بين آيتين ١٧٣
درس وعبرة ١٧٤
النداء الإلهي ودلالاته ١٧٧
الثبات في المجابهات الفكرية ١٧٩
شاهد من تاريخ الإسلام ١٧٩
الثبات في المعارك الحربية ١٨٠
جولة مع الماضي ١٨٤

نهي بعد سلسلة أوامر ١٨٧
الهجرة إلى الله ورسوله ١٨٨
الهجرة المضادة ١٩٠
مقياس واضح ١٩١
عوْدٌ إلى أجواء الآيات ١٩١
مصبّ النهي الإلهي ١٩٢
البطر مرض نفسي ١٩٣
مطابقة الحكم للموضوع ١٩٦
الصدّ عن سبيل الله ١٩٦
موقع الشيطان من واقع المشركين؟! ١٩٨
وسائل شيطانية ٢٠٠
تعهّد شيطاني حار. . . ولكن؟! ٢٠٢
وُعودٌ. . . وَوُعُودٌ ٢٠٣
نكوصٌ وتنصُّل ٢٠٤
للطبري رواية. . . ولنا رأي ٢٠٥
درس وعبرة ٢٠٨
تمهيد ٢١٨
العهود والمواثيق في الإسلام ٢٢٦
عود إلى التوجيهات الإلهية ٢٢٨
الهدف من هذا الانتقام؟ ٢٢٩
قوة هادفة ٢٣٤
نكتة أخيرة ٢٣٩
واقعية وعقلانية ٢٤١

الخلاف حول ناسخية الآية ٢٤٦
إمكان النسخ ٢٤٧
حكمة وأسلوب ٢٤٨
سبب نزول الآيات ٢٥٠
غفلة وتأنيب وتذكير ٢٥١
ما سبق وما لحق ٢٥٣
تطييب وترغيب ٢٥٧
شرط لا بد من تحققه ٢٥٩
تحذير وتذكير ٢٦٠
معالم مجتمع جديد ٢٦١
ضمانات لا بد من توافرها ٢٦٤
عود إلى أجواء الآية ٢٦٤
خاتمة المطاف ٢٧٥
مصادر الكتاب ٢٧٧
الفهرس ٢٨١